

الفُرْقَان

١٩ - ٢٠

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفُرْقَان

في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ سُورَةُ الْبَنَاتِ سُورَةُ الْقَصَصِ

الجزء التاسع عشر والعشرون

دار النواث الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع
ببغداد - العراق

سورة الشعراء مكية

وآياتها سبع وعشرون ومائتان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
(٣) إِنَّ نَشَأَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ
مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَدَّتٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

تسمى هذه السورة بـ «الشعراء» إذ تحمل آية الشعراء ، تنديدا بالذين يتبعهم الغاؤون ، حيث ينبع الشعر من الخريطة والغواية ، ويستخدم للإغواء والضلالة وما أكثره! ثم وتمجيدا بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات حينما الشعر ينبع من الايمان ويستخدم لعمل الايمان ، وما أقله!.

الشعراء هي من الطواسين الثلاث ^(١) المتشابهة في هذه الافتتاحية ، إلا ناقص الميم في النمل.

وهيكل السورة هو السرد القصصي الشاغل جَوْها في ثمانين ومائة آية ، والباقية من آياتها هي كمقدمات وتعقيبات ، والكل تؤلّف وحدة متناسقة متجاوبة تلتقي عند هدف واحد واتجاه فارد هو تصحيح العقيدة بزواياها الثلاث : المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد : من الوحي بنزله ومنزله ، ناضرة ناظرة إلى الرسالة الموسوية في البداية ، ناحية . في ذلك التأشير العشير . منحى الرسالة المحمدية السامية ، فقد يصدّق ما يروى عن رسول الهدى (ص) «وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى» ^(٢) أو ان «الطاء» هي طور

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٥ في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله (ع) قال : من قرأ سور الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء الله في جواره وكنفه ولم يصبه في الدنيا بؤس أبدا وأعطى في الآخرة من الجنة حتى يرضى وفوق رضاه وزوجه الله مائة من الحور العين ، وفي المجمع أبي بن كعب قال : قال رسول الله (ص) من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد كل من كذب بعبسى وصدق بمحمد (ص).

(٢) نور الثقلين ٤ : ٤٥ عن كتاب ثواب الأعمال عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) قال قلت لجعفر بن محمد عليهما السلام يا ابن رسول الله (ص) ، معنى قول الله عز وجل «طس وطسم»؟ قال : واما «طس» فمعناه أنا الطالب السميع وأما «طسم» فمعناه انا الطالب السميع المبدئ المعيد.

سيناء . أم شجرة طوبى ، والسين : سدره المنتهى ، والميم محمد المصطفى^(١) مما يجمعه أن: «طسم»^(٢) خطاب للرسول الأقدس محمد (ص) فان شجرة طوبى المتشجرة عن روحه القدسية كل الطوباويات الرسالية ، وهو الناحي منحى السدره المنتهى ، إذ كان من ربه قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى ، فهو منتهى السدره الرسالية معرفية وفي التقوى أمّا هيه ، كما وأنها من أسماء الله الحسنى والرسول (ص) نفسه القدسية منها بأعلى قمته ، وكما يروي «نحن الأسماء الحسنى» فكما ان لله اسماء ذاتية هي صفاته الذاتية الثلاث ، ومن ثم فعلية هي فاعلياته الخلقية ، كذلك له اسماء عينية تدل عليه هي الحقائق الأفاقية ومحمد (ص) في أعلى قممها! وقد يلوح اليه ظاهر الخطاب من الآيات التالية لها ، ف ﴿طسم﴾ إذا . تعني محمدا (ص) الطوبى والسدره المنتهى ، كما تعني بضمه طور سيناء حيث الآيات الآتية تتحدث عن صاحبها موسى (عليه السلام).

وكما أن لمعانيها معالي ، كذلك لرسمها وألفاظها مجالي ترسمها روايات عن المصطفى (ص)^(٣) وإن للقرآن ككلّ جلوات في مختلف المجالات ، محلقة

(١) المصدر روى عن ابن الحنفية عن علي (ع) عن النبي (ص) لما نزلت «طسم» قال : الطاء طور سيناء. وقال الطاء شجرة طوبى ...

(٢) وفي تفسير البرهان ٣ : ١٧٩ ابن عبد الله في معاني الأخبار بسند متصل عن سفيان بن سعيد الثوري أقول : وقد يعني انها صورة عن السيرة الموسوية الموحاة اليه في الألواح ، لا أنها هي ، حيث التعبير القرآني ، بما يحويه هو منقطع النظر عن كل سفر لكل بشير ونذير!.

(٣) تفسير البرهان ٣ : ١٣٨ ابن بابويه قال رسول الله (ص) من أدمن قرائتها لم يدخل بيته .

في إنارتها وإدارتها كل دوائر الكون تكوينيا وتشريعيا ، كيف لا؟ وهي نازلة بعلم الله ، حاملة كل رحمة الله!

ثم وفي ﴿طسم﴾ رموز غيبية لم يكشف لنا عنها النقاب ، فانها بسائر الحروف المقطعة مفاتيح كنوز القرآن ، لا يعرفها حق معرفتها إلا من خوطب بها ، والمذكورة منها هنا بسناد روايات في شأنها لا تصدق تماما ولا تكذب ، لأنها ليست قطيعة الصدور ولا الاختلاق ، اللهم إلا نفس الخطاب المستفاد من الكتاب ، انه (ص) هو المخاطب ب ﴿سم﴾ فتصبح تلك الروايات قربة التصديق ، فواجهة الخطاب فيها هي الرسول (ص) ومن يحذو محذاه وينحو منحاه.

ولماذا تذكر هذه الحروف في القرآن البيان ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، إذا لم يكن فيها لهم بيان؟.

لأن القرآن بيان لجميع العالمين ومنهم وفي قمتهم رسول القرآن ، فليختص به من ذلك البيان قسم من القرآن ، مهما يعمه والمعصومين من عترته وهم مستمررون لحد الآن وإلى أن يقوم قائمهم ، حيث يتمثلون فيه

. سارق ولا حريق ولا غريق ومن كتبها وشرها شفاه الله من كل داء ومن كتبها وعلقها على ديك ابيض أفرق فإن الديك يسير ولا يقف إلا على كنز أو سحر ويحفره بمنقاره حتى يظهره. وفيه عن الصادق (ع) من كتبها وعلقها على ديك ابيض أفرق وأطلقه فإنه يمشي ويقف موضعا حيث ما يقف فانه يحفر موضعه فيه يلقي كنز أو سحر مدفون وإذا علقت على مطلقة يصعب عليها الطلاق وربما خيف فليتنق فاعله فإذا رش ماؤها في موضع خرب ذلك الموضع بإذن الله تعالى.

أقول : قصة الديك مشكوكة الصدور عن الرسول (ص) حيث التجربة الواقعية لا تصدقها تماما فليرجع علمه إلى قائله.

كلهم ، فليكن له نصيب في هذا الاختصاص.

وإن لسائر العالمين منها نصيب على أقدارهم وقدراتهم المعرفية في زوايا ثلاث ثالثتها ما قد يتنبه لها الذين يأتون بعدنا فان «للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن».

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢).

«تلك» النازلة عليك من قبل والتي تنزل عليك الآن ومن بعد ، فهي هي النازلة عليك في مثلث زمن الرسالة القرآنية بعهدتها المكي والمدني ، «تلك» ككل هي ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ : القرآن ، فهو الكتاب المفصل وهذه أبعاد الآيات إضافة للآيات إلى أنفسها : الكتاب ، اعتبارا لها أبعاضا منفردات وله مجموعا يحويها ، كما يقال أبعاضه ، وإجزاء الدار. «المبين» ما يحق إبانته من الحق المرام ، أنها من آيات الله دونما اختلاق إذ ليس فيها اختلاف ، وأنها تبين احكام الفطرة والعقل والشرعة ، وتبين الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق من ربهم ، فلا قصور . إذا . في إبانته ما يبين ولا تقصير ، مهما قصروا هم أولاء أو قصروا بجنبه . وقد لا يعني ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ما كان لدى الله قبل إنزاله أو تنزيله : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ ، فلمن هو . إذا . مبين؟ ولا المنزل على الرسول ليلة القدر فانه ليس مبينا إلا له ، اللهم إلا ان يعنى المبين له اجمالا عن المفصل ، وهذه هي آياته المفصلات حيث الكتاب يبين فيها معارفه تفصيل البيان والإبانة عن أي كان.

ف «تلك» إذا تعني كل القرآن المفصل ، فانه آيات الكتاب المحكم النازل على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وقد يعني ﴿الْكِتَابِ

﴿الْمُبِين﴾ القرآن ككل ، و **﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾** أبعاضه.

أم ويعني ام الكتاب عند الله فانه بشأن الإبانة للرسول وللأمة ، فهو مبين بعلاقة الأول.

وعلى الثلاثة كلها معنية ، فهذه الآيات المفصلات ، هي آيات القرآن المفصل ، وهي ككل . آيات القرآن المحكم المنزل الى الرسول ليلة القدر ، وهي آيات ام الكتاب . والكلم هي آيات ام الكتاب المقدر نزوله للمكلفين الى يوم الدين دون زيادة أو نقصان.

فالقرآن حجة كافية وآية وافية تبين الحقائق لكل العقول وفي كل الحقول ، لمن ألقى السمع وهو شهيد ، كما وان نبي القرآن حجة صافية ضافية يتبنى حجة القرآن ، حجتان بارعتان تحلقان على كافة الحجج دون قصور ولا تقصير ، فلما ذا إذا البخوع؟ :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

البخع هو قتل النفس غمًا ، و **﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ..﴾** توحى بمدى اهتمام الداعية الرسالية في حمل الناس على الايمان ولما يسطع . ولن . إلا ما شاء الله ، فحين لا يحملهم الكتاب المبين على الايمان لعتوهم وتصلبهم على اللإيمان ، كذلك . وباحرى . ليس ليحملهم الرسول المبين على الايمان بنفس السند **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾** (١٨ : ٦) **﴿.. أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**.

و «لعل» هنا حكاية لحال الترجي لو بقيت حالته كما هي ، والأصل في الدعوة هو تأثيرها ببقاء الداعية ، وأما أن تبخع نفس الداعية دونما تأثير للدعوة فهو دعوة فاضية بدل ان تكون فائضة!.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾

خاضعين ﴿٤﴾.

صيغة التعبير عن الآية الرسالية التي هي لزامها «نشأ ان ننزل آية» وعن الآية المستحيلة المقترحة ﴿إِنْ نَشَأْ﴾ ف «إن» هنا دون «لو» توحى بإمكانية هذه المشيئة وقوعها ، أن تتحقق حالا أو استقبالا ، ومن الثاني آية قيام المهدي عجل الله تعالى فرجه حيث تخضع أعناقهم^(١).

إنه تعالى لا يشاء مبدئيا أن ينزل عليهم من السماء آية بعد آية القرآن

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٦ في ارشاد المفيد وهب بن صفي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول في الآية سيفعل الله ذلك بهم ، قلت ومن هم؟ قال : بنو أمية وشيعتهم ، قلت : وما الآية؟ قال : ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر وخروج صدر ووجه في عين الشمس يعرف بحسبه ونسبه وذلك في زمان السفياي وعندها يكون بواره وبوار قومه ، وفي روضة الكافي بسند عن عمر بن حنظلة قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : خمس علامات قبل قيام القائم (ع) الصبيحة والسفياي والخسفة وقتل النفس الزكية واليماني ، قلت : جعلت فداك إن خرج أحد من أهل بيتك قبل هذه العلامات أخرج معه؟ قال : لا . فلما كان من الغد تلوت هذه الآية : ﴿إِنْ نَشَأْ...﴾ فقلت له : أهى الصبيحة؟ فقال : أما لو كانت خضعت أعناق أعداء الله عز وجل ، وفي كتاب الغيبة للطوسي باسناده إلى الحسن بن زياد الصيقل قال : سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد (عليهما السلام) يقول : إنَّ القائم لا يقوم حتى ينادي مناد من السماء يسمع الفتاة في خدرها ويسمع أهل المشرق والمغرب وفيه نزلت هذه الآية : ﴿إِنْ نَشَأْ...﴾ وفي تفسير القمي عن أبي عبد الله (ع) قال في الآية ، تخضع رقابهم يعني بني امية وهي الصبيحة من السماء باسم صاحب الأمر صلوات الله عليه ، وفي كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسند متصل قال علي بن موسى الرضا (ع) في وصف القائم (غ) وهو الذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء اليه يقول : ألا ان حجة الله قد ظهرت عند بيت الله فاتبعوه فان الحق والايمان عند الأولى يفيد وهو عند الثانية غير مفيد لأنه إيمان عند رؤية البأس.

الباهرة الكافية ^(١) فإنه الآية الخالدة لهذه الرسالة المفتوحة للأمم بأسرها ، فليست رسالة محدودة مغلقة على أهل زمان دون آخرين ، والآية القاهرة البصرية مهما عظمت وعلت لا تلوي وتخضع إلا أعناق المستكبرين زمنها حيث يشاهدونها ، ثم تبقى بعدهم قصة تروى ، وواقعا يشهد فيستشهد به لصدق الرسالة ، فآية ﴿إِنْ نَشَأْ﴾ وهي غير محتومة تخضع أعناقهم شاءوا أم أبوا ، وآية القرآن تهديهم إلى الحق ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ فآية التسيير محتومة ، وآية التخيير غير محتومة.

وهذا القرآن كتاب مفتوح وآية خالدة تمشي مع الزمن ، يستمد منها كل الأجيال طول الزمان وعرض المكان لكل جن وانسان ، مستمرا برصيده لا ينفد ، بل ويتجدد ولا يتبدد أو يتلبّد ويتبلّد ، فهو أمام كل حق جديد وإمام كل قديم وجديد ، فطبيعته . إذا . هي طبيعة رسالته الدائمة ، لا يحرم عن حجته أي ذي حجي ، إلا من تنازل عن حجاه ، وتروى إلى رده ، إذا ف ﴿إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾. وترى كيف يصح «خاضعين» خبرا عن «أعناقهم»؟ علّه حال عن ضمير الجمع والخبر المحذوف «خاضعة» فان خضوع أعناقهم من مظاهر

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٦ في الكافي وروي ان امير المؤمنين (ع) قال في خطبة له : ولو أراد الله حل ثناءه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن البلدان ومغارس الجنان وأن يحشر طير السماء ووحش الأرض معهم لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحل الابتلاء ولما وجب للقائلين أجور المبتلين ولا لحق المؤمنين ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين ولذلك لو انزل الله من السماء آية ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين ... أقول : «لو» هنا للتأشير الى القسم المستحيل من نزول آية معه وفيه وهو قول الله عز وجل «ان نشأ ..».

خضوعهم في أنفسهم! أو أن «أعناقهم» تعني أعناق الأجساد إلى أعناق الأرواح ، فهي اصول العقول!

أم الأعناق هنا هم رؤساؤهم الأصلاء في الضلالة والإضلال ^(١)! أم هم جماعات منهم ضخمة هائلة! أو ان «أعناقهم» هي مربعة الأضلاع ، تعنيها بأسرها.

والقرآن آية سماوية روحية نازلة من سماء الوحي ، كافية لمن يعقل ، ولكنهم قوم لا يعقلون ، ف ﴿نَشَأُ نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ المادية «آية» بصرية ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ شاءوا أم أبوا ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٥).

وهذه هي طبيعة هذا الجيل الصلّت من الناس النسناس أنهم لا يتذكرون بأي ذكر من الرحمن ، بل هم عنه معرضون ، إذ هم عنه عمون ، فلما ذا . إذا «نزل عليهم آية من السماء؟» اللهم إلّا عذابا وبلاء ، فأية السماء المخضعة الأعناق ، هي للمؤمنين نور على نور ، وللمعاندين نار على نار ، فحين تظل أعناقهم لها خاضعين ليسوا ليؤمنوا بها ، ولو آمنوا فهو إيمان عند رؤية البأس ليس ليفيدهم ، فليس الله . إذا . لينزل عليهم آية من السماء بعد آية القرآن ، حجة بعد حجة ، وإنما لجة غارقة ، أو نار حارقة.

و «محدث» تعني فيما تعنيه أن ذكر الرحمن محدث أيا كان ، إذا فكلام الرحمن محدث ، وما اسطورة القدم في كلام الله قرآنا وسواه إلّا هرطقة هراء مهما سمي به علم الكلام.

(١) وهذا الأخير يناسب زمن الرجعة حيث يرجع فيها من محض الكفر محضا ، وهم أعناق الضلالة واساطينها.

ف ﴿ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أيًا كان هو فعله ، وليس ذاته أو من صفات ذاته حتى يكون قديما أزليا ، فلا ذكر إلا لمتذكر ، ليس قبله ولا بعده ، فكما المتذكر خلق محدث ، كذلك الذكر خلق محدث.

و «محدث» لها واجهة ذاتية هي الحدوث الذاتي فيشمل كل ذكر من الرحمن ، وأخرى نسبية تعني الحادثة الجديدة بعد القديمة ، فهؤلاء يرفضون محدث الذكر من الرحمن مخلدين إلى قديمه أيًا كان ، كإخلاق أهل التوراة إلى التوراة رفضا لما بعدها ، وإخلاق أهل الإنجيل إلى الإنجيل رفضا للقرآن ، رغم أن الجديد من الرحمن كما القديم ، وفي الجديد تجديد وتقديم إلى ما ليس في القديم! والذي يعرض عن محدث الذكر هو . بطبعه . معرض عن قديمه مهما ترائى انه مقبل إليه.

وقد يشمل «محدث» أصله قديما وحديثا ، كما يشمل حديثه ، فذكر الرحمن سلسلة موصولة آخرها إلى أولها ، والإعراض عن جانب منها اعراض عنها كلها.

وقد يعنى من «ذكر محدث» . فيما تعنيه . أي الذكر الحكيم التي تترى عليهم تلو بعض ولصق بعض ، بل هو أهمّ الذكر وأتمه ، وسائر الذكر توطئة له وتعبيد طريق! ..

أم ان «ذكر محدث» تخلق على كل ذكر آفاقي وأنفسي ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾.

ولماذا ﴿ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ والذكر رحمة رحيمية أيًا كان؟ علّه لأن الذكر هو قضية الرحمة العامة حيث تعم كافة الأهلين له من آمن منهم ومن كفر ، ومن ثمّ هو لمن آمن رحمة رحيمية.

ف ﴿ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ ككل هو رحمة رحمانية حيث يعم المتذكر

والمعرض ، وهو لمن يتذكر رحمة رحيمية.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبُؤًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦).

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بكل ذكر من الرحمن محدث أم أي ذكر ﴿فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبُؤًا﴾ : أخبار هامة ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يوم الدنيا كآية مخضعة لها ، إن في الرجعة أم قبلها ، أو يوم البرزخ والأخرى حيث يتجسد فيها ذلك التكذيب الكذيب ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧).

ألم يروا إلى ما خلق الله من شيء ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ فالواو هنا تعطف إلى آية البصرة ﴿مَنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ﴾ فان لم يتبصروا بما فليبصروا إلى آية حسية هي الأرض نباتاتها من كل زوج كريم ، فالزوجية التي هي لزام الأرض بأشياءها دليل الحاجة إلى الخالق الفرد الأحد ، ومختلف اشكال أزواجها دليل على التصميم ووحدته.

فهذه الأرض التي يعيشون عليها ، أم وسائر السبع مهما تطلبت الرؤية إليها أسفاراً جوية ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جماد ونبات وحيوان ومن إنس وجان ، : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فكل شيء من كائنات العالم أرضية وسماوية زوج ، مهما اختلفت الأزواج في كونها وكيانها ، ولا فرد حقيقياً إلا الله.

﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من فرد كريم واسع الرحمة ، فكل زوج كما خلق الله وأنبت كريم ، ولا لؤم ولا شؤم إلا من أنفس الأزواج ، منها أو من نظائرها ، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾.

تعقيبة مكرورة في عرض لآيات كونية واخرى رسالية تشريعية ، تتكرر مرات ثمان بمناسبة ثمان ، أولاها هي موقف الكفار أمام هذه الرسالة السامية ومن ثم موسى وابراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، كما وتختتم السورة بعرض الرسالة الإسلامية كما بدأت به .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ البعيد المدى القريب الصدى من نابت كل زوج كريم ومن كل ذكر محدث من الرحمن حيث يتجاوبان «لآية» تدل على مزوجه ومزوج كل ذكر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ : المكذبين على مدار الزمن حيث يتغافلون عنها ﴿مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الهدى «لهو» لا سواه «العزیز» القاهر الغالب «الرحیم» بعباده في موضع العفو والرحمة.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْخُلَا بَابَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَاتَّبَعَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ

فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْكَ بِشْيءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)

قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ
 (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا
 نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا
 نَخْشِ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ
 مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَاهُمُوعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى
 عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
 عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ

أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلَّيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ
 (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ
 أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ
 قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ
 (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
 سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ
 الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) ﴿وَأُنَجِّنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا
 الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

تسعة وخمسون آية تستعرض معارضة فرعون الرسالة الموسوية منذ البداية حتى غرق فرعون وقومه ، عرضا لطائل الحوار بينهما ، ثم مسرح السحرة والآية الرسالية الى ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

ومن ثم نرى عرضا لرسالة ابراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب (عليهم السلام) كلا في قصص له بتلحيقه واحدة : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تسليية لخاطر الرسول الأقدس (ص) كيلا يخلد بخلده الشريف أنه بدع من الرسل في مواجهة التكذيب ، فالرسالات الإلهية هي ذات طبيعة واحدة وصاحبة عرقلة واحدة ، فعلى الداعية التصبر في الدعوة حتى النهاية.

ولقد مضت حلقات من قصة موسى في البقرة والمائدة والأعراف ويونس والأسرى والكهف وطه ، اضافة إلى إشارات أخرى في سواها ، وكل هذه متناسقة مع جو السورة وموضوعها الرئيسي ، والحلقة المعروضة هنا هي مسرح الرسالة المعارضة لصرح الفرعونية الجبارة ، مقسمة إلى مشاهد متنوعة بينها فجوات متناسقة.

وقصص موسى كسائر القصص القرآنية جديدة في كل مسرح رغم تكرارها موضوعيا ، لأنها تناسق كل الأجواء المستعرضة فيها ، لولاها لكان الجو ناقصا ، فالى مشاهد سبعة هنا بين موسى وفرعون :

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ (١١).

ذلك النداء يتم بعد ما يكمل موسى عشر حجج في مدين بعد ما خرج إليها من مصر خائفاً يترقب ﴿ثُمَّ جِئْتَهُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (٢٠ : ٤٠) ففي ذلك القدر المقدر لبزوغ الرسالة هكذا يؤمر.

واذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَى﴾ كما ناداك ، وآواه كما آواك ﴿أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم وظلموا الحق ، عائشين في ثلوث الظلم ، المظلم جو الحياة على عائشيها ، ففي الرسائل الإلهية سلبات وإيجابيات ، سلباً لآلهة الأرض ثم إيجاباً لإله السماوات والأرض ، وسلباً لأي ظلم من أي ظالم فإيجاباً للعدل : ﴿أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فقد اظلمت الجوّ طغواهم ، فلتحملهم على تقواهم ، ام لا قل تقدير تصدهم عن طغواهم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٤).

أعذار أربعة يعتذر بها موسى عن ذلك الإتيان ، أنكوصاً عن تكليف الرسالة بأسره؟ وكيف يرسل الله الناكص المنتكس! أم عرضاً لحاله استنصاراً من ربه على عدوه؟ وعلمه بحاله يكفي عن مقاله!.

في الحق إنه عرض الحال التماساً وهو يعلم الحال ، وكما في كل دعاء واستدعاء ، و ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ برهان لا مرد له على عدم النكوص ، وانما هو استمداد من ربه ان ينصره على عدوه.

وترى فرق التكذيب والقتل في سبيل الدعوة أهما مما يتطلب عرض الدعاء ، وهما طبيعة الحال في كافة الدعوات الرسالية؟ ففريق يكذبون

وآخرون يصدّقون ، وفريق يحاولون قتل الداعية وآخرون يمانعون؟.

إنه هنا يخاف التكذيب المطلق ألا يصدق ابدا ، لا مطلق التكذيب ممن دأبهم التكذيب ، ويخاف أن يقتل قبل نشور الدعوة ، إذا فما هي فائدة هذه الدعوة بين تكذيبها وقتل الداعية؟!.

ثم ومن دوافع التكذيب المطلق والقتل ﴿وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ...﴾ فلذلك ﴿يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ وذلك قصور في الدعوة ، فليستمد ربّه بامدادات متصلة واخرى منفصلة كـ ﴿فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ﴾.

فلئن كان منشرح الصدر منطلق اللسان كان بالإمكان ان يرتد تكذيبه كيفما كان ، فهو الاحتياط الرسالي حفاظا على سلامة الدعوة لا. الداعية اللهم إلا لسليم الدعوة وقاطعها.

فقد احتاط من أن يحتبس لسانه في بزوغ الدعوة وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه ، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة منذ البداية ، واحتاط من ان يقتلوه فتتوقف دعوته دون ان تجبر عن ضعفها ، وهذا هو اللائق بموسى الرسول الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه ، ونراه مستجابا فور دعوته.

ومما لا بد منه في كل دعوة رسالية مجال التصديق وتحوال الدعوة قبل قتل أو موت الداعية ، وانشرح صدره وانطلاق لسانه ^(١) في الدعوة ، فلذلك ﴿قَالَ رَبِّ ...﴾. هنا من دوافع تكذيبه المطلق وقتله ﴿وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ...﴾ أن قتلت

(١) تجد تفصيل القول في عقدة لسانه في طه فراجع.

منهم نفسا فلا يفسحون لي . إذا . مجالا للدعوة ، ومنها ان فرعون رباني وليدا ، فهو يتفرعن عن ان يسمع إلى دعوة ربييه ، المناحرة لدعوته .

ولم يكن قتله القبطي ذنبا في شرعة الله ، فانما ﴿ هُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾ في زعمهم ، وأما المشرك المحارب فمسموح قتله ولا سيما حالة الدفاع ، مهما كان قتله في واجهة أخرى غير مشكور ، إذ آخر دعوته الرسالية عشر سنين ... وهنا يجد حاضر الاستجابة فور الدعوة :

﴿ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ (١٥).

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى ﴾ (٢٠ : ٤٦) ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا

مُوسَى ﴾ (٢٠ : ٣٦).

كلا! فلن يكذبوك إلا ومعهم مصدقوك ، كلا! لا يضيق صدرك فقد شرحناه ، ولا يحتبس لسانك فقد أطلقناه ، كلا! ولن يقتلوك فقد راعيناك «فاذهبا» أنت وأخوك هارون «بآياتنا» التسع إلى فرعون وملاه «إنا» بجمعية الصفات على جمعية الرحمت «معكم» أنتما ومن اتبعكما «مستمعون» قالة فرعون وقومه ، فمجيبون في قال وحال وفعال ف ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٢٨ : ٣٥).

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١٧).

هناك «أئت» إذ كان فريدا في رسالته ، فلما زود بوزير له وهو من سؤله . إذا .

«فأتيا» ولأن هذه الرسالة في الأصل واحدة يحملها موسى بموازرة هارون ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا «رسولا» إذ لا اثنيّة فيها لا في مادة الرسالة ولا في آياتها مهما كانا

رسولين كحاملي هذه الرسالة ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ (٢٠ : ٤٧).

﴿فَأْتِيَا ... أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فلم يكن رسولا إلى فرعون وملاؤه . فقط .
ليدعوهم إلى شرعته ، بل ليطلب . بالفعل . إطلاق بني إسرائيل عن أسرهم وتسريحهم عن
حصرتهم ﴿إِنَّا رَسُولُ ... أَنْ أَرْسِلَ﴾ دون «آمن وأرسل» مما يصرح أن هذه الرسالة ليست
بالفعل إلا ناحية منحى السلب ، أن يتخلى فرعون عن بني إسرائيل فإنهم هنا محور الدعوة
الرسالية ، وإن كانوا هم أيضا تشملهم هذه الدعوة العالمية كما آمن بها السحرة .

فالرسالة الموسوية ككل هي عالمية مهما بدأت من بني إسرائيل المضطهدين حيث هم
حجر الأساس فيها ، وكذلك فرعون وقومه إذ كانوا حجر عثرة للأساس ، ولاتت حين
مناص إلا سلبا لأسرهم بأسرهم حتى يخلوا له جو الدعوة دون معارض مستخف لهم ،
مستكبر عليهم ، متفرعن فيهم ، فالسلب دوما يتقدم الإيجاب حتى يحل هو محله من
الإيعاب ، فيستتب أمر الشرعة قبولاً لها وإقبالا إليها .

أترى ذلك القول الرسالي للطاغية كان قاسيا؟ كلاً حيث القساوة . ولا سيما من مثل
موسى على سابقته معه . ليست إلا عرقلة في سبيل الدعوة ، وإنما كما في طه وسواها
﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٢٠ : ٤٤) .

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي
فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩) .

أتياه وقالاه له ما حملاه : دعوى الرسالة ومادة منها سلبية ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ﴾ وفي ذلك سلب الربوبية عن فرعون وسلب سلطته عمن يملكهم ، رسالة تخدم
صرح السلطة الزمنية والروحية مع بعض ، ومن هو

فاعل هذه السلبية القاضية؟ من تربى عند صاحب السلطة وليدا ولبت فيهم عمرا ، ثم وجنى فيهم جناية! ثالث المهانة فيمن أرسل لهذه السلبية القاسية القاضية.

يا رسول رب العالمين! ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ فكيف تعارض مربيك إلى خلاف ما رباك؟ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فأنت إذا عضو منا وقسم ضعيف من كيانا ، فكيف تتفضل علينا؟ ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ حيث قتلت منا قتيلا ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ نعمة الإبقاء إذ ما قتلناك رغم المرسوم الملكي عندنا بتقتيل الولائد من بني إسرائيل ، و ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ نعمة التربية ولبثها! و ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ربوبيتي إذ تناسيتها فأجرت فينا ، ثم أتيت رسولا إلينا تتهدم صرح ملكنا ، بل ومن الكافرين . أيضا . بربك الذي بعثك إذ كنت عندنا كأحد منا! فكيف تواجهنا هكذا بذلك الوجه الأسود والسابقة السوداء وهو خلاف العقلية والتربية الإنسانية؟.

ثم وعلى أية حال كيف الفرع يفوق الأصل ويتفضل ، وما فضله إلا منه؟ فكرة خاطئة بين حماقي الطغيان والذين يؤصلون الموازين المادية بين كل الموازين ، متغافلين عن الأصالة الموهوبة من الله ، فيستغربون ان وليدا بينهم عاشهم سنين يرجع إليهم رسولا من الله. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٠).

هنا يقدم موسى ثالث ثلاثة من ثالث الاعتراضات الفرعونية النكدة ، فينكر ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كفرا وكفرانا في كل الزوايا المعنوية ، ثم يصرح ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وتراه : كان ضالا حين فعل فعلته؟ وعمادا؟ فهل هو ضلال عن الايمان؟ وهو كفر ينكره! أم ضلال الكفران؟ فكذلك الأمر! حيث بدل ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾! فلا كفر له . إذا . ولا كفران

فلا عصيان!

انه ضلال عن الرسالة الحكيمة التي أوتيها بعد فعلته وخروجه إلى مدين ورجوعه إلى مصر حيث أحر فعلته رسالته دونما علم ولا تقصّد في تلك الفعلة ، أو الضالين عن الطريق حيث دخلت المدينة وما كان لي ان أدخلها ^(١) وأنا ملاحق في ذلك الجو المحرج ، أو الضالين عن كيفية الدفاع ، فلم آخذ الحائطة فيه حيادا عن القتل ، وذلك ضلال في بزوغ الرسالة غير عامد ، قد اخرها إلى سنين.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١).

لقد وهب له ربه حكما قبل الوكزة القاتلة ، دون حكم الرسالة المعصومة العاصمة عن كل الضلالات والزلات كما في القصص : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤ : ١٦).

هنا ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وهناك ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ لا يطاردان أنه أوتي

(١) البحار ١٣ : ٣٣ في حوار المأمون مع الرضا (ع) قال المأمون جزاك الله يا أبا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ قال الرضا (ع) ان فرعون قال لموسى لما أتاها ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لي قال موسى ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن الطريق بوقوعي الى مدينة من مدائنك ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ...﴾.

حكما وعلمنا فإنهما ليسا هما الرسالة البعيدة عن عمل الشيطان وعن أي ضلال في سبيل الدعوة ، وقد قوبل الحكم في مواضيع عدة بالرسالة والنبوة مما يجعله أعم منهما مهما كان منصبا إلهيا كما كان لطالوت ، ولكنه ليس ليعصم صاحبه عن كافة الزلات والضلالات ، فقد أوتي حكما مع الرسالة بعد ما رجع من مدين وبينه وبين الحكم الأول عشر سنين ، فذلك حكم رسالي ورسالة الحكم ، ليس ليضل معه بعد على طول خط الدعوة ، والأول حكم الدعوة قبل الرسالة قد يضل معه كما ضل.

ثم ولم يكن ضلالة له عن الايمان ولا عن حكم الشرعة الإلهية إذ كانت الوكزة القاتلة في ذلك الاقتتال مسموحا أو فرضا حسب الشرعة ، دفاعا عن نفس محرمة موحدة عن ان تهدر ، مهما هدرت نفس مشركة غير محترمة.

وهنا تقتسم الوكزة إلى أصلها المصيب المشروع فليس ضلالا ، وإلى قتلها المخلفة عن قوتها وقد خلفت فرار صاحب الحكم عن الجو الرسالي الآتي وأجل رسالته عشر سنين ، وذلك مقصود وهذا غير مقصود ، وليس عمل الشيطان هنا إلا غير المقصود ، والمقصود هو عمل الرحمان ، فلم يكن الضلال إلا في البعد الثاني من وكزته وهي القتل الناتجة عنها ، غير المقصود فيها ، فلم يرتكب . إذا . كمؤمن ذنبا ، وإنما ارتكب خطأ رساليا ولما يرسل ^(١) إذا فهو ضلال عن تلك الرسالة السامية في مرحلة ادنى منها مهما

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٨ في عيون الأخبار يسأل مأمون الرشيد أبا الحسن الرضا (ع) فيما سئل أليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال : بلى . قال : فما معنى قول موسى لفرعون : فعلتها إذا وأنا من الضالين؟ قال الرضا (ع) : إن فرعون قال لموسى لما أتاه : وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين . قال موسى : فعلتها إذا وأنا من الضالين عن الطريق بوقوعي الى مدينة من مدائنك ففررت منكم لما خفتكم» وقد قال الله لنبيه .

كانت أعلى قمم الايمان ، وكما في رسول الهدى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ في وجه وجيه من وجوهها.

وقد قال حينه ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ دون «غيري» إذ كان ظلم الانتقاص لعاجل الرسالة دون تقصد ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ سترًا عن منعة الرسالة ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ حيث وفقه للفرار وظل عشر سنين في مدين ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (٢٠ : ٤٠) والتفصيل إلى محله.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ . : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْأُمَلَاءَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ..﴾ (٢٨ : ٢١) «يتربص» الفرّج ، وان يعجل في آجل الرسالة ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ بعد الحكم الأول . وطبعًا ل . فوّه لحدّ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

وأما تربيتي فيكم وليدا وليشي عندكم من عمري سنين فلم تكن نعمة تمنها عليّ :

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٢).

فلو لا تعبيدك بني إسرائيل أسرا وحصرًا وقتلا لولائدهم واستحياء لنسائهم لما اضطرت

أمي أن تقذفني في التابوت ﴿أَنْ أَفْذِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾

. محمد (ص) : لم يجدك يتيما فأوى . يقول : لم يجدك وحيدا فأوى إليك الناس ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني عند قومك «فهدي» اي فهداهم الى معرفتك.

أقول : يعني ضلالة بعد القتل عن طريقه المقصودة الى غير المقصود «ودخل المدينة خائفا يتربص» ووجه آخر ذكرناه في المتن ، فلعل هذا الوجه غير وارد عن الامام (ع) حيث يتبع من الوجوه الدلالية القرآنية احسن الوجوه!.

فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له. وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني» (٢٠ : ٣٩).

إذا فأنا صنيع الرب وربيه عندك ، حفاظا ربانيا عن بأسك وأنتم لا تشعرون ، وما كان منكم إلا قصد الانتفاع مني ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٨ : ٩) وهذا تعبيد لي من وجه آخر غير ما كان لسائر بني إسرائيل.

فأية نعمة تمنها علي وهي في كل زواياها وحواياها تعبيد لبني إسرائيل؟ فالرسم الملكي بتقتيل الأبناء المستثنى فيّ ، كان رسما لتعبيدي انا في وجه آخر ، فحتى لو كانت نعمة منك عليّ ، فهي ليست لتطارد نعمة الرسالة الإلهية وهي أنعم النعم ، فليست قضية النعمة من بشر لبشر نكران أو نسيان النعمة الإلهية الكبرى الرسالية ، على ان كل نعمة تصل العبد فانما هي بتقدير من الله قدره ، ولا سيما نعمة الحفاظ على نفسي عند أعدى أعادي ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ...﴾!

فهناك انهدم صرح الحجاج اللجاج الفرعوني صدا عن بازغ الدعوة الموسوية ، فانتقل إلى لجاج آخر في صورة الحجاج :

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣).

في ذلك الاستجواب العارم نرى فرعون في اعمق الحمق وسوء الأدب ، ونرى موسى يجيبه كريما كأن لم يسمع إلى شطحاته القارصة الراقصة فندرس في هذا الحوار كيف يجب علينا ان نحاور خصومنا الظالمين فضلا عن سواهم من المسترشدین.

«ما» هنا تهوين لساحة الربوبية العالمية ، استنكارا لها زعم انه هو الرب الأعلى فلا أعلى منه ، حتى يرسل رسولا إلى الرب الأعلى!

إنه لا يعي عن النكاية بموسى كرسول ، يحاول القضاء على كيان مرسله رب العالمين ، وهل هو . فقط . سؤال عن الماهية؟ والصيغة الصالحة في الماهية الإلهية هي «من» دون «ما» ثم السؤال عن الماهية ليس إلّا بعد الاعتراف بصاحبها وهو ناكر رب العالمين ، لمكان دعواه ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ (٢٨ : ٣٨) فقد كان دهريا لا يؤمن بالله ولا سيما المدعو ب ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فانه ممن يقسم الربوبية بين أرباب عدة ارضية وسمائية ، وهو منهم كما الأصنام منهم : ﴿وَيَذَرُكَ أَهْلَكَ ..﴾ (٧ : ١٢٧) . فحتى لو كان معترفا بوجود الله كرب للأرباب ، فهو ناكر لكونه رب العالمين ، اللهم إلّا عالما له خاصا كما لسائر الأرباب عوالم خاصة.

وقد يكون الطاغية جامعا في سؤاله عن «ما» بين التوهين والاستفهام عن الماهية والكيفية ، فأتى موسى بالجواب الصالح وهو عرض الصفات الفعلية وكما يروى انه لما قال : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ..﴾ قال فرعون متعجبا لأصحابه : ألا تسمعون أسأله عن الكيفية فيجيبني عن الصفات ...»^(١).

إذا فهو سؤال استنكار وتوهين لمكانة من سماه موسى ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهنا موسى يضرب الصفح عن تلك المهانة مجيئا عن مكانة رب العالمين ، مبينا سعة العالمين دون اختصاص بعالم دون آخر :

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤).

(١) تفسير البرهان ٣ : ١٨١ تفسير القمي قال حدثني أبي عن الحسن بن علي الفضال عن ابان بن عثمان عن أبي عبد الله (ع) قال لما بعث الله موسى الى فرعون . إلى ان قال . : وانما سأله عن كيفية الله فقال موسى رب السماوات ...».

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بأصل الربوبية الأصيلة ، فهي - إذا - الربوبية العالمية المحلقة على الكون كله المعبر عنه بـ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وان لم تكونوا موقنين بأصل الربوبية فالسؤال ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟﴾ ساقط من أصله ، إلا هزء كما هو كذلك ، إلا أن موسى الرسول مهمته ان يهدي الضالين مهما كان سؤالهم متنعتا مستهزء .

ويا له من جواب يكافئ ذلك التجاهل العارم ويغطيّه ، انه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ التي أنت جزء منها ضئيل ، كالذرة أو الهباءة بين شاسع الكون وهائله .

هنا ينبري الطاغية بقولة لاهية لاغية لمن حوله ، يستنصرهم في القضاء على حجة الله

البالغة :

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ (٢٥).

ألا تستمعون إلى ذلك التقوّل العجّاب ، كيف يجراً عبد من عبيدي أن يخلق ربا للكون كله ويجعلني ضمنه و ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾! وقد يكفي ردا عليه ادعاءه الجوفاء الخواء أمام الرب الأعلى أنه مرسل اليّ من رب العالمين!

أترى موسى يجيبه عن لاغيته؟ كلاً! بل يمر عليها مر الكرام مستمرا في تعريفه برب

العالمين :

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦).

إن رب العالمين - رب السماوات والأرض وما بينهما - هو «ربكم» : فرعون وملؤه ، ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فان كنت يا فرعون ربا لمن حولك ومن معك كما تزعم ، فهو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وهذه أشدّ مساسا بفرعون ودعواه ، وأحدّ مراسا لاثبات الربوبية العالمية ، مما يدفع

فرعون إلى قولة جنونية تجنّ موسى ، وليسقطه عن عقلية

الحوار ، ويبحث الحق عن كل دعاويه :

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧).

وذلك تهكم في أصل الرسالة ، فقضاء . في زعمه . على ما يحمله من مواد الرسالة الإلهية ، ضربا عميقا عميما على موسى في الصميم ، كفاحا عن ضربه السياسية والدينية على فرعون في الصميم.

أترى موسى يقابل الطاغية بالمثل قائلا : ان ربكم الأعلى لمجنون؟ كلا! بل هو يمضي في طريقه قدما كأن لم يسمع قوله الباغية :

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨).

فإن كنت أنا الرسول المجنون بسند التعريف بالربوبية العالمية ، فمن رب المشرق والمغرب وما بينهما ايها العقلاء إن كنتم تعقلون؟.

أمن العقل نكران خالق العقل والعقلاء ، ونكران الربوبية الوحيدة لهذا النظام المنسق بنسق واحد ، والمنظم بنظام فارد ، أم الجنون بعينه هو النظام من نتائج فوضى الربوبيات المتشاكسة ، والوثام التام دون تفاوت في الخلق من آثار مختلف الربوبيات الشاسعة!.

إن المشرق والمغرب مشهدان معروضان لكل ذي بصر ونظر ، فهل ان الشروق والغروب هما من تصرفات فرعون وآلهته؟ إنه توجيه وحيه يهز القلوب البليدة المقلوبة هزا ، إثارة لمشاعرهم ، وايقاظا لعقولهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ولا يخشى الطغيان ما يخشاه من يقظة الشعوب النائمة ، كالبهم الهائمة ، المحرصة إلى العقل عن الحقائق في كل حقل ، دون تبعية بغبائية قاحلة ، وتقليدة جاهلة ، ويا له من ترتيب رتيب عجيب في تعريفه برب العالمين ، ابتداء من الأثر العام : ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الظاهر

حدوثها ومربوبيتها ، فان ادعي قدمها فالى ما لا ينكر في حدوثه ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ حيث الإنسان مخلوق على أية حال ، ثم استدلالا لوحدة الربوبية بنظام الشروق والغروب ، كالحجة الابراهيمية مع نمرود ، وهذه الثلاث تشترك في التعريف بالآثار حيث الذات الألوهية وصفات الذات لا تعريف لها ذاتيا إلا بالآثار والأفعال وهي صفات الفعل.

ولما ينتهي امر الحوار إلى إيقاظ الشعب ، يترك فرعون حوار العار إلى التهديد :

﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩).

وهذه نهاية الحوار من كل جبار لا يملك برهنة على جبروته ، قتلا أو نفيًا أو سجنا ، ولكيلا يوقظ الجماهير فتتخلف عن ملكته الجارية وسلطته العاهرة ، ولأنه يزعمه الرب الأعلى ، لذلك يتناسى الآلهة الأخرى ، ف ﴿إِلَهًا غَيْرِي﴾ يعني الرب الأعلى ، دون الأرباب الأدنى الأخرى ، فانه كانت له آلهة تعبد.

و ﴿مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ قد توحى أنه كان في ملكه من يعبد إلها غيره كأصل الألوهة ، الله أم سواه ، ام كانوا في التخلف عن السلطة الفرعونية كمثل موسى .

أترأه يجيبه بما أجاب خوفة من السجن؟ وهو استمرار سلفه الصالح يوسف القائل

﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾!

انه يحاول إبانة الحق المرام كما يرام ، فلا يشير إلى سجن وسواه حتى يهديه هداه ، ثم

وفي نهاية المطاف يستسلم لما يجري في سبيل الدعوة والله هو المستعان على ما يصفون.

وترى موسى بماذا يجيب الطاغية عن تهديده العارم ، انه يوجهه إلى واجهة اخرى

خارقة :

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠).

و «لو» هنا احتياطة عاقلة مع الطاغية ، حيث يحيل ان يكون موسى على حق مبين ، ولكن على فرض المحال ﴿أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ يبين حق دعواي اكثر مما بان ، ويبين حق الربوبية العالمية أوضح مما كان ، أفهناك . أيضا . تهددني بالسجن وترميني بالجنون؟. طبعاً لا! وكل ذي حجي مهما تنازل عن حجاه يقول : لا ، فلنجرب الداعية هل يأتي بشيء مبين ، وهنا الطاغية يتطلب اليه ان يأتي بشيء ، واثقا انه لن يأتي بأي من شيئه: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١).

﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك الرسالة ، و ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ان تجيئي بشيء مبين ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ تعجيزاً لموسى (ع) كأنه من الكاذبين. ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿ (٣٣).

آيتان باهترتان قاهرتان تحوّلان جوّ البلاط الفرعوني المتبلّج إلى جو متلجلج ، مما يحمل فرعون إلى خريطة القول ف :

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤).

لقد شعر فرعون . وهو لا يشعر . انه خارقة منقطعة النظر في كل ما رآه من سحرته ، فأحس بضخامتها فوخامتها في وجهه أمام حاشيته ، إذ كادوا يتملقون من حوله ، فحاول التغطية بهذه التغطية : ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾!

«عليم» مكين في علمه ، ليس كالذين نعرفهم عندنا ، بل ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ..﴾ (٥٠) فموسى هنالك في حوار الذي

ألجمه «مجنون» هناك وهنا في شئيه المبين «ساحر» وقد أطم آية الثعبان واليد البيضاء ، محسوسة ملموسة ، إلى الآيات الفطرية والعقلية ، فالطاغي الذي يتنازل عن عقله وفطرته فلا تفيد البراهين ، ينقل إلى آيات محسوسة يصدقها حتى المجانين ، ولكن هذه الطاغية ليس ليست عن غوغائيات التهم الجارفة ، الهارفة الخارفة :

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥).

فلأنه يرى تشاقلهم إلى أرضهم ، وان هذه السلطة هي بغيتهم الأصلية الحاصلة ، يهددهم بإخراجهم من أرضهم لو اتبعوا هذا الساحر العليم ، وفي ذلك استلاب السلطة الروحية : ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (٢٠ : ٦٣) والزمنية المزيجة بها ، وهذه غاية الشيطنة في الفرعة.

وقد يبدو من هذه القولة عظمة الآية مهما سماها سحرا حيث يصف صاحبها بانه عليم ، ليس كسائر السحرة ، ويبدو خوفه من تأثر من حوله فيهددهم بإخراجهم من أرضهم ، ويبدو تضعضعه وتهاويه أمام هذا الساحر العليم! فيستمد من حوله متواضعا متسكعا . وقد ادعى انه ربهم الأعلى . فيطلب أمرهم ورأيهم في ذلك المأزق الخطير ﴿فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ﴾! ومتى تراه كان يطلب أمرهم وهم له يسجدون؟.

انها شنشنة الطغاة بعد طنطنتهم حين تنزل اقدامهم وتضل أحلامهم وتكل افهامهم ، فيلينون في القول بعد الخشونة ، ويتواضعون لأمرهم ورأيهم بكل مرونة بعد العرونة ، ويا له كيدا ما أشطنه في ثالوثه المنحوس : ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ حيث استفاد هذه التهمة من السحر ، فقد يجوز ان ينتهي بسحره إلى ذلك الحد القمة ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ وارض الوطن بهذه السلطة القوية المرموقة محبوبة لأهلها كأنفسهم ﴿فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ﴾

كلام مرن يحرك العواطف الدفينة ويغطي على الضغائن الكامنة ، ويستحث الحاشية الملكية على إمعان التفكير لتخليص الملك وإياهم عن ذلك المأزق العميق ، فكانت النتيجة ان :

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦) **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ** (٣٧).

هنا يشير عليه ملاه آمرين كما تطلب منهم ، وهم شركائه في فرعنته وصرح سلطته ، وأصحاب المصلحة في بقاء كيانه ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ إمهالا إلى أجل دون عجل ، فإن هامة أمره الأمر تقتضي ترويا ومحاولة جماعية : ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ المصرية أم وسواها «حاشرين» : جامعين ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ دون سقاطهم ، بل اصطفاء للرعيل الأعلى منهم لإقامة تلك المباراة الساحرة القاضية على هذا السحر العظيم.

لقد كان يعلم فرعون أن له ساحرين ، ولكنه اختلط عقله ، مغلوبا عليه من دهشة الموقف القاهر ، ام لم يكن يرى فائدة وعائدة من جمع السحرة لمعالجة الموقف فاستأمر حاشيته فأروا رأيهم هذا تأجيلا للفضيحة ، وتغطية عاجلة على الموقف الحاسم.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨).

وهو ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (٢٠ : ٥٩) كما قرره موسى بما تطلب منه فرعون : ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (٥٨).

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) **لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ** (٤٠).

هنا استعطف ماكر للناس حيث لا يؤمرون ، وانما يستأمرون : ﴿هَلْ

أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٤٠﴾ وطبعا ﴿لَمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ تلحيقا بما فيه هياج الجماهير ، وتحميسهم ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ وهي الغاية المقصودة من ذلك الاجتماع الحاشر ﴿إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ و «هم» هنا تؤكد جانب الإثبات في هذه الشرطية المشككة ، وهكذا تستحث الجماهير المستخفة المطاوعة المحيية لكل ناعق دون تفتن للغاية الماكرة ، وإن الطغاة يعبثون بها ويلهون ، ويشغلونها بهذه المباريات ليلهوها عما تعنيها وتعانيها من كبت دائب ، واحتناك لهم خائب ، دونما حنكة وتعقل ، سيقة لكل سائق ، سامعة لكل ناعق.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٢).

هذه قولتهم لأنهم . بالفعل . عملاء قضية ضغط الموقف ، يستزيدون أجرا على رواتبهم ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ والجواب بطبيعة الحال ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الحاشية الملكية المتفوقة على سائر الموظفين ، وهذه هي البغية الفرعونية الباغية الغادرة ، فلذلك لا يخل عن سؤال السحرة ، بل ويزيدهم اجرا معنويا على مادية المسؤول ، وإلى مشهد المباراة المعاكسة للمرام ، المضادة للمرام ! :

﴿قَالَ هُمْ مُوسَى أَأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَاهُكُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤).

تقدم الاقتراح من موسى (ع) تهدد لهم هارح وتحذ بارع ، و ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ يستحث كامل قواهم ، ويستحصل كل قدراتهم في هذه المباراة الحاسمة الجماهيرية ، مستصغرا جموعهم المحتشدة ومعهم القوات الهائلة الفرعونية وأمل الأجل والزلفى ، ومعه ربه سبحانه وتعالى واجره والزلفى وهكذا يجب على كل داعية حق ان يستقدم ما عند داعية الباطل ليقضي

عليها من فورها ، ولو أن موسى ألقى قبلهم كان قد ألغى الموقف الجامع حيث يفر الجماهير من ثعبانه فلا يبقى مجال للمبارات ، وقد يؤوّل ما ألقاه انه سحر أعظم ، فلما ألقوا ألغى ما ألقوه بما ألقى من فورهم فغلب الحق وبطل ما كانوا يأفكون.

وليس في تطّله سحرهم طلب الباطل ، إذ كان يقصد إبطاله بآيته الإلهية ، وتطلّب ظهور الباطل لإبطاله حق يساند الحق.

﴿فَأَلْقُوا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ﴾ فلما رأوها تتحرك بكيدهم ، محلّقة الموقف بكل رعب وإعجاب ، مما لم يسبق لهم مثيله بهذه الصورة الجماعية الهائلة ، اشتبه عليهم أمرهم واطمأنوا إلى غايتهم المنشودة كأنما هي الآن حاصلة ﴿وَقَالُوا بَعْرَةٌ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فان جمع العصي والحبال لا بد وأن تتغلب في سحرها على سحر اليد والعصى الواحدة ، تقديرا ظاهرا وهم عن الحق هم غافلون.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥).

فاللقف هو الأكل السريع ، الحاذق الخارق ، فقد أكلت الثعبان المبين كلّ ما يأفكون دونما رجوع أو رجيع ، مما يؤكد أنها آية إلهية بعيدة عن السحر ، حيث السحر تحيّل وذلك واقع لا مردّ له ، وغلب سحر على سحر ليس إلا غلب خيال على خيال دونما واقعية مشهودة! ومهما تشكك في واقعه مرتابون ، فليس ليتشكك فيه مهرة الفن : السحرة ، فموقفهم سلبيا أو ايجابيا موقف حاسم لا ينكر له إلا لمن ينكر عقله وحسّه.

وإنها مفاجئة مذهلة غير متوقعة للسحرة ، عصى تنقلب حية تسعى وثعبانا مبينا ، هي لوحدها تلقف ما يأفكون ، دون ان تبقي لها على أثر.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى﴾

وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾.

وترى من ألقاهم ساجدين سواهم أنفسهم؟ إنه هيبة الموقف ، فخلافًا لما كانوا يأملون أدهشتهم الآية البارة فلم يتمالكوا أنفسهم إلا تساقطًا على الأرض سجّدا ، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم ، هزة مفاجئة أزالَت عنهم ركامات الضلالة في لحظات قصار وهم كانوا قبلها هارعين إلى البغية الملكية الطاغية ، فتحولوا . إذا . بكامل كيأنهم إلى «ساجدين» ونطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين «قالوا» قالوا وحالا وفعالا ﴿أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا فحسب الايمان بالله الواحد ، بل وبرسالته ايضا المتمثلة في موسى وهارون ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ تاركين أية ربوبية سواها.

هنا التآمر الحاشد من الحاشية ، الناتج عن تلك المباراة الحاشدة ، مع كافة الصعوبات التي كلفتها حتى ألفتها ، أصبح ذلك التآمر هشيمًا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ، فتلجلج فرعون وملأه وتبلج موسى وملأه ، وآمن السحرة ، لحد أصبح بطن الأرض اريح لفرعون من ظهرها ، حيث استأصلت كل محاولاته ومكيداته ، فلم تبق له باقية إلا باغية أخيرة هي شيمة كل باغية :

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩).

ويكأنّ الايمان . أيضا . كسائر الأمور المسيّرة الميسرة بالإذن . بحاجة إلى اذن ، خلطا لعمل القلب بعمل القالب ، ولأن ذلك البليد الطاغوي يدعي السلطة المطلقة على شعبه ، فلتكن قلوبهم . أيضا . بيده.

وهنا ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ دون «به» نكاية بإيمانهم انه ليس إسلاما عن قلب ، بل هو استسلام لسحر أعلى أمام ساحر عليم إيماننا لصالحه ، تحويلا للآية إلى سحر ما وجد اليه سبيلا.

إنه لا يشعر قلبه ما استشعره هؤلاء من الحق ، وهم أخرى ممن سواهم في تمييز الآية من السحر ، ومتى كانت للطغات قلوب يفقهون بها حتى يلمسوا هذه اللمسات الحية الوضائة.

هنا الطاغية يثني تهمة الاستسلام بأخرى يتهدم بها . في زعمه . صرح السحر من هؤلاء السحرة ، وأنه تأمر على السلطة الفرعونية : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ومتى كان بينهم حتى يعلمهم ، ومتى سبق له سحر حتى يعلمه فيعلمه ، ومهما يكن من أمر يكون له مأخذا في هذه التهمة ، فهو ان بعض هؤلاء . وهم من الكهنة . كانوا يتولون تربية موسى حين كان وليدا في قصره ، ولكنه يعاكس تهمة الى ضدها ، إنه (ع) تعلم من هؤلاء ، فبدلا من قوله «انه لتلميذكم ..» قال ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ..﴾ ليزيد الأمر ضخامة في أعين الجماهير ووخامة في قلوبهم.

ولكن هذه الثانية كما الأولى لا تجد مجالا من القبول ، فالسحرة فالتة ، والحشد متنزل أو متحول ، فالى ثالث ثلاثة هي التهديد بالصلب القاسي الذي كان يجري بحق أعصى العصاة وابعى البغاة :

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ماذا أفعل بكم ايها الخونة المتمردون! ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والسلطة قاهرة والطاغية قادرة ، فلو كان إسلامهم استسلاما لكانوا يستسلمون للسلطة الفرعونية ، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية ، اللهم إلا آية إلهية ، ولكنهم أثبتوا دون أية ريبة أن إيمانهم واقع دون ممارسة ، لا مرد له ولا تحويل.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥١).

«قالوا» بأجمعهم «لا ضير» لنا فيما تهددنا إذ ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ انقلابا تاما لنا ،
طاما لكياننا ، فلا مجال لك فينا ، ولا رجعة لنا إلى ما كنا :

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا
تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ. إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (٢٠ : ٧٢ . ٧٤)
﴿وَمَا تَنْفَعُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٧ :
١٢٦). اجل «لا ضير» في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، ولا في تصلبنا أجمعين
﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ عن حماة هذه الأدنى ، فلا مطمع لنا إذا ولا مطمح إلا ﴿أَنْ يَغْفِرَ
لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ طول حياة التكليف حتى الآن ، ﴿يَغْفِرَ لَنَا﴾ ل ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
حيث سبقنا في هذه المباراة غيرنا في الايمان ، بل وسبقنا المؤمنين في صمود الايمان.

فيا لله ، يا لروعة الايمان وضوئه إذ تشرق في الضمائر الحية ، وتفيض على القلوب
المستعدة فتسكب الطمأنينة في نفوس نفيسة في أعماقها ، مهما كانت بخيسة خسيصة في
أوحاقها لفترة . مهما كانت طويلة . من أوقاتها ، فترتفع بسلالة من طين إلى أعلى عليلين .
فلما تصل النفوس إلى هذه القمة المرموقة يوحى إلى الرسول ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ..﴾ .
وهنا يسدل الستار على موقف السحرة المهتدون به إلى فرار موسى ومن معه إلى
جانب البحر :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ (٥٢).

أترى فرعون طَبَّقَ على السحرة المؤمنين ما أوعدهم؟ لا إشارة له! ولو كان لبان كحدث هائل في تاريخ الرسالات ، قتلا وصلبا جماهيريا لحشد كبير من السحرة! والجو آنذاك ما كان يسمح أو يفسح مجالا لهذه القتلة الهائلة ، فإن غلب الحق في تلك المباراة أوقع على فرعون وملئه أثقل الوقعات ، فكيف يجراً على هذه العملية الفاتكة بحق الكبراء من قومه الخصوص ، وقبل أن يلاحق موسى ومن معه؟! وطبيعة النقم على الفرعونية الجبارة تقتضي التصريح بهذه القتلة لو حصلت ، تأكيداً لايمان من آمن من قومه ، وتبيداً للفعلة الفرعونية الطاغية!.

قد تلمح ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ انهم هم السحرة المؤمنون حيث حققوا حق العبودية لله ، ام . ولا قل تقدير . انهم منهم ، ف «عبادي» هم بنوا إسرائيل والسحرة المؤمنون ، بل وجموع آخرون ممن دخلوا في زمرتهم في الردح الفاصل من الزمن بين المباراة والإسراء إلى جانب اليم ، فلم يكن موسى الرسول وأخوه بمن معهما من المؤمنين سكوتا لا ينطقون فلا يدعون إلى الله طول هذه المدة وهم على بينة قاضية شاهرة بين الجماهير!.

فقد كان الايمان لموسى مثلثة الزوايا ، السحرة بطبيعة الحال ، وجماعة آخرون من القبط ، وجماعة من بني إسرائيل ، قد يشملهم كلهم آية يونس التالية للمبارات ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١).

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٣ فحبس فرعون من آمن بموسى (ع) في السجن حتى أنزل الله عز وجل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فأطلق عنهم فأوحى الله عز وجل إلى موسى «أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ».

أترى «من قومه» تعني . فقط . قوم موسى الإسرائيليّين؟ وقد آمن له السحرة أفضل إيمان في هذه المباراة ، وهم أفضل ممن سواهم إيماناً إلا قليلاً من بني إسرائيل المخلصين! أم هم قوم فرعون من السحرة ومن تابعهم؟ وبعد الضمير يبعده! وقد آمن مع موسى جم غفير من قومه مهما آمن له معهم آخرون!

أم هم القومان وضمير الغائب هنا له مرجعان ، فقد آمن لموسى ذرية من قوم فرعون هم السحرة ومن تابعهم ، وذرية من قومه نفسه ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ كأصل المخافة و «ملاهم» القبط المترفين ، والاسرائيليين العملاء لهم حفاظاً على مكائنتهم في عمالتهم الخاوية ، وهكذا يكون دوماً فرقة الايمان ، انهم هم المستضعفون الذين لا يحسبون بشيء أمام الطغاة والكبراء ، المتردّون في حسابهم ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (٢٦ : ١١١)! ومن هنا يعبر عن المؤمنين له بقومه مهما كانوا قبطاً ، حيث الايمان الموحد يزيل الفوارق القومية : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً...﴾ (٨٧).

وقد تعم بنو إسرائيل في هذا المجال غيرهم من المؤمنين ، ام انه تعبير عن الكل باسم الجل تغليبا ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ...﴾ (٩٠).

وعلى اية حال يؤمر موسى بعد نجاحه في المباراة ان يفر بقومه سرّياً ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أتراهم لم يكونوا متّبعين طول هذه المدة إلا لما أوحى إلى موسى؟ اجل ولكنه اين إتباع من إتباع ، فهم كانوا متّبعين ملاحقين وهم يتحملونه إذ كان محمولا ، ولكنهم الآن متبعون استئصالاً لهم عن بكرتهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (٥٦).

لقد أسرى موسى بعباد الله ليلاً نحو اليمّ بسرعة خارقة بارقة ، وسمع فرعون بهذه المكيدة النابغة ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ﴾ المصرية ككل «حاشرين» يجمعون الناس ليسمعوهم تالية الدعايات ضد الرسالة الموسوية وأتباعها :

«إن هؤلاء» الشاردون «لشرذمة» : جماعة منقطعة عما يصلحها ، مطرودة عن مجتمعنا ، بقية بالية باقية من بني إسرائيل «قليلون» عدة وعدة. «وانهم» على قلتهم وعلتهم ﴿لَنَا لَعَايِظُونَ﴾ من سوء صنيعهم بين شعبنا ودعاياتهم المضللة فيهم.

﴿وَإِنَّا جَمِيعٌ﴾ مجتمعون ، في سلطتنا زمنيا وروحيا «حاذرون» عما يصطدمها روحيا وزمنيا «شاكون في السلاح» ^(١) ، لذلك فانا نتبعهم فنتبعهم فنقضي عليهم إزالة للفساد وإصلاحا للبلاد.

ذلك كيد فرعون وملاؤه ليقضي قضاء حاسما على شرذمة قليلة مغتضة له ، ولكن الله يعكس امره ضده :

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا (٢) بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٩).

كيف وهم خرجوا متبعين ، ينسب الله خروجهم إليه؟ حيث قدر في خروجهم إخراجهم ، وفي اتباعهم موسى ومن معه إحراجهم ، «كذلك» فعلنا بهم ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠).

(١) تفسير البرهان ٣ : ١٨٣ تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في قوله «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ... وَإِنَّا جَمِيعٌ حَازِرُونَ» يقول : مؤداة في الأداة وهو الشاكي في السلاح.

اتبع الجمع الحاذر الغادر شذمة قليلة «مشرقين» حالة الإشراف ، وطبعا بسرعة أكثر منهم حتى يلحقوهم لحد الترائي ، والمعركة المصيرية بالغة الذروة والضراوة ، والمشهد قريب إلى النهاية ، فموسى ومن معه أمام اليم ليست معهم سفن وزوارق يجتازون بها ، وقد قاربهم فرعون بجيشه الجبار شاكو السلاح ، مستعدين بكل قواتهم للقضاء عليهم ولم يبق هنا أمل للضفة المؤمنة إلا المعية الربانية وقد أدركتهم كما وأهلك الآخرين.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١).

إن هي إلا دقائق ونحن مدركون ، فقد بلغ الكرب مداه ، هجمة الموت الهمجية الهائجة ولات حين مناص ، وفات يوم خلاص ، فإما خوضا في اليم فغرقا ، أم نضل هنا كما نحن فحرقا! والترائي هو التقارب والتداني لحدّ يصبح كل بمرأى الآخر ، وإن لم ير بعضهم بعضا بموانع كمثار العجاج ، ورهج الطراد ، فالمراد هو تقارب الأشخاص ، لا . فقط . تلاحظ الأحداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢).

كلا! لا إدراك لو كان لكم إدراك ، ولا هلاك إلا لعدونا إن كنتم مؤمنين ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ معية العلم والنصرة ، لا يفارقي عند المهالك ، ولا يتخلى عني في المعارك ، فلا يذلني أو يضلني ، بل «سيهدين» بخارقة ربانية كما هداني في المباراة ، وفي كل ما هو آت ، إن ربي دعاني لهذه المسيرة فهو الذي يكألني ويرعاني ^(١) ، وإن لم ير بعضهم بعضا بموانع كمثار

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥ في مناقب ابن شهر آشوب ابراهيم بن أدهم وفتح الموصلي قال كل واحد منهما كنت أسير في البادية مع القافلة فعرضت لي حاجة فتتحييت عن القافلة وإذا أنا بصبي يمشي فدنوت منه وسلمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت له : إلى أين؟

العجاج ، ورهج الطّراد ، فالمراد هو تقارب الأشخاص ، لا . فقط . تلاحظ الأحداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣).

لقد هداه ربه بما أوحاه ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ ويا لها من عصى تحمل آيات عظيمة ما أعظمها في مباريات بين موسى وفرعون «فانفلق» البحر فلقطين وفرقتين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ وانشق بين فرقي الماء طريق يبس : ﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾ (٢٠ : ٧٧) ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ...﴾ (١٠ : ٩٠) فالفرق هو الجزء المنفرد منه ، والطود هو الجبل الشاهق في السماء ، فقد أصبح البحر خندقا فيه طريق يبس مستو وطرفاه جبلان شاهقان من الماء ، ويا لها من آية باهرة قاهرة ، فانفلاق ماء البحر ككل آية ، والطودان بطرفي الطريق الممر آية ، وبقاء البحر كحالته هذه حتى دخل فرعون بجنوده آية ف ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧)!

إذا فما هي حيلة فرعون ، هل يقف باهتا ساخطا يعرض عليه الأنامل من الغيظ؟ وهو يراه أقدر من موسى ومن معه وهم يعبرون الخضمّ الملتطم! :

. قال : أريد بيت ربي ، فقلت : حبيبي انك صغير ليس عليك فرض ولا سنة ، فقال : يا شيخ ما رأيت من هو أصغر مني سنا مات ، فقلت : اين الزاد والراحلة؟ فقال : زادي تقواي وراحلي رجلاي وقصدي مولاي ، فقلت : ما أدري معك شيئا من الطعام؟ فقال : يا شيخ هل تستحسن ان يدعوك انسان إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام؟ قلت : لا . قال : الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقني» أقول والصبي كان علي بن الحسين (عليهما السلام) كما ذكر في أواسط هذا الكلام على طوله واختصر منه ما ذكر.

﴿وَأَرْزَلْنَاهُ ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأُنَجِّنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ ٦٦.

«وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى كأنها جادة جادة لهم إلى المقصود ، طريق مكشوف يعبرونها ، وها هم واصلون إلى جانب البحر ، فليغمر الغيظ بغمر الغيظ ليفعل فعلته التي يروم ، ولكن :

﴿إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ أَلَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (١٠ : ٩٢).

الإزلاف هو التقريب ، والآخريين هم فرعون ومن معه أجمعين ، فقد قرب الله فرعون والذين معه إلى بحر الهلاك ، وأنجى موسى ومن معه من البحر الهلاك والبحر هو البحر والماء هو الماء! ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ لما دخلوا البحر ، عن آخرهم ، وبطبيعة الحال لم يغرقوا إلا حين طم البحر أولهم وآخرهم ، وقد تعني «أزلنا» إزلاف بعضهم إلى بعض ككومة واحدة ، وإزلافهم إلى موسى ومن معه ، إلى إزلافهم إلى البحر فازلافهم في خضمه هالكين. ^(١)

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٣ في الخرائج والجرائح ان عليا (ع) قال : لما خرجنا إلى خيبر فإذا نحن بواد ملآن ماء فقد رناه فإذا هو أربعة عشر قامة فقال الناس يا رسول الله (ص) العدو من ورائنا والوادي أمامنا فكان كما ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ فنزل (ص) ثم قال : اللهم إنك جعلت لكل مرسل علامة فأرنا قدرتك ثم ركب وعبرت الخيل والإبل لا تندي حوافرها ولا أخفافها.

وقد ينسب الله إزلافهم إلى نفسه المقدسة لأنه هو الذي كادهم بما جعل في البحر طريقا يبسا فطمع فرعون وجنوده لاجتيازه ، ثم رجّعه إلى حالته الأولى فغرقوا أجمعين ، فهم لم يكونوا يقدمون على غرقهم بذات أيديهم دون ريب ، لو لا هذه المكيدة الربانية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧) **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾**
(٦٨).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي حصل في تلك المباريات من آيات «لاية» وعلامة قاطعة قاصعة لمن يحنّ إلى إيمان «و» لكن **﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** و «هم» هنا قدر اليقين هم فرعون وملؤه ، ومعهم بنو إسرائيل ، فقد آمن من الأولين السحرة وقليل سواهم ، كما آمن من الآخرين قليل ، وقد يبرهن لهذه القلة الزهيدة الثانية **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ هُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا هُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** (١٠ : ١٣٨).

ثم وفي واجهة عامة عدم الايمان من الأكثرية الساحقة أو المطلقة كان ضابطة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، اللهم إلا زمن الدولة الحقبة العالمية للقائم المظفر المهدي (عليه السلام) ، **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ﴾** لا يغلب مهما تغلب الكافرون وتقلبوا في البلاد «الرحيم» بعباده المؤمنين كواقع ، وبكل عباده في حقل الدعوة الجماهيرية **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾**.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) **﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾** (٧٠) **﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا**

عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ
 وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ
 (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
 يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي
 أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)
 وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْ لِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُرْ لِأَيِّ إِنَّهُ
 كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى
 اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ
 أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢)

مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ
نُسَوِّيَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا
صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩).

خبرا ذا فائدة عظيمة لقبيل الايمان من ابراهيم ، فانه عاش منذ طفولته جو الشرك ،
وبدل أن يتأثر . كما هو طبيعة الحال . أثر أثرا عميقا وأرجف صرح الشرك بوحده رغم جمعه .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٧٠).

تلك التلاوة المباركة على المشركين الزاعمين انهم ورثة ابراهيم على دينه القديم ، تنديدة
شديدة بهم ، انه خالف أباه وقومه إلى الهدى ، وأنتم تخالفون ابراهيم وشرعته إلى الردى ،
فأنتم إذا خلف متخلفون فبماذا

تفتخرون؟.

فإلى حلقة الرسالة الإبراهيمية إلى قومه الألداء ، وحواره الصارم معهم في قوة الأداء ، وهنالك حلقات أخرى من صورة هذه الرسالة الوضاعة وسيرتها في البقرة والأنعام وهود وإبراهيم والحجر ومريم والأنبياء والحج ، كلّ تناسب جو السورة بما تتطلبه الدعوة القرآنية .. وهنا اختصار دون احتصار لمحااجة أباه وقومه ولكلّ تفصيل في محالها من السور .

﴿إِذْ قَالَ .. مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهنا ل «ما» دورها في تجهيلهم بعبادتهم غير العاقل ، ويتساءلهم عن ماهيتها لكي يركز حوارهم على جوابهم عنها ، وهذه طريقة حسنى في الحوار ان تتبنى ما عليه محاورك فتبنى عليه محاورك سنادا إلى ما يعترف به .

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ (٧١).

«أصناما» من مختلف المواد ننحتها «فنظل» دوما أحيان العبادة «لها» دون سواها «عاكفين» عكوف العبادة وعبادة العكوف ممن يسمّون أناسي أحياء لجثث غير ذوات الأرواح .

وفي «نظل» غير الداخلة في صميم الجواب اظهار لصميم عبادتهم لها بكل ابتهاج تثبتا للجواب .

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٣).

فسمع السؤال عن سؤال ، ثم نفع منهم لكم أو ضرر ، هذا هو أقل ما يتوفر لإله يعبد ، فان كانت صماء لا تسمع كما هي ، فهل تملك نفعا أو ضرا دون ان تسمع لحاجة ، فإذا «لا» كما هي فعبادتها . إذا . لاغية! حيث العبادة تعني حرمة المعبود وحاجة إليه طلب نفع أو دفع ضرر ، وهذه العبادة خاوية

عن كل معانيها ومغازيها.

هنا يخرس قومه وأبوه عن إجابة قاصدة عاقلة إلى ما تعودوه من قولة لاغية :

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٤).

لا حجة لنا فيما نعبد إلا تقاليد الآباء ، ولكن : ألم يكن الموحدون من أنبياء وسواهم من آبائهم ، فهم تاركوهم ، ثم هم على آثار المشركين منهم يهرعون ، ثم السؤال ينتقل إلى آبائهم المشركين ، وليس الجواب إلا نفس الجواب ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فليصل إلى الأب الأول أول الموحدين ، فلما ذا تركتموه على أبوته الأولى ، إلى المتخلفين من ولده المشركين ، ترجيحاً للمفضول على الفاضل؟

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧).

فقد عبد شطر من آباءكم الأولين رب العالمين ، وعبد آخرون سواه ، «أفرأيتم» نظراً إلى كيان المعبودين إلهاً وسواه؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ جميعاً ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ عداً للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وللعقلية الانسانية وما دونها ، ولأية مرحلة دانية من الإدراك ، فإنهم كلهم بمعبوديتهم من المربوبين لرب العالمين.

فالاستثناء - إذا - متصل ، حيث الآباء الأولون لم يكونوا جميعاً من المشركين ، وفي ذلك الانضمام تأشير عشير أن آباءكم الأقدمين لم يكونوا كلهم مشركين ، ثم ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ جمع بين العابدين والمعبودين ، الجدد والأقدمين ، إشارة إلى أن القدمة بمجرد ما ليست دليل القبول ، فليخلط القديم والجديد ، وليقبل منهما القابل للتصديق.

ثم وعباده الله بعابديه أقدم ممن سوى الله عابدين ومعبودين ، إن كانت المقدمة دليلاً يتبع ، فالأب الأول - آدم (ع) - كان موحدًا داعيًا إلى التوحيد ، ثم الذين معه وبعده من الموحدين

وترى كيف تشمل «عدو» الأصنام وهي لا تشعر كما اعترف به عابدها؟ عليها العداوة الآجلة يوم الدين حيث ينطقها الله كما قال : ﴿كَأَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ^(١) يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ (١٩ : ٨٢).

أم والعاجلة حيث العداء ذاتية بين المعبود بغير حق والعابد العاقل مهما لم يشعره الصنم ، أم لأنه سبب الضلال فعُدو وإن لم يشعر ، أم لأن في المعبود من دون الله عملاء كالطواغيت؟ والجمع أجمل فانه اشتمل.

وإنما أفرد «عدو» رغم جمع الأصنام ، حيث العداوة هنا واحدة وفي اتجاه واحد ، كما ﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (٦٣ : ٤).

فأنتم وصفتم أصنامكم بما وصفتم ، وارتكستم كما ارتكستم ، فتعالوا معي لتعرفوا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأقدم في كونه معبودا ، والمالك لبراهين الألوهية الحقّة :

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢).

أبواب ثمان لمعرفة تعالى عدد أبواب الجنة ، لا يتركها إلا كل ذي جنّة :

١ . ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ فهل الخالق أجدر بأن يعبد أم المخلوق؟ يقدم

خلقه نفسه لأنه اقرب آية واثنها وأتقنها دليلا على خالقه (١)

٢. ﴿فَهُوَ يَهْدِين﴾ لا سواه ، حيث الهداية الكاملة الشاملة تقتضي كامل القدرة والعلم وشامله لمن يهدي ، فقد انشأني من حيث يعلم وأنا لا أعلم ولا من سواي ممن أنشأه ، فهو العالم بسؤلي لا سواه ، والعارف بحالي ومآلي وكل مالي لا سواه «فهو» إذا «يهدين» إلى ما خلقتني لأجله ، وقد هداني فطريا وعقليا وحسيا إليه ، وأراني آياته في الآفاق وفي نفسي ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ هناك «خلقتني» هو محور المعرفة ،

(١) الدر المنثور : ٥ : ٨٩ . عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فأسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج : بسم الله الذي خلقتني فهو يهدين هداه الله للصواب . ولفظ ابن مردويه . لصواب الأعمال ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ أطمعه الله من طعام الجنة وسقاه من شراب الجنة ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ شفاه الله وجعل مرضه كفارة لذنوبه ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ لِي حَسْبِيَ﴾ أحياه الله حياة السعداء وأماته ميتة الشهداء ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ غفر الله خطاياها كلها وإن كانت أكثر من زبد البحر ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهب الله له حكما والحقه بصالح من مضى وصالح من بقي ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ كتب في ورقة بيضاء ان فلان بن فلان من الصادقين ثم وفقه الله بعد ذلك للصدق ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ جعل الله له القصور والمنازل في الجنة . وفي تفسير البرهان ٣ : ١٨٤ . ابن بابويه بسند متصل عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : سألته عن قول الله عز وجل : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ وذكر الحديث فيما ابتلاه به ربه إلى أن قال : والتوكل بيان ذلك في قوله : الذي خلقتني . إلى . يوم الدين . ثم الحكم والانتماء إلى الصالحين في قوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني بالصالحين الذين لا يحكمون إلا بحكم الله عز وجل ولا يحكمون بالآراء والمقاييس حتى يشهد له من يكون بعده من الحجج بالصدق بيان ذلك ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾

ثم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ...﴾ وما بعدها من التدبير تتمحور الخلق ، تفريعا للتدبير على الخلق ، وان الخالق هو المدبر لما خلق لأنه الخالق ، وهما لزام بعض فطريا وعقليا وواقعا ، وليس الفصل بين الخالق والمدبر ألا عضلا للخالق عما خلق وهو به أعرف وعليه أقدر ، وإعطاء التدبير لغير الخالق وهو مخلوق كسائر المخلوق ، لا يسطع على تدبير نفسه فضلا عن الآخرين.

و «يهدين» بصيغة المضارعة بعد خلقي الماضي ، اشارة إلى استمرارية الهداية في كل حلقاتها ما دام الكائن كائنا ، كما الهداية تعم كل شئونه بل وكل شيء وكما في جواب موسى لفرعون : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٢٠ : ٥٠).

٣ . ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ كفالة حانية حامية عن جوعتي وهي سؤال الجسم ، فكيف لا يكفل سؤال الروح ، والهداية تشمل كل سؤال بسؤال ودون سؤال! ٤ . «ويسقين» فمادة الإطعام والسقي هي من خلقه ، ومعرفة الحصول عليها هي بهدايته.

٥ . ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فالمرض مني لمكان «مرضت» والشفاء منه والدواء منه وعلم الأدواء والإدواء منه مهما كان هنالك أطباء ، فإنهم بعلومهم منه ، وقد يمرض الله لما قدمت أيدينا ام لإصلاحنا فهو منا.

٦ . ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ كما خلقي ، فلا يميت إلا الخالق مهما كانت للموت ظاهرة الأسباب.

٧ . «ويحيين» ليوم الحساب ، يوم تتقطع الأسباب وتحرار دونه الأبواب.

٨ . ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ لا سواه ، إذ لا

غافر إلا إياه حيث المعصي والمطاع . كإله . ليس إلا إياه .

وقد جمع ذلك التعريف العريف برب العالمين إلى ربوبيته المادية الربوبية الروحية ، وإلى الهدى المادية الهدى المعنوية ، وإلى ربوبية العاجل ربوبيته في الآجل ، جمعا بين المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد ، وذلك هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليوم الدنيا ويوم الدين ، أما أنتم ف ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ دون ان تحمل أيا من هذه المواصفات الثمان التي هي لزام الربوبية والمعبودية! فأنى تؤفكون؟ أفكما آلهة دون الله تريدون؟.

ولماذا بالنسبة لغفر الخطيئة «أطمع» دون قطع رغم وعده تعالى للمؤمنين ، دون سائر ما ذكر من قبل؟ لأنها كلها مقطوعة غير ممنوعة حسب سنة التكوين ، ولكن الغفر يوم الدين ليس سنة قاطعة ف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٤ : ٤٨) . وهل ان ابراهيم كان مخطئا وهو نبي حتى يطمع غفره يوم الدين؟.

إنه يقوله قبل حكمه الرسالي الذي يتطلب العصمة المطلقة ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ فلعل له خطيئة قبل عصمة الرسالة! أم إنه تطامن وتذلل أمام الرب قصورا عما يناسب ساحته تعالى ، وعلّ منه طلب الغفر لأبيه وهو قبل حكمه الرسالي .

ثم هذا لسان حال المقربين وقا لهم تذليلا لساحتهم وتبجيلا لساحة رب العالمين ف «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ثم وتعلما للمخطئين كيف يجب عليهم ان يستغفروا الله . وما هو دور «لي» في ﴿يَغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي﴾؟ علّه سلب لوسيط الشافع فانه غفر للشافع كوسيط ، وكذلك سلب لانتفاعه تعالى بغفره ، وانما «لي» .

ولماذا ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ وظرف الغفر الصالح هو يوم الدنيا؟ علّه لأن الغفر يوم الدين هو المهم في غفر الخطايا ، والبرزخ ليس محل الغفر ، والغفر يوم الدنيا قد تلحقه خطيئة اخرى ، ولكن الغفر يوم الدين هو الكاسح الماسح غبار الخطيئة بأسرها.

هنا يسأل الخليل بجدارة ربّه الجليل زادا لراحلة الدعوة الرسالية ، عاجلا وآجلا إذ نجح في ذلك الاختيار :

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْخِفْني بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣).

وذلك حكم رسالي خاص يطلبه بعد الرحمة العامة ، فهناك ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في مواصفات تدرّ رحمتها على العالمين ، وهنا «رب» نظرا إلى الربوبية الخاصة لأصحاب الحكم من الله ، فيستوهب . إذا . «حكما» ما لم يكن له لحدّ الآن ، وليتزوّد به في دعوته الصارمة أمام الدعايات الضالة العارمة.

وقد يجمع الحكم المستوهب هنا تحكيم الأحكام الفطرية والعقلية والعملية ، إلى الحكم والحكمة الرسالية ، حيث الحكم أعم من الرسالة ، وإطلاقه هنا يعمها وسواها من حكم يستحكم عرى الدعوة الإبراهيمية الشاملة ، ولحدّ الإمامة بين المرسلين نسبيا.

وقد يعني ﴿أَلْخِفْني بِالصَّالِحِينَ﴾ اضافة إلى يوم الدين ، لحوقه بهم يوم الدنيا ، ان يكون من زمريهم وهم الرعيل الأعلى من المقربين ، نوح وموسى والمسيح وخاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد يعني من ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ كمال القوة النظرية المستكملة بقوة الوحي ، ومن ﴿أَلْخِفْني بِالصَّالِحِينَ﴾ كمال القوة العملية وكما بالنسبة لمن جعلهم الله أئمة وهو منهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ

الخيرات ..» (٢١ : ٧٣).

﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤).

وقد استجاب له دعواته ، فالأخيرة نجدها في مريم ﴿فَلَمَّا اغْتَرَفَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٥٠).

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ هنا هو لسان صادق مصدق مصدق حالا وقالوا وأفعالا ، و «الآخرين» هم حملة الرسالة الأخيرة ، محمد (ص) كرأس الزاوية ، وسائر الأئمة من ولده كسائرهم^(١) وقد تعني ما تعنيه آية الصفات ، كمریم ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) والزخرف : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨) وطبعا كبعض المصاديق الصالحة^(٢) ودعاء من ابراهيم تستمر طيلة حياته المنيرة وحتى بناء البيت وهو في أخريات عمره : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً

(١) راجع تفسير الآية في سورتها وفي تفسير البرهان ٣ : ١٨٤ تنمة الحديث السابق عن الصادق (عليه السلام) «.. بيان ذلك في قوله «وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» أراد في هذه الأمة الفاضلة فأجابه الله وجعل له ولغيره من الأنبياء «لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» وهو علي بن أبي طالب (عليه السلام) وذلك قوله : «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا»...».

وفي ملحقات أحقاق الحق ٣ : ٣٨٠ في الآية «هو علي (عليه السلام) عرضت ولايته على ابراهيم (عليه السلام) فقال : اللهم اجعله من ذريتي ففعل الله ذلك» أوردته عدة من أعلام القوم منهم الحافظ أبو بكر ابن مردويه في كتاب المناقب كما في كشف الغمة ٩٤ روى عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ... ومنهم المير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥٥ نقلا عن ابن مردويه عن الباقر (عليه السلام). (٢) راجع تفسير آية الزخرف للحصول على تفصيل المعنى.

لَكَ .. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴿٢ : ١٢٩﴾.

وقد يلوح ﴿لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أن من الأولين ومن بعدهم كاذبين بحقه ، كما اليهود والنصارى ينسبون إليه ما هم يعتقدون من ضلالات في حقل المعرفة والعمل ، وأما محمد (ص) فهو لسان صدق له في الآخرين ، استمرارية لدعوته الرسالية ، وإفصاحا بكيان ابراهيم كأفضل الموحدين.

﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥).

وهم ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (١٩ : ٦٣) و (٣٩ : ٧٤) والمؤمنون حقا : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا ... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣ : ١١ . ٢) والعاملون الصالحات بإيمانهم : ﴿... وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ... وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧ : ٤٣) و (٤٣ : ٧٢).

وهل هي ميراث عن الله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣ : ١٨٠) يرث ولا يورث! أم ميراث عن صالحين؟ وهم أنفسهم من ورثة جنة النعيم!
إنها ميراث لهم عمن ليسوا بداخليها حيث طغوا وما اتقوا ، وابراهيم يستدعي بعد ما دعى أن يصبح من أهل الجنة ، وطبعا من أئمتهم وكما كان يوم الدنيا.
ويا للتواضع والإشفاق من التقصير ، ويا للخوف من تقلب المصير ،

ان مثل الخليل يطلب من الجليل ان يجعله من أهل الجنة ، على علو محنته!

﴿وَاغْفِرْ لَأَيِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ٨٦.

وقد يكون ذلك التطلب من خطيئاته ، غير المحرمة في شرعة الله ، حيث لم يصب فيها واقع الأمر كما استدركه له ربه ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (٩ : ١١٤) واستثنى من الأسوة به ذلك الخطأ ، غير القاصد ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ... إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..﴾ (٦٠ : ٤).

وعلى الموعدة هي المفهومة من قول أبيه ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ كما شرحناه في مريم ، وذلك الاستغفار كان في بداية عمره ومفتتح أمره قبل حكمه الموهوب ، ثم لم نسمعه يدعو في خاتمة أمره وعمره إلا : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ (١٤ : ٤١) دون ابوي ، وقد تبرء من أبيه منذ دحر طويل ، فوالده . إذا . غير أبيه كما فصلناه في محالّه .

وقد تلمح ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الى ضلاله المحتوم قبل موعدته التي أخرجته عن حتمه ، والضال المتحري عن الحق ليس كالمجتري على الحق ، فيدعى للأول دون الأخير . وذلك من حنانه في الدعوة لمن هو كوالده في شأنه التربوي ، مهما كان مشركا ولكنه ﴿.. وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أصبحت كوعده بالإيمان فسلم عليه ووعدته الاستغفار ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (١٩ : ٤٧).

وقد يبدو من ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ انه كان قبل موته ، وقد تبين له خلف وعده وأن لم يكن ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ليجد مجالا للتفكير ، وانما مجالا مليا كيلا يسمع دعوة الحق ثم لكل حادث حديث.

فبطبيعة الحال لم يكن هذا الدعاء فور تركه أباه ، وإنما بعد مليّ أم لها اوتي حكما فتبين له انه عدو الله .

﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ٨٧ يَوْمَ لَا يُنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٨٩ .

وكيف «لا تخزي» بعد ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؟ إنه دعاء وليس هو في واقعه حتى يتقدم سلبه على إيجابه ، ثم هو مع إيجابه دعاء على تخوّف من سلبه ، وهذه قضية أدب العبودية حيث يحصر النصر في الله ، فإذا لم ينصره في الدنيا أو الآخرة خزي ، وكما كان يدعو رسول الهدى (ص) في صلاته «اللهم لا تخزي يوم القيامة»^(١).

وليس من الخزي المطلوب سلبه دخول آزر في الجحيم ، إذ لم يكن والده وقد تبرء منه قبل موته ، فرواية الخزي مخالفة لكتاب الله وساحة الرسول (ص) بريئة من أمثالها^(٢).

ثم ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١٦ : ٢٧) فكيف يستسلبه ابراهيم عن نفسه؟ ان الخزي . وهو عدم النصر ممن يؤمل منه النصر . قد يكون طاما في دركاته فهو للكافرين كما السوء ، وقد يكون جانبيا

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٠ . اخرج احمد عن رجل من بني كنانة قال صليت خلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عام الفتح فسمعتة يقول : ...

(٢) في الدر المنثور . اخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يلقي ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغيره يقول له ابراهيم : ألم اقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم : رب انك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال : يا ابراهيم ما تحت رجلك؟ فإذا هو بنديخ متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

لتقصير أو قصور وهو يعم سائر المؤمنين ، ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ و ابراهيم يدعو بما يدعو ولما يؤت حكما ، وهو على تخوف من عاقبة حاله يوم الدين ، فلأن ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ هو ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ فلا ناصر . إذا . إلا الله .

وهل الآية ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ ..﴾ إلى سبعة عشر آية هي من تنمة دعاء ابراهيم؟ وهو بعيد كل البعد عن حالة الدعاء ، ان تشمل على تفاصيل لا صلة لها بالدعاء إلا تعريفا لمن لا يعرف! فهي . إذا . من كلام الجليل يلحق بها دعاء الخليل ، تكملة للمعرفة في هذه الإذاعة القرآنية .

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ﴾ إذ ليس هنالك مال ، ولا ينفع يومئذ مال الدنيا بما هو مال لزوال المجال ، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ حيث تنقطع هناك كل الصلات : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٣ : ١٠١) . ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمُ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦ : ٩٤) .

اجل انه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ ..﴾ . ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فينفعه ماله الذي قدمه في سبيل الله ، وبنوه الذين رباهم على شرعة الله ، فان كان له مال وبنون فاستثناء متصل ، وإن لم يكن له مال ولا بنون فقد يكفيه قلب سليم ، فاستثناء منقطع ، والجمع بينهما أجمل وأكمل ، حيث المال المصروف في الله ، والبنون الصالحون ، هما في الباقيات الصالحات : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ (١٨ : ٤٦) فهناك النفع ينحصر في قلب سليم بمخلفاته مهما لم يكن لصاحبه مال ولا بنون ، وينحسر عن قلب غير سليم مهما كانت لصاحبه اموال وبنون .

اجل ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من كل نائبة وآثمة عاثبة ، من كل مرض وغرض ، ومن كل حب وهوى إلا الله ، وليس نفع الشفاعة أيضا إلا لمن ارتضى الله ف ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (٢١ : ٢٨).

فالقلب «السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه ، وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط ، وانما أراد بالزهد في الدنيا لتفزع قلوبهم إلى الآخرة» ^(١).
«سليم من حب الدنيا» ^(٢) فان حب الدنيا رأس كل خطيئة ، ف «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم لأن سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النية لله في الأمور كلها ..» ^(٣).

وان سلامة القلب يومئذ تنفع بقدرها فانها درجات ، كما ان عتامته تضر بقدرها فانها دركات ، والنيات والأعمال الصالحة هي من خلفيات سلامة القلب عما يرينه ، وتزيده سلامة ، كما الأعمال والنيات الطالحة تزيده عتامة ، فكل خير أو شر من الإنسان هي صادرة من قلبه ، فواردة إلى قلبه ، فهو مورد كما هو مصدر.

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨ في اصول الكافي القمي عن أبيه عن القاسم بن محمد عن المنقري عن سفيان بن عيينة قال سألت عن قول الله عز وجل : ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؟ قال : السليم .. وفيه في آخر قال قلت له : ما حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعا؟ فقال : التواضع درجات منها ان يعرف المرء قدر نفسه فيزله منزلتها بقلب سليم لا يجب أن يأتي الى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه ، إن رأى سيئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ عاف عن الناس والله يحب المحسنين».

(٢) المصدر مجمع البيان وروى عن الصادق (عليه السلام) : ...

(٣) المصدر عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) : ... قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

فلأن «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» فصاحب القلب المدعي سلامته ، غير الصالح في أعماله ، كاذب في دعواه ، وقلبه مغلوب عن الهدى ، مغلوب بطوع الهوى ، وليس الايمان . وهو حالة القلب . إلا قرينا بصالح العمل ، وكما نرى قرنه لزاما في كل القرآن.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١.

﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ..﴾ وأزلفت الجنة وقرّبت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين ، ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ﴾ حيث كانت كامنة في الغاوين ، فتبرز بما برز وليوم الدين ، واما الجنة فهي قضية فضل الله ، مخلوقة بأرضها قبل يوم الدين ، ولكن الجحيم تصلى بما يردّها أهلوها من الغاوين ، فلذلك الجنة تزلّف والجحيم تبرز : ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (٨١ : ١٣) . ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٥٠ : ٣١) فهنا إزلاف التقريب لغير بعيد ، وهنالك تبرز التسعير حيث يحشر كل بعيد.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ٩٣.

و «لقد ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٠ : ٣٠) . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٤١ : ٤٨).

وذلك سؤال التقريع والتأنيب بما كانوا يعبدون ، وظلّوا عليها عاكفين ، وهم ضلوا عنهم وقت الحاجة الحارقة ، ف ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ هناك؟ ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم حين يعذبون؟ لقد ضل عنهم كيانهم كآلهة ، وحين يبرز لهم كونهم فهم معهم معذبون ، اللهم إلا الصالحون من الملائكة والنبين ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

(٢١ : ١٠١).

واما الطالحون ف ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (٢١ : ٩٨) .
 ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٤٣ : ٣٩) :
 ﴿فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥ .

ثالث منحوس هم صلاء النار ، الأصلاء فيها : (١) إبليس بجنوده أجمعين (٢) الغاؤون (٣) المعبودون من دون الله أصناما وسواها إلا المتقين ، ومهما لم تشعر الأصنام عبادتها ولا عذابها ، ولكن الغاؤون العابدون يضاعف لهم العذاب إذ يرون آلهتهم يعذبون . والكبكية هي الانكباب مرة بعد أخرى على الوجه ، و «هم» هم المعبودون ، «والغاؤون» هم العابدون ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هم المصللون من الجنة والناس ، لا فحسب «ذريته من الشياطين» ^(١) اللهم إلا أن يعني ذرية الشيطنة ، فالشياطين . إذا . هم أعم من الإنس ، اجل ! إنهم على كبكبتهم يوم الدنيا يلقون على وجوههم في النار يوم الدين ، ويكأننا نسمع الآن من جرس اللفظ هنا جرس الكبكية هناك في النار ، لفظ يصور بجرسه لمعناه .

هنالك تبرز لهم آلهتهم التي آلهتهم بعد ما ضلوا عن ألوهتهم وإلى مسرح الحوار بين العابدين والمعبودين :

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٨ .

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨ في أصول الكافي بسند متصل عن محمد بن سالم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : جنود إبليس ذريته من الشياطين .

«قالوا» الغاؤون المشركون ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مع بعض ، طواغيت وأصناما «تالله» الذي لا إله إلا هو «إن كنا» بتأكيد أكيد ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غارقين في خضمه ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تسوية جاهلة ، ظالمة قاحلة ، فانها في كل حقولها ضلال مبين يبين ضلاله.

فكل تسوية بالله ، في ذاته او صفاته أو أفعاله ، في عبوديته واحترامه كمعبود ، في حرمة قلبية أو طقوس قلبية ، كل ذلك ضلال مبين ، بين إشراك جلي أو خفي أو عصيان. ف «اعلم ان من شبه ربنا الجليل بتباين أعضاء خلقه ، وبتلاحم أحقاق مفاصله ، المحتجبة بتدبير حكمته ، إنه لم يعقد غيب ضميره على معرفته ، ولم يا شهد قلبه اليقين بأنه لا ند له ، وكأنه لم يسمع بتبري التابعين من المتبوعين وهم يقولون : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فمن ساوى ربنا بشيء فقد عدل به ، والعدل به كافر بما تنزلت به محكمات آياته ونطقته به شواهد بيناته ، لأنه الله الذي لم يتناه في العقول فيكون في مهبط فكرها مكيفا ، وفي حواصل هويّات هم النفوس محدودا مصرفا ، المنشئ اصناف الأشياء بلا روية احتاج إليها ، ولا قريحة غريزة أضمر عليها ، ولا تجربة أفادها من موجودات الدهور ، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور»^(١).

وترى كيف ﴿نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهم كانوا يعبدونهم دون الله؟ علّ القصد من التسوية في اصل العبادة ، فكما الله يعبد كذلك كنا نعبد أصناما كأنها الله. ثم التسوية بين الله وخلقه محذور في كل الحقول المعرفية والعبودية والطاعة والاحترام ، إن كانت تسوية واقعية فضلال مبين ، وإن كانت

(١) التوحيد للصدوق خطبة لعلي (عليه السلام) يقول فيها : ايها السائل اعلم ...

ترجيحا لغيره عليه فيإشراك إلحاد أم إلحاد.

والتسوية إن كانت قاصدة فيإشراك أو إلحاد جلي ، وإن كانت جاهلة فيإشراك خفي ، فمن يسجد أو يركع لغير الله معصوما وسواه ، كما يركع ويسجد لله ، فان كانت عبودية فيإشراك جلي ، وإن كانت احتراما فخفي .

ومن يقول لو لا فلان لما نجحت ، فقد سوى بالله سواه ، أو قال إن شاء الله وشاء فلان فكذلك الأمر ، أو كتب اسم الله ردف اسماء من سواه ، قاصدا تسويتها به وغير قاصد ، فهو . على أية حال . في ضلال ، مهما اختلفت دركاته ، من فسوق ، إلى شرك خفي ، إلى شرك جلي ، وإلى إلحاد في الله .

اجل وكل تسوية بالله قاصدا وسواه ، إنها ضلال مبين ، فإنها تسوية بين الفاضل والمفضل ، أم وانحس منها وأنكى ترجيح للمفضل على الفاضل .

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٩٩ .

ويكأن المشركين الغاوين ليسوا هم من المجرمين ، ام يعنون بهم اصول الإجماع من جنود إبليس الذين أضلوهم .

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٠٠ .

عند الله ، لا المعبودون من دون الله ولا المجرمون ، و «شافعين» بديل «شافع» تلمح أنهم على علم من شافعين هناك يشفعون للبعض من أهل الجحيم وهم موحدون ، فيتحسرون على حرمانهم ووجد من سواه من المعذبين ^(١) .

(١) في الجمع وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي (صلى الله عليه .

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ١٠١

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٤٣ : ٦٧) وحتى لو كان هناك صديق فليس حميما ، ولو كان حميما فهناك الصلات منقطعة ، فانه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٢.

«لو» تحسر لما يروونه من المستحيل ﴿أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ إلى حياة التكليف ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٦ : ٢٨).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ العرض الفسيح الفصيح لقصة ابراهيم وقومه «لآية» هؤلاء المشركين
زمنك يا رسول الهدى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مهما تواترت عليهم آياتنا البينات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربك بخاصة الربانية ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الغادرين «الرحيم»
بالمؤمنين ، فلا تأس على القوم الكافرين ، ولا تيأس من رحمة ربك العزيز الرحيم.

. وآله وسلم) يقول : إن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي؟ وصديقه في الجحيم ، فيقول الله : اخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.
وروي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : والله لنشفعن لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ...﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَزْدُلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٢)

ثمانية عشر آية تستعرض دعوة نوح الرسالية حوارا مع قومه بصورة خاطفة منذ البداية حتى غرقهم أجمعين :

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٠٥ .

«قوم» في لفظها مؤنث تصغيرها قومة ، يجوز في فعلها المقدم الوجهان ومن الثاني : ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ وهي كالظرف والمجرور ، نعم حين انفرادها القبيلين ، وحين تنضم إلى نساء تعني قبيل الرجال ، كما ﴿قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ تلحقها ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ . ف ﴿قَوْمٌ نُوحٍ﴾ هم كل المرسل إليهم نوح ، وهو أول من دارت عليه الرحى من أولي العزم الخمسة ، وقصة نوح تقصّ في سور عدة ^(١) وتختص بها سورة واحدة ، مما يشي إلى بالغ الأهمية في عرضها في هذه الإذاعة العالمية القرآنية ، كقصة موسى وإبراهيم والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين .

وترى كيف ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ﴾؟ ولم يأت في سائر القرآن إلّا تكذيبهم . فقط . نوحا لا سواه!

علّه لأنه تكذيب لسلسلة الرسالات ككل ، فان مقالهم هو مقال تكذيب الرسالة بأسرها ، وان تكذيب رسول واحد ثابت الرسالة بآياتها هو تكذيب للرسالات كلّها ، ولا سيما الرسالة الأولى وهي مفتتح ولاية العزم ، أم لأنه «مكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاما لم يشاركه في نبوته أحد ، ولكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم ..» ^(٢) .

(١) كالأعراف ويونس وهود والمؤمنون ، والخاصة به سورة «نوح» .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) حديث طويل يقول فيه .

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ١٠٦.

«إذ قال» هنا كظرف لذلك التكذيب الجماهيري ، تؤيد أن تكذبيه كان تكذيباً للمرسلين ، مهما سبقه تكذبيهم من قبل.

وتلك الأخوة هي الأخوة في الإنسانية وفي المواطنة ، فلا بد أن تنجر إلى الأخوة في حق الإنسانية من هداها ، طردا لرداها ، ومن حق الأخ على الأخ ان يحاول في هداها وقد فعل نوح وبلسان الأخوة الحانية ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فيما تبغون وأنتم تطغون؟ و ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ في بزوغ الدعوة مما يزعمهم عن تقاليدهم الجاهلة ، ويجعل إلى قلوبهم منفذا للاستماع إلى الدعوة الرسالية ، تخوفاً من الواقعة الموعودة ، إذ هم ليسوا على علم مما هم عليه.

ولأن تقوى الله لا بد لها من صورة كما لها من سيرة ، فوسيط الرسالة هو لزامها على أية حال ، وكأنه يجيب بعدئذ عن سؤال كيف نتقي الله؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٠٧.

أمين على رسالة الله إليكم ، فلا تجدون فيّ خيانة في تلك الأمانة حالا ومآلا وأفعالا ، وكما لمستموه مني حتى الآن ، إذ ما خنتكم كخلق الله ومرسلا إليكم من الله ، فكيف أخونكم في رسالتي لكم من الله؟ وهنا يعود مرة ثانية يأمرهم بتقوى الله بذريعة الرسالة :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٠٨.

«أطيعوا» في : كيف يتقى الله ، فإني أحمل رسالة الله بكل امانة ،

. فمكث نوح ... وذلك قوله : ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني من كان بينه وبين آدم إلى ان انتهى إلى قوله : وان ربك هو العزيز الرحيم . وقال فيه ايضا : فكان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة آباء كلهم أنبياء ، وفي روضة الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن محمد بن الفضل عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) مثله.

ثم ولا أكلفكم على رسالتي . بكل صعوباتها وملتوياتها ومنحنياتها . اجرا ، مما يزيد لي تصديقا :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٠٩ .

وعدم سؤال الأجر أو قبوله سنة مستمرة طول خط الرسائل ، مما يسهل الإقبال إليها دونما صعوبة وتكلف ، فالركن الأول لها هو الايجابي : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ والثاني هو السلبي : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فالدافع لتصديقها واقع ، والمانع عنها غير واقع ، فما بقي هنا إلا القبول ، وبطبيعة الحال لا يدعي الرسول ما يدعيه دون برهان مبين يقطع كل الأعذار ويقنع الأفكار .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١١٠ .

يكرر هنا الأمر بتقوى الله وطاعته هو كرسول الله ، لتكرار الدافع لها ، وهو السلب إلى الإيجاب ، وهذه ثلاثة ثلاثة في أمر التقوى ، مما يدل على انها هي المحور الأصيل في كل شرعة إلهية ، حيث تجتمع فيها كل الأصول العقائدية والفروع العلمية ، من واجبات ومحرمات تجمعها تقوى الله وطاعة الرسول في الله .

وذلك خلاف ما عهده الناس من الكهّان وقسم من رجال الأديان من استغلال الدين لابتزاز الأموال بشئ الأساليب ، فدعوة الله الحققة متجردة عن كل أجر إلا من الله . وخلاف عهد آخر لهم من النسناس المتزيين بزي الدعاة إلى الحق وهم في الحق على باطل نكد ، فلكي يلصقوا باطلهم إلى قلوب الناس لا يطلبون أجرا بل ويصرفون أموالا طائلة ويرخصون الجنس ، ويقدمون كل ألوان المشتبهات الحيوانية ، لكي يجلبوا أنظار الناس إلى ما يدعون .

ولكن رجالا لله ، الدعاة إلى الله ، هم متجردون عن كل هوى إلا هوى الله ، وعن كل أجر إلا من الله ، متزودين بآيات الله البينات ، واقعيين متصلين في وجهاتهم الدعائية لا تحركهم العواصف ولا تزيلهم القواصف.

والمهم في دعائهم الرسالة الحققة الأمانة ثم الأمانة ، وليس عدم سؤال الأجر إلا قاطعا للأعذار المادية بعد قطع الأعذار المعنوية ، فليس . إذا . مستقلا بجنب الأمانة ، ولذلك تأخر عنها تأكيدا للتصديق.

فالرسول الأمين الذي يطلب أجرا لا يتوفق في دعوته لا سيما والأكثرية الساحقة من المهتدين فقراء ، وغير الأمين وإن دفع أجرا بديل طلبه إياه لا يدعو إلا إلى النار ، فليكن الرسول جامعا بين الأمرين ﴿لَنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ .
﴿قَالُوا أَنْوُمِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ ١١١ .

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (١١ : ٢٧).

نعم «الأردلون» ﴿أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ﴾ المعروفون عندهم بحساب الهوى وقيم الدنيا الرذيلة ، ألا مال لهم ولا منال ، فلو كانت دعوتك حقة لاتبعك الأعلون ، ذوو الحنكة المتحضرون ، فلما اتبعك الأردلون عرفنا أن دعوتك رذيلة لا تحمل أية فضيلة .
أم إن كانت دعوتك حقة فلتطرد التابعين الأردلين حتى يفسح لنا مجال اتباعك ، حيث التسوية بيننا وبينهم ضلال مبين.

لكن «الأردلون» في ميزانهم المتأرجف اللعين هم السابقون دوما إلى الرسل ، أخفاء في قبول الحق لا تثقلهم وتقعدهم عنها أغلال الثروات والطنطنات والكبريات والمصلحيات القائمة على الأوضاع المزيفة.

فإيمانهم الموعد شريطة طرد المؤمنين : «الأرذلون» في حسابهم هو خلاف متن الايمان وقضيته ، حيث يوحد بين قبيل المؤمنين ، فلا أكرم عند الله منهم إلا أتقاهم ، ولا فوارق بينهم إلا تقواهم ، فهي التي توحد صفوفهم ، وهي التي تميز بينهم بفاضلها .
هنا نجد الجواب الحاسم من نوح في حلقات أربع كل واحدة تكفي حسما لعذرهم الغادر :

﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١١٢ .

فإن كانت «الأرذلون» حالتهم السابقة على الايمان ، فما علمي بأعمالهم السابقة؟ وإنما المعلوم عندي حالتهم الحالية وهي الايمان ، وذلك هو المطلوب منهم الآن أيا كانت أعمالهم السابقة .
وحتى لو كانوا محاسبين برذالة سابقة . ولا يحاسبون . «يغفر لهم ما سلف» بإيمانهم الخلف ، ف :

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ١١٣ .

ولست أنا المحاسب ، فما أنا إلا رسول الإيمان إلى أي كان ، فحين تؤمن جماعة مهما كانت حالتهم السابقة رذيلة ، كيف أطردهم ، وما حسابهم عند الله إلا حسنا يسيرا فليس . إذا . ﴿وَمَا عَلِمِي ... إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ إلا تنازلا في الحوار ، أن ليس علي حساب لو أنهم محاسبون بما كانوا يعملون ولن! ثم وما علي إلا البلاغ المبين فقبولا لايمان من أقبل دون أية محاسبة .

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٤ .

فبأية حجة أطرده المؤمنين وما أحمل إلا رسالة الايمان ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) .. وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي

أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١ : ٣١﴾.

وهذه ستة رسالية دائبة : جذب المؤمنين وطرد المعاندين ، فكيف . إذا . أطرده المؤمنين؟ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٦ : ٥٢) أطردهم ثم أطري الكافرين المتطاولين المستكبرين؟!.

﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ١١٥ .

«نذير» من عذاب أليم «مبين» سبب النذارة ومادتها ، فكيف أطرده المنذرين المؤمنين لرغبة المتأنفين المستكبرين ، فان هي . إذا . إلا رسالة الظلم والاستكبار! . ولقد قلت لكم من ذي بدء ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وتلك . إذا . خيانة في الرسالة أن أطرده المؤمنين ، ونقضا لصالحها إلى مصلحية الجمع لجم غفير من المستكبرين وهم كاذبون ، بذلك يثبت نوح جدارة هذه الرسالة الأمانة أنها لا تخضع لرغبات الأقوياء الأغوياء ، وإنما لحكم الله جذبا للأبرياء الأتقياء .

﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٦ .

هذا جواب العاجز اللعين إذ يتنقل من الحجة . إذ يراها عليه لجة . إلى التهديد ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ﴾ عن دعوتك ودعايتك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقد كان الرجم أشد عقوبة للمتخلفين ، فقد بدأوا بحوار ، ثم تطلبوا منه أن يأتيهم بما يعدهم : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١ : ٣٢) وآخر المطاف ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾!

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ

مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾.

عرض لحال معلومة عند الله ، ولكنها موقف الدعاء تعرض فيه كل حالة بقالة متواضعة ، ولأن تكذيب الرسالة راجع إلى تكذيب المرسل فنوح هنا في ذلك العرض يتطلب إلى ربه ان يعالج موقفه الرسالي بفتح منه ونجاة له ولمن معه من المؤمنين ، مما يلمح أنهم هددوا بالرجم كما هو ، وقد يشير إليه ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ممن رجم أو يحكم له بالرجم. «فافتح ..» احكم بيني وبينهم حكما قاطعا وأمرافاصلا ، يفتح الباب المبهم بعد ما استصعب رتاجه ، وأعزل علاجه ، ويقال للحاكم : الفتح ، لأنه يفتح وجه الأمر بعد اشتباهه واستبهام أبوابه ﴿وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ﴾ يفتح بعلم ويغلق ما انغلق ويفتح ما ارتق.

وهذا الفتح هو بطبيعة الحال واقعه المميز بين الفريقين وفيه نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين دونما اقتراح لنوعية الفتح استسلاما لأمر ربه ، فليس فتحا في حكمه شرعة لأنه كان واقعا منذ الدعوة ، بل ومنذ بزغت شرعة في هذه البسيطة. وقد فتح الله بينه وبينهم بعد ربح بعيد من الزمن ، حيث الدعوة كانت ألف سنة إلا خمسين عاما :

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ ١٢٠.

ولقد كان فلكه مشحونا بشحنات الحيوان من مختلف أجناسها ، ومن الذين آمنوا معه و «المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلا دفعه» ^(١).

(١) في كتاب كمال الدين وروضة الكافي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في «الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ».

وهذا إجمال جميل سريع يصور النهاية الأخيرة للمعركة المصيرية بين ضفة الإيمان والكفر في فجر البشرية تقريراً غريزاً لمصائر المعارك التالية للبشرية إلى يوم الدين ، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار!

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٢٢ .

تلحيق مكرور في ختام العرض لهذه الدعوات الرسالية ، بنفس الصيغة السابقة في عرض خاطف لمقابلة الكفار للرسالة الإسلامية ، ولموسى وإبراهيم من قبل ، ثم هود وصالح ولوط وشعيب ، آيات مكررات تعرض لهؤلاء المناكيد الأوغاد ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هنا وعبر التأريخ الرسالي ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره غير مغلوب «الرحيم» بالمؤمنين .

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ

بَطَّشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢)
 أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ
 (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

تأتي قصة عاد اربع وعشرين مرة في سور عدة ، في نجمها توصف بالأولى (٥٠) مما يدل على انه اثنان ، ولا خبر لنا عن الثانية ، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى ، مما يدل على أنهم كانوا اظلم واطغى ، لحد أنسوها الأخرى.

وهنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس ، تدليلا على وحدة الرسالات دعوة ومغزى ، مهما اختلفت في أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه ، وهنا بعد عرض الرسالة . كما أسلفنا تفسيرا . يندد هود بقومه في نبرات ^(١) :

(١) في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسندا عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد .

﴿أَتَبْنُونُ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ١٢٨

والريح هو المرتفع الرائع : فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال والجبال والغابات ، ام مرتفعات صناعية «آية» قصرا يشي بعظمهم وصغار الآخرين «تعبتون» بآية الريح مختلف العبت : إسرافا في زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجنب الفقراء المعوزين ، الذين قد لا يجدون أكوأخا فيها يسكنون ، وكما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «ان كل ما بيني وبينى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه»^(١).

. ابن علي الباقر (عليه السلام) في حديث وقال نوح ان الله تبارك وتعالى باعث نبيا يقال له هود وانه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه وإن الله عز وجل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فان الله تبارك وتعالى ينجي من عذاب الريح ، وامر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة ويكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه ، فلما بعث الله تبارك وتعالى هودا نظروا فيما عندهم من العلم والایمان وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة فوجدوا هودا نبيا وقد بشرهم أبوهم نوح به فآمنوا به وصدقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح وهو قول الله عز وجل : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وقوله : ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١) في الجمع . الخبر المأثور عن انس بن مالك ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج فرأى قبة فقال : ما هذه؟ فقالوا له أصحابه : هذا الرجل من الأنصار ، ، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مرارا حتى عرف الرجل الغضب به والأعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه وقال : والله إني لأنكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما ادري ما حدث في وما صنعت؟ قالوا : خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله وسلم فرأى قبتك فقال : لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله وسلم ذات يوم فلم ير القبة فقال : ما فعلت القبة التي كانت هاهنا؟ قالوا : شكى إلينا صاحبها اعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال : إن كل ما بيني وبينى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه.

وتظاهرا وتفاخرا في ذلك التكاثر حيث تبدوا هذه القصور من بعد كأنها علامات ،
تعلم بها مكانة أصحابها تطاولا ومقدرة ومهارة.

فآية العبث بنيانا إما ذا هي آية الرعونة والترف واللامبالاة في الحياة ، وكأنهم خلقوا
عبثا ليعيشوا عابثين.

فالعبث في آية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة ومسيرها
ومصيرها ، والتغافل عن مسئولياتها تجاه الله وخلقها.

وكيف يسمح الثري لنفسه ان يعبث بالبنيان والملابس والمآكل والمناكح ، على عيون
العزل من ضروريات الحياة من البائسين المعدمين؟!

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ١٢٩.

المصنع من الصنع وهو إجادة الفعل ، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظا
عن أية إصابة أرضية أو سماوية ، من قصور حجرية أمأهيه ، كالمنحوتة في الجبال وكأنها
تخلدهم في الحياة أكثر من آجالهم المقدرة لهم.

ذلك ، وإما اتخذ المصانع لدفع كيد العدو ، أو السارق أمأذا من مصالح حيوية عاقلة
فليس بذلك الممنوع ، بل مسموح ممنوح.

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ١٣٠.

فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبرة ، وأما المدافعة اعتداء بالمثل فهي الحق العدل
لكل مهاجم عليه في أي ناموس من نواميسه الخمس أم نواميس الآخرين المحترمين ، ولكنهم
غلاظ متجبرون دونما تحرج في بطشتهم ، هجوما بدائيا أو دفاعيا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٣١.

تقوى عن كل مظاهر الطغوى ومعالمها ، وطاعة لرسول الهدى فيما

يفعله أو يقوله عن الله.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٣٥.

إمدادات ربانية في تسهيل الحياة ، تقتضي شكورا ، فكيف تطغون فيما أمدكم ،
وتسبون بها على عباد الله ، فان لم تحذروا حاصر العذاب ف ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إذا متم
بحالتكم البئيسة ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ برزخا ويوم الدين.

أتراهم اتعضوا بهذه العظام البالغة؟ وهي لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية؟:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ١٣٦.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهنا ﴿مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ قد تلمح إلى
أن الواعظين كانوا عدّة ، عرضيا يرأسهم هود؟ أم طوليا قبله وبعده في مثلث الزمان.
أم وحتى ان لم يبعث إليهم إلا هود فهم بمقابلهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه
الرسالات كلها : ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ ..﴾ فتكذيب هود بهذه المثابة هو
تكذيب المرسلين أجمعين.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣٧.

«إن هذا» الذي تعظ به ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الواعظين ، أساطير مكرورة طوال
الزمن ، وأكاذيب لصق بعض وتلو بعض.

أو «ان هذا» الذي نحن عليه «إلا خلق» آباءنا «الأولين» فنحن على آثارهم
مهتدون ، وما نحن بتاركي خلقنا وهي تراث الأولين.

وقد يعنيهما «هذا» فإنهما من مقال الكافرين بالرسالات ، وبناء عليه :

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ١٣٨ .

رغم ما تعدنا الوعود المكرورة من الواعظين الواعدين.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٤٠ .

عرض خاطف لمصيرهم الهالك في مسيرهم الحالك ، يطوى فيه أطفى طغاة التاريخ

وتطوى آيات كل ريع لهم ومصانعهم وكل نعيم لهم ، إلى عذاب مقيم!

﴿كَذَبَتْ ثمودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ

وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

(١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)

قَالُوا إِنَّمَا

أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)
 قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
 يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

«ثمود» هم اخوان عاد في الطغيان ورعونة الحياة ، يتشابهان في دورهم اللعين وكورهم
 المهين ، ودعوة صالح الرسالية هي نفس الدعوات ثم التنديد :

﴿أَتُزَكُّونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ﴾ ١٤٦ .

«ما هاهنا» مشروح فيما هاهنا ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ...﴾ وقد اختص «ونخل» من
 بين شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرة وإنتاجا ، وكانوا يهتمون بها أكثر من غيرها ، والطلع هو
 الطالع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ ، والهضيم هو اللطيف من قولهم فلان
 هضيم الحشا أي لطيف البطن وأصله النقصان من الشيء كأنه نقص من انتفاخ بطنه
 فلطفت معاقده خصره ومنه ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا﴾ .

وهو اليانع البالغ ، والذي إذا مسّ تحافت من كثرة مائه ورطوبة أجزائه.

فهو النضيج الذي أرطب ثمره وهذه هي أفضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه في بعض فكان بعضه هضم بعضا لفرط تكاثفه وشدة تشابكه.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ ١٤٩.

الفره هو الأشر ، فالفاره هو الأشر البطر ، والبيوت الجبلية هي الفرهة المرحه ، يعبث بها حياة الفرح والمرح.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ من متعة الحياة وشره اللامبالاة ، في جنات وشهوات «آمنين» من بأس الله الذي هو لا محالة آت؟

أتظنون انكم ﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾ تتركون لحيونة الحياة ، في كل دعة ورخاء وكل متع الحيوانات؟ «أتركون» لا يردعكم فوت ، ولا يزعجكم موت.

لمسات موقظة تجذبهم إلى التقوى ، ابتعادا عن الطغوى ، ولكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبة ، الجافة الجاسية ، إذ لا تصغى لها ولا تلين بها.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٥٢.

فطاعة التقوى هي طاعة الله وطاعتي كرسول من الله ، وطاعة الطغوى هي طاعة من سوى الله ولا سيما المسرفين في التخلف عن الله وعن شرعته ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ساعين في إفساد الحياة الأرضية في كل جنباتها الإنسانية بل والحيوانية ، ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أبدا.

فأصحاب الأمر والإمرة على طوائف ثلاث ، مصلحون لا يفسدون وهم الدعاة إلى الله معصومين وسواهم ، إلا خطأ من سواهم ، ومصلحون قد يفسدون ، أو مفسدون قد يصلحون ، وهم نحسون حسب دركات

إفسادهم ، ومفسدون لا يصلحون وهم المسرفون في إفسادهم ، و ﴿أَمَرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ليس . فقط . ما يقابل النهي ، حيث الطاعة المنهية لا تخص هذا الأمر ، بل والنهي المسرف أخرى ان تترك طاعته ، كما النهي عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف ، وانما الأمر هنا فعلهم وشأنهم وإمرتهم وأي أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا؟.

واختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهي في طاعة أمرهم ، فطاعة الأمر غير المعصوم صاحبه ، أو المأثوم ، هذه منهيّة على أية حال ، ﴿وَلَا تُطِيعُوا﴾ هنا قضاء حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى الله ، ومن ثم الخطى الأخرى التي تتبى الخطوة الأولى! تركا لطاعة من سوى الله ككلّ ، إلّا رسول الله ، وكل من يحمل عنه ما حمّله حليما تقيا ، لحد يعتبر أمره أمر الله وكما عرّف به الله.

فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل ، وانما يؤمرون في البداية وينهون ، في أوليات العقائد والأخلاق والأعمال ، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمَرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ تكفل هذه البداية دونما إفراط ولا تفريط.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٥٤ .

لقد حصروا كيانه الرسالي في السحر : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ولماذا؟ لأنهم حصروا كيانهم أنفسهم في الشهوات المضللة ضد الرسالات ، وبطبيعة الحال ليست ردة الفعل ونبرة القول ل «إنما» الضلالة وجاه «إنما» الهدى إلا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾! . إذ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تريد أن تتفضل علينا ، وترى المماثلة في أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية

لحد يَجَنُّ رسول البشر ، أفليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر ، يجعل للفاضل جدارة في كيان يخلِّق على المفضولين ، وأفضل التفاضلات هي الرباط الروحي بين الإنسان وربه ، علميا وتربويا لحد العصمة بمراتبها ، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحق له الرسالة إلى البشر ، لحد يرمى إلى السحر والجنون ، ما هذا إلّا تذليلا لساحة الإنسانية وخطا من سماحته لحد لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها ، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالا بلا رسول!. وإنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول ، انها لا تستأهل ان يؤتى خبر السماء وهي عائشة الأرض ، تغافلا عن القيم المودوعة لخليفة الأرض ، وانها موهوبة القدرة على الاتصال بالملا الأعلى وهي مقيمة الأرض.

تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص ، فليطلب بها مدعي الرسالة قبل رميه بالسحر ، ولكنهم عكسوا الأمر ، تقدما لتهمة السحر على ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ :

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦﴾.

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (٧ : ٧٣) ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ..﴾ (١٧ : ٥٩) ﴿إِنَّا مُرْسَلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاضْطَبِرْ﴾ (٥٤ : ٢٧) هذه الناقة نفسها آية إذ خلقت دون ولادة متعمدة ، وكيف خلقت هي آية؟ أخرى بنا ألا نخوض فيه ، فنكتفي بما قاله الله ﴿نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾.

ثم وتقاسم الشرب وهو نصيب الشرب سويا ، آية أخرى ، كيف

تشرب ناقة بمفردها كشرَب جمهرة الناس المرسل إليهم صالح؟! وقد تكون نبعة الشرب آية
ثالثة كما يروى ^(١) وهل ان هذه الآية المبصرة ابصرتهم؟ كلاً وهم عمي لا يبصرون :

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ١٥٧ .

والعقر هو إصابة الأصل والقعر ، وهو بالنسبة للناقة النحر المستأصل نحروها نحراً لآية
الرسالة ، وأخذاً لشربها ، وأكلاً للحمها ، «فأصبحوا» بعد ذلك وحين رأوا العذاب
«نادمين» ولات حين مناص ، وتراهم عقروها كلهم؟ وهذا خلاف النص في آية القمر
﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٢٩) !.

مهما كانت الشمس تعمه وسواهم كسائر آيات العقر : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (١٤) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ (١١) :
٦٥ . وذلك بعد عقروهم الناقة وتحديهم صالحاً بإتيان العذاب ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَاثِمِينَ﴾ (٧ : ٧٨) ، ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفاً فعقرها كما في
آية القمر ، فهم كلهم مشاركون في درك عن درك ، وقد عد عاقرها . فقط . أشقى الأولين
(٢) .

(١) مجمع البيان وروى عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال : انه أول عين نبعت في الأرض هي التي فجرها
الله عز وجل لصالح فقال : لها شرب ولكم شرب يوم معلوم .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٨٧ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) من أشقى الأولين؟
قال : عاقر الناقة قال : صدقت فمن أشقى .

«أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخشفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»^(١).

وقد نستلهم من «عقروها» أن كلّ مشارك في ظلم أو معاون ظالما يجمع معه في إثمه ، كل حسب دوره الفعال في الجريمة ، وحتى في النية.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٥٩.

تعقيب مكرور بصيغة واحدة لمصير المكذبين ، وليعلم ان صيغة الرسالات واحدة كصيغة المكذبين بها ، سلسلتان متعارضتان في هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٤) ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)

. الآخرين؟ قال : قلت لا أعلم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الذي يضربك على هذه وأشار إلى يافوخه.

(١) نَجَّحَ البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام).

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَتَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

﴿آتَاؤُنَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ١٦٥ .

﴿آتَاؤُنَ الذُّكْرَانَ﴾ تنديد شديد بإتيانهم ، و ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قد تتعلق بالآتين ، أنكم أنتم المخصوصون بهذه العملية النكراء بين العالمين : ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٧ : ٨٠) وأخرى بالماتيين ، فقد تلمح . إذا . ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ دون «الناس» لعالم الجن ، وان قومه منهم كانوا كما الإنس يأتون الذكران منهم ، والمعنيان . عليهما . معنيان ولكل وجه ، مهما كان الثاني أوجه .

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ١٦٦ .

وترى «من» هنا بيانية تبين ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾؟ والصيغة الصالحة لها ﴿أَزْوَاجَكُمْ﴾ أو «المخلوقة لكم»!

أم تبعية تعني عضو الجنس من الأزواج؟ وصيغتها السائغة لها «فروج أزواجكم»! إنها قد تعنيهما بيانا وتبعيضا ، والثاني لا يخص القبل ، بل والدبر أيضا مهما كان الأصل الصالح هو الأول ، ولو كان إتيان أديبارهن محظورا لما اختص التنديد بإتيان الرجال ، وأما إذا اختص الرجل إتيان زوجته بدبرها تاركا للآخر ففيه بحث آخر قد نفقي بالتحريم لأنه خلاف مصلحة الولادة الخاصة بإتيان القبل.

وقد تلمح «ريكم» ان قضية الربوبية الخلقة ، المقتسمة الناس إلى قسمي الرجال والنساء ، اختصاص إتيان الجنس بالنساء ، وأما الرجال مع الرجال لواطاً أمّا هو ، أو النساء مع النساء مساحقة أمّا هي ، فذلك تعد عن طور الخلقة وحكم الفطرة ومصلحة الولادة المقصودة بالزواج ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ صالح الربوبية ، عادون قضيته الفطرة السليمة ، عادون الحق المشترك بين الرجولة والأنوثة إلى المجانس.

فالخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط المجرمون هي الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال شهوة من دون النساء : ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ﴾ (٢٧ : ٥٥) . ﴿.. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٧ : ٨١) ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ..﴾ (٢٩ : ٢٩).

فذلك الإتيان المتخلف جهالة وإسراف وتعد عن طور الفطرة الإنسانية وخلقتها ، وقطع لسبيلها التناسلي أو العائلي!.

واما إتيان النساء شهوة قبلا أو دبرا أمّا ذا؟ فلا محذور فيه لأنهن خلقن

للرجال : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَىٰ شَيْئُمْ﴾ (٢ : ٢٢٣) مهما كان أصل الحرث هنا الولادة الحاصلة بالمقاربة العادية ، ولكن الأخرى أيضا هي على هامش الحرث ، كما التفرج في حرث الزرع هو على هامش الحرث ولكن الأشبه الحرمة.

فقد برأ «ربكم» الذكر للأنثى والأنثى للذكر ، وفطر كلا منهما على الميل إلى قسيمه الإنسان تحقيقا للحكمة العالية الربانية في امتداد الحياة الإنسانية من طريق التناسل ، فكلمما يدفع لتعطيل التناسل كأصل ، هو خارج عن أصل الحل ، سواء أكان لواطاً أم مساحقة ، أو عادة سرية ، أو إتيان حيوان أو إفراغا للمني أو استعمال واسطة أمأهيه من السبل القاطعة للنسل ، اللهم إلا في موارد استثنائية إلا المنصوص على حرمة إطلاقا كالأربعة الأولى ، أم أحيانا كإفراغ المني عن الزوجة الدائمة دون رضاها ولا محذور ، أو الإفراغ دائما عن القبل ، أم إتيانها دبرا كذلك مهما كان برضاها ودون محذور ، فانها تخرج بذلك عن كونها حرثا عن بكرتها.

ومن المحذور تعقيم الرجل أو المرأة بالوسائل المصطنعة وسواها ، إلا إذا لزم الأمر ترجيحاً للأهم على المهم.

فكما ان إتيان الذكور لواطاً لا يرمي لهدف صالح ، ولا يحقق غاية إنسانية ، كذلك إتيان النساء النساء ، والعادة السرية ككل ، وعلى الهامش منع التناسل بأية وسيلة كانت.

وهنا في ﴿أَتَاتُونَّ .. وَتَذَرُونَّ﴾ لمحة لأمعة لحرمة المذكورات على اختلاف دركاتهما ، فمبادلة ترك الزوجة بإتيان غيرها محذور ، مهما كان المذكور هنا اللواط لشدة المحذور.

وفي إهلاكهم لفعلتهم لمحة إلى عذابهم المستحق بها وهو القتل كما هو الثابت في باب الحدود ، وما كان جواهم عن ذلك التنديد الشديد القرين

بيان الحكمة إلا أن :

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ١٦٧.

إخراجا من قرية الدعوة بكل إحراج ، دون عودة إلا بانتهاء الدعوة : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (٢٧ : ٥٦) ، ويتبين هنا ان آل لوط . وهم لوط والمؤمنون به أقارب وأغارب . كانوا يشاركونه في الدعوة ، وكما لمحت لها ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ دون «مخرجا» تهديدا لاستئصال جذور الدعوة عن القرية بأصلها وفصلها ، ثم الجواب :

﴿قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ ١٦٨.

مقالة تظهر البراءة القاطعة عما كانوا يعملون ، أبراءة في القلب حيث هدّد بالإخرا؟ لو كانت هكذا لما ﴿قَالَ إِنِّي ..﴾! بل هي استمرارية لقالة النهي والتنديد ، ثم استنصار من الله تعالى :

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ١٦٩.

و «اهلي» هنا ليسوا هم . فقط . أقاربه وأنسبائه بل هم الآهلون للنجاة من المؤمنين معه ، أقارب وأغارب ، ولذلك لم يستثن عجزه في الغابرين! وليس ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٥١ : ٣٦) لتدل على أهلية النسب والسبب فحسب ، حيث الحالة الكارثة في القرية التي كانت تعمل الخبائث تقتضي جمعية المسلمين معه في بيت واحد وهم قلة قليلة ، ثم عجز البيت ما كانت من المسلمين.

﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ من مسئوليات وخلفيات ما ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أداء لواجب الدعوة دون تساهل وتغافل ، ونجاة من أن يمسوا أهلي بسوء ما يعملون ، فإنهم هارعون إليه دونما تمييز كما هرعوا إلى ضيفه المكرمين زعما منهم أنهم

غلمان ، ونجاة من ان يشملهم عذابهم بينهم

﴿فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ١٧٠.

«نجينا ..» من ثلوث العذاب ، وقد صرح بثالث ثلاثة وهو استئصالهم عن بكرتهم و

:

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ ١٧٢.

دليل على أن النجاة ليست فقط عن التدمير ، بل وعن كلما كان يخاف منهم ، و «عجوزا» هي امرأته المتخلفة عن شرعته وهده ، والغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه ، وكانت هذه العجوز ماکثة في كفرها بعد مضي ما معها من الدعوة الرسالية.

ف «الغابرين» هنا هم الماضون في كفرهم دون رجوع : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٢٧ : ٥٨) لأنها . رغم كونها امرأة لوط . كانت من الغابرين رغم ملاصقة الدعوة طيلة حياة الزوجية.

وترى كيف ﴿دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ وهم غير أهله أجمعين وفيهم نساء لسن يقترفن ما اقترف الرجال ، وأطفال من القبليين غير مكلفين؟.

النساء البريئات من هذه الوصمة ما كنّ البريئات من الإدمان على الشرك والتكذيب بالرسالة ، فليشملهن مطر العذاب ، وأما الأطفال فليس تدميرهم مع الكبار . إن دمروا . عذابا وكما سائر العذاب استئصالا وتدميرا ، الشاملة للمذنبين والبريئين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ١٧٣.

إنه مطر سوء وليس مطر الماء الخير ، لأنهم منذرون ومتصلبون على

الكفر : ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (١٥ : ٧٤).

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِيَّايَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ

يَوْمَ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

تأتي ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ في أربع هذه منها ، و «الأيكة» شجر ملتف ، وأصحاب
الأيكة نسبوا إليها وهي غيضة وريفة من الأشجار كانوا يسكنونها وهي بلدتهم ، ورسولهم
شعيب فيمن أرسله إليهم من أهل مدين وهم الأصلاء وهؤلاء فروع ف ﴿وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا﴾ (٧ : ٨٥) إذ كان منهم ، وهنا ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ دون «أخوهم» إذ لم يكن
منهم ^(١) وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة.

ولقد كانوا محسرين الناس ، يبخسونهم أشياءهم ، عاثين في الأرض إفسادا ، فلذلك
بزغت الدعوة الإصلاحية من صالح وفقا لحالتهم البئيسة كما هي سنة الرسالات المستمرة.
فهنا أوامر ونواهي ثلاث في ناحية هذه الدعوة المصلحة ، بعد ان طمأنهم برسالته
الأمينة :

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ١٨١.

فالكيل بين واف وطفيف وزائد ، إيفاءه واجب ، وطفيفه محرم ، وزائده راجح ، وهنا
أمر بواجب الإيفاء ونهي عن محرم التطفيف والإخسار ، ولأن

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤ : ١٦٣ وفي الحديث ان شعيبا أخا مدين أرسل إليهم وإلى اصحاب الأيكة.

الكيل يخص المكيل فامر ثان يخص الموزون :

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ١٨٢.

وهو الميزان أيا كان ، واستقامته هو اعتداله في الوزن ، وقد يكون القسطاس مستقيما والوزن غير مستقيم ، فليكن «المستقيم» وصفا لكلا الوزن والقسطاس ، ثم ونهي يخلق على كل إفساد وبخس كيلا أو وزنا أم أيا كان في المعاملات الجماعية الاقتصادية وثقافية وسياسية وأخلاقية أمأهيه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ١٨٣.

والبخس هو النقص ، و «أشياءهم» تعم كل أشياءهم في خمس النواميس وملحقاتها : نفسا ودينا وعقلا ومالا وعرضا ، فالبخس إياها محرم ، وتركها تخرم أيضا محرم ، ومحاولة التعاون في كمالتها راجحة أم واجبة ، فإفساد الكيل واعوجاج القسطاس وبخس أشياء الناس إفساد ، والعبث في الأرض إفسادا وهو السعي فيه إفساد على إفساد ، في أية ناحية من واجب الصلاح والإصلاح من النواميس الخمس.

فالإفساد الاقتصادي له دور هام بين سائر الإفساد ، ينهى عنه كما ينهى عنها في سائر الشرائع الإلهية ، إصلاحا للحالة المعيشية التي تلعب دورا عظيما في صالح الناس ، وإبعادهم عن شر النسناس الخناس.

وأخيرا يستجيش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم كما بدأ ، تذكيرا لهم بخالق الخلق أجمعين :

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٨٤.

«الجيل» هي الخليقة المجبولة المطبوعة بطابع الفطرة التي فطر الناس عليها ، فهي كالجل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، فمهما تحرك

من الإنسان أي من أشياءه عقلا وعلمًا وجسمًا ، فالفطرة الإنسانية ثابتة كحجة بالغة لا تزول.

فالمؤمنون من الأولين كانوا يتقون ، والمتخلفون منهم عن شرعة الله هم المتخلفون عن جبلتهم فلما ذا قفوا آثارهم ، فأنتم على آثارهم تهرعون؟! ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ١٨٦.

صيغة مطردة مكررة بين المكذبين برسالات الله ، كأنهم تواصلوا به! شيطنة مدروسة مدسوسة بينهم كشریطة تدار على أسمع الدعاء إلى الله.

ولا فحسب التكذيب ، بل والتحدي بأن يأتوا بعذاب الله إن كانوا صادقين :

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٨٨.

﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلست أنا ولا أنتم ، وهو أقدر أن يأتيكم بعذاب ، وما أنا إلا رسول لا أقترح على ربي أصل العذاب ولا كمّه ولا كيفه ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ (٤٦ : ٢٣).

فحتى إن لم يأتكم عذاب لم يدل ذلك على كذبي في رسالتي ، فانها رسالة وليست ألوهية تقتضي القدرة على إتيان العذاب ، ولا وكالة عن الرب أو نيابة تستدعي استجلاب العذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٨٩.

هنا عذاب يوم الظلة ولمدين الصيحة : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ

جاثين ﴿١١ : ٩٤﴾.

إذا فيوم الظلة هي غير يوم الصيحة كما أن اصحاب الأيكة هم غير أهل مدين مهما كانت الرسالة إليهم واحدة فما هي . إذا . الظلة؟.

يقال هي السحابة المظلة عليهم المظلة ، وهم يحسبونها مظلة حيث أخذهم حرّ خانق حانق يكتنم الأنفاس ويثقل الصدور ^(١) ، ثم تراءت لهم هذه السحابة الظلة فاستظلوا بها فوجدوا لها بردا ، فإذا هي تمطر عليهم نارا ، أم صاعقة مجلجلة تفزعهم فدمرتهم تدميرا ^(٢) ، وعلى أية حال ليس هنا في النص إلا ﴿يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ ولا بد انها ظلة سماوية كما ﴿نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ (٧ : ١٧١) ولكنها ظلة تدمير وذلة و ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ توحى بانه كان شعبة من عذاب الجحيم ^(٣).

ذلك شطر من قصص الرسل والمرسل إليهم ، السبعة ، وما واجهوهم من التكذيب ، وقبلها كلها ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وهنا في الختام :

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٤ عن تفسير القمي «عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» قال : يوم حر وكائم.

(٢) المصدر في «يَوْمِ الظُّلَّةِ» بلغنا والله اعلم انه أصابهم حرّ وهم في بيوتهم فخرجوا يلتمسون الروح من قبل السحابة التي بعث الله عز وجل فيها العذاب فلما غشيهم اخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثين وهم قوم شعيب.

(٣) في الدر المنثور ٥ : ٩٣ عن ابن عباس في تفسير يوم الظلة : أرسل الله عليهم سموما من جهنم فأطاف بهم سبعة ايام حتى أنضجهم الحر فحميت بيوتهم وغلت مياههم في الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلّتهم هارين والسموم معهم فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤسهم فتغشتهم حتى تقلقلت في جماجم وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم انشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا تحتها جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعبيا والذين آمنوا معه.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ هُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)﴾

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعُزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (٢١٣)
وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ
عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ
تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَى
مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ
(٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا
مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٩٢.

فقد يعني الضمير الغائب ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ : القرآن ، أم ويعني فيما يعني رسول القرآن ، و «تنزيل» بديلا عن «المنزل» علّه للتدليل على انه كله منزل منه تعالى كأنه هو التنزيل ، تنزيلا من عليا الربوبية إلى دنيا العبودية ، ومن عالي الغيب إلى ظاهرة الشهود للمربوبين ، فليس تنزيلا من مكان عل إلى مكان دان ، وانما من مكانة عالية إلى اخرى دانية ، دنوّ الخلق عن الخالق مهما كان قلب الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والناس كلهم فقراء إلى الله وهو الغني الحميد الكبير المتعال العلي العظيم والقاهر فوق عباده ، فرحماته رحمانية ورحيمية ليست إلّا تنزيلا من علوّ الربوبية إلى دنو العبودية. والتنزيل هنا تشمل مرحلتي : الإحكام في انزاله دفعيا ، والتفصيل في تنزيله تدريجيا ، وهو فيهما إحداث حديث الذكر ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ..﴾ وليس إبراز العلم الأزلي حتى يكون قديما كما الذات وصفات الذات.

وإضافة التنزيل إلى رب العالمين للتأشير إلى انه يحمل ربوبيته العالمية الكافلة لتربية العالمين إلى يوم الدين ، دونما نظرة وحي آخر يكمله أو ينسخه خلاف سائر الوحي. ليس القرآن تنزيل الروح القدسي الرسالي ، ولا الروح القدس على قلبه ، فهذا وسيط الوحي وذلك مهبطه ، وليس تنزيله إلّا من رب العالمين كما يراه صالحا للعالمين.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مُبِينٍ﴾ ١٩٥.

نزل بالوحي الأمين الروح الأمين إلى الرسول الأمين ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾

دون . فقط . سمعك ، فمنزل القرآن هو قلبه المكين : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢ : ٩٧). و «به» هنا هو القرآن المفصل المنزل نجوما ، دون المحكم النازل عليه ليلة القدر ، والسر النازل عليه ليلة المعراج ، إذ لم يكن هنا وهناك لوحيه أي وسيط : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦ : ١٠٢) ولا صلة لتثبيت المؤمنين إلا بما يسمعون منه من الوحي المفصل دون الأسرار المستسرة الخاصة بساحة الرسالة.

ودلالة اخرى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وليس القرآن المحكم بلسان عربي أو سواه ، فضلا عن «مبين».

فجبريل الروح الأمين القدس نزل بالروح القرآن المفصل على قلبه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ايضا الروح القدس الأمين ، فالنازل والمنزل والمنزل روح قدس أمين ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، وتراه كيف ﴿نَزَّلَ .. عَلَى قَلْبِكَ﴾ والقرآن المفصل بما يحمل من ألفاظ تسمع لا بد لمنزله من أذن أو سمع؟ فهل انه نزول المعنى دون لفظ كيلا يحتاج إلى أذن؟ والقرآن يعني كلا اللفظ والمعنى ، فالمعنى دون لفظ لا يقرء وإنما يلهم ، وليس الملهم قرآنا ينزل حيث القراءة تخص اللفظ! : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾. فنازل الوحي إلى قلبه أعم من القرآن حيث يعم محكمه الذي لا يقرء ومفصله الذي يقرء.

أجل وللقلب سمع هو أسمع من سمع الأذن كما له بصر ، وليس سمع الأذن إلا ذريعة لسمع القلب كما بصر العين ذريعة لبصر القلب ، وللقلب ان يسمع أو يبصر دون وسيط كما ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ دوغما وسيط.

وكيف لا و «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» فالقلب إمام الأئمة فكيف لا يؤم به الحس وهو . فقط . مأموم غير إمام! وكيف لا؟ ومن لزامات الوحي ألا يسمعه إلا من يوحى إليه ، فلو كان يحمل ألفاظا صوتية . وبطبيعة الحال جاهرة حتى يسمع . لكان يسمعه غير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد كان يوحى اليه بمراى ومسمع من الناس ، فهو يسمع وهم لا يسمعون ، وإنما يرون كأنه يغشى عليه من وطأة الوحي! وكان ينفث في روعه قرآنا وسواه من وحي^(١).

فلا يسمع إلى قول القائل إن النازل إلى قلبه هو المعنى . فقط . والألفاظ هي من صياغته ف ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ..﴾ (٧٥ : ١٨)! واسخف منه ان القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الملقاة من روحه الأمين إلى قلبه المكين ، إذ ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ (١١ : ٤٩) فانما ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ..﴾ وهو ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهل أصبحت روحه الأمين رب العالمين حتى ينزل القرآن على قلبه؟!.

ليس النص «قرأه الروح الأمين عليك» ام «نزل به عليك» حتى يحتمل قراءته على سمعه وانما ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ وهو عمق الروح حيث تتفأد بنور الوحي ، ولا بد للقلب من نورانية تامة طامة استعدادا لنزول الوحي القمة الأخيرة ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ :

﴿نَزَلَ .. لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ فالمنزل هو القرآن

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٤ . اخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

العربي المبين ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ والغاية من ذلك الإنزال ان تكون من المنذرين ، ولك اختصاص أن إنذارك ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أبين من سائر كتابات الوحي عربية وسواها ، لو كان هناك قبل القرآن كتاب وحي عربي! ، و «عربي» هو الواضح المعرب عن معناه ، و «مبين» : يبين الألسن ولا تبينه الألسن»^(١).

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٩٦.

هل «انه» : القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾؟ كما و ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (٨٧ : ١٩)؟ إذا فالقرآن نسخة عربية عن العهدين ، وليس وحيا يستقل عن زبر الأولين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٢).

ولا يعقل ان محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) . وهو اعقل العقلاء . يدعي كذبا انه يستقل في وحي القرآن ليستغله في شرعة مبتدعة جديدة يدعيها أفضل مما قبلها ، ثم يصرح ان القرآن نسخة عربية عن العهدين ، هدمما لما بناه وهدرا لما تبناه ، لتطول ألسنة علماء العهدين الناقمين

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٥ في اصول الكافي علي بن محمد عن صالح بن أبي حماد عن الجمال عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام قال سألته عن قول الله عز وجل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ قال : ...
(٢) كتاب الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمر يكن بمصر سنة ١٨٩٨ ص ٤ ج ٢ وكتاب «القرآن والكتاب» للاستاذ حداد البيروني تحت عنوان : هل بين القرآن والعهدين اتصال ونسب؟ قائلا : هنالك تصاريح من القرآن ان بينه وبين العهدين اتصال ونسب حيث : التوراة إمامه وهو في زبر الأولين وهو تفصيل وتعريب للكتاب المقدس وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وهم علماء أهل الكتاب ويجب ان يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب وأهله وإذا شك فيه فليسأل أهل الكتاب ليعلموه! ثم يحتج لكل بآية أو آيات على حدّ زعمه نأتي عليها بجواباتها بطيات آياتها وكما فصلناها في كتابنا «المقارنات».

عليه ، ودون ان يأتي بشيء جديد للمشركين!
ثم واقع الحال في العهدين ، المتوفرة فيهما التناقضات والمضادات للواقع وبين آياتهما ،
دون القرآن الذي لا اختلاف فيه ، ثم اختلاف المواضع بينه وبينهما تكميلا لنقص أو نقضا
لباطل ، وحتى في العرض القصصي ، ذلك الواقع المتهافت بينهما وبين القرآن يبطل فرية انه
نسخة عربية عن العهدين.

ثم المشركون الموجهة إليهم . في الأصل . هذه التوجيهات ، لم يكونوا ليؤمنوا بالأصل
المزعوم للقرآن فضلا عن الفرع القرآن! فكيف يقول لهم ولماذا؟ إنه نسخة عربية عن العهدين.
وكذلك الكتايبون حيث يعترضون : فإذا لست على شيء جديد ، فلتكن لنا تبعا
وكيف ترجوا أن تتبعك؟.

ثم وكيف يصرح أولا : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ
..﴾ ثم يناقضه ب ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ إذا فلم يوح اليه ، إلا إلى الأولين وهو راسم
رسمهم في هذا القرآن.

ثم ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٩٧ عطفًا على ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ
الْأَوَّلِينَ﴾ يعني دليلا ثانيا على استقلال وحي القرآن عما أوحى إلى الأولين ، ولو كان علما
لهم انه نسخة عربية لزبر الأولين لكان هدمًا لبرهان القرآن امام الكتايبين والمشركين بما
﴿يَعْلَمُهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾!

أم «انه» : القرآن بشارة له بوحيه بلسان عربي مبين ، ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وكذلك
رسول القرآن؟ وهذان واقعان لا مرد لهما مهما حرفت عن جهات اشراعها.

فبالنسبة لبشرى القرآن : ﴿... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَأِنَّكُمْ
لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ... الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ

الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴿٦ : ٢٠﴾ ، وكما جاء في كتاب اشعيا نبأ هذا الوحي العربي وإليكم الأصل العبراني نصا (٢٨ : ٩ - ١٤) :

«ات مي يوره دعاه وات مي يا بين شموعاه غكمولي محالاب عتيمي مشاداييم كي صولا صاو صولا صاو قولوا قوا قولوا قوا زعير شام زعير شام ١٠ كي بلعجي شافاه وبلاشون أحرث يدبر إل هاعام هذه ١١ آشر آمر إليهم زئت همنوحاه هانيحو لعاييف وزئت همرجعاه ولا آبوء شموع ١٢ وهاياه لاهم دبر يهواه صولا صاو صولا صاو قولوا قوا قولوا قوا زعير شام زعير شام لمعن يلخوا وخاشلوا آحور ونشبار ونقشوا ونلكادوا ١٣ لآخن شمعوا دبر يهواه أنشي لا صون مشلي هاعام هذه آشر ييرو شالام» ١٤ :

«لمن ترى يعلم العلم ولمن يفقه في الخطاب أَللمفطومين عن الدين للمفصولين عن الثدي ٩ لأنه أمر على أمر على فرض على فرض على فرض هنا قليل وهناك قليل ١٠ لأنه بلهجة لکناء بشفاه عجمية وبلسان غير لسانهم «العبراني» يعني «العربي» يكلم هذا الشعب ١١ الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرأح وهذه هي الرفاهية فأبوا ان يسمعوا ١٢ لذلك سيكون كلام الرب لهم امرا على امر أمرا على أمر. فرضا على فرض ثم فرضا على فرض هنا قليلا وهناك قليلا. لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الورا فيحطّموا ويصطادوا فيؤخذوا ١٣ لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ولآة هذا الشعب الذي في أورشليم» ١٤ ^(١).

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٤ . اخرج ابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : كان نفر من قريش من أهل مكة قدموا على قوم من يهود بني قريظة لبعض حوائجهم فوجدوهم يقرؤون التوراة فقال القرشيون ماذا نلقى ممن يقرأ توراةكم هذه لهؤلاء أشد علينا من محمد وأصحابه فقال اليهود : نحن من أولئك براء أولئك يكذبون على التوراة وما انزل الله في .

فهذه الآيات البينات بشارة جميلة للقرآن ونبيه انه يكلم هذا الشعب الاسرائيلي بغير لغتهم «كي بلعجي شافاه» بلسان اعجمي . غير لسانهم ... ، ثم وبالنسبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عشرات من البشارات سجلناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ويقول عنه القرآن : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢ : ١٤٦).

فالقرآن بنبيه والمواصفات القرآنية والرسالية المحمدية ﴿لَفِي زُبرِ الْأَوَّلِينَ﴾ على تحرفها^(١) : ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ..﴾ (٧ : ١٥٧).
﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٩٧.

الواو هنا عطف على آية القرآن نفسه وفيه الكفاية عن آية آية ، ثم آية ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبرِ الْأَوَّلِينَ﴾ لا فحسب للكتابين بل وكذلك للمشركين ، حيث البشارة به فيها ملحمة غيبية تدل على انه من غيب الوحي على الرسول الأمين.

فان لم يكن لهم . كتابيين ومشركين . آية بنفسه وببشاراته في زبر الأولين ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الأحرار ، غير المحرفين الكلم عن مواضعه ، إذ لم ينسوا حضا عما ذكروا به.

أم وكل علماء بني إسرائيل قبل نزول القرآن مهما كفر به بعضهم إذ

. الكتب إنما أرادوا عرض الدنيا فقال القرشيون فإذا لقيتموهم فسودوا وجوههم وقال المنافقون ما يعلمه إلا بشر مثله وأنزل الله : وانه لتنزيل رب العالمين . الى قوله . : وانه لفى زبر الأولين يعني النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصفته ونعته.

(١) راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص ١٠٨ - ١١٠.

نسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٢ : ٨٩) : بنيا القرآن ورسوله الآتي ، فقد كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون ان زمانه قد أظلمهم ، وأيامه قد أطلتهم ، يحدث بعضهم به بعضا ويتحدثون على المشركين مستفتحين بذلك الفتح المبين!.

إنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ لا يثير قوميتهم ، و ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ..﴾ يعلمه علماء بني إسرائيل ، فقد تمت عليهم الحجة وطمت المحجة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٩٩ .

«لو» هنا تحيل تنزيله على بعض الأعجمين ، أعربيا ينزل على أعجمي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (١٤ : ٤) واختلاف لغة النازل عن لغة الرسول عرقلة في الدعوة ، ونقص في الدعاية ، ومثار للنكابة ، فعذر للمعنيين بالدعوة الرسالية. أم أعجميا على أعجمي؟ وهو نقص في اللغة حيث العربية قمة بين اللغات والوحي الأخير قمة بين سائر الوحي ، فليكن بلسان عربي مبين.

ثم والعرب الألداء وهم مبتداء الدعوة ومنطلقها ما كانوا ليؤمنوا به ، فليكن عربيا منزلا على عربي.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ عربيا أو أعجميا ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ أصلا أو ترجمانا ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ حيث النخوة العربية وقوميتها المتعركة فيهم كانت تصدهم عن ان يؤمنوا به : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾

(٤١ : ٤٤) ^(١).

اجل و «لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزل على العرب فأمنت به العجم فهذه فضيلة العجم» ^(٢).

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٠٢.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ. وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (١٥ : ١٠ . ١٤) «كذلك» القويم القويم «نسلكه» : القرآن . إنفاذا ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قطعا لكافة الأعداء القومية والاقليمية واختلاف اللغة أماهيه ، وسردا لكافة البراهين القاطعة لوعي القرآن داخلية وخارجية ، ولكنه ليس لينسلك في هذه القلوب المقلوبة ف ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ تخيرا منهم رغم بارعة الحجج إلا عند رؤية البأس : ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. و «كذلك» البعيد البعيد «نسلكه» : عدم الايمان بالقرآن رغم ناصع البرهان ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ طبعاً عليها وختما : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ^(٣).

(١) راجع تفصيل البحث عن الآية إلى سورتها.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٥ في تفسير القمي في الآية قال الصادق (عليه السلام) : ...

(٣) فهنا مراجع لضمير الغائب في نسلكه : قرأنا وتكذبا به وإيمانا به ، والأولان صالحان معنويا والأخير لا يصلح كما بيناه.

وهذا السلك هو من مخلفات السلك الأول المواجه بالتكذيب جزاء وفاقا ، ومن مخلفات السلك الثاني : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ هنا في الرجعة أو قبلها ، ام في البرزخ والأخرى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا ... فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٠ : ٨٥) ، فلا تعني ﴿كَذَلِكَ نَسُكُّهُمْ﴾ سلك الايمان فان الله ليس ليحمل المكذبين على الايمان ، ولو حمل على ايمان فكيف ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ .. ؟﴾ : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (١٠ : ٩٩).

«فيأتيهم» ذلك العذاب الأليم «بغته» دون إخبار ولا إمهال ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به و «لا يشعرون» الايمان بالقرآن.

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ٢٠٣.

إنظارا لكي تؤمن به ، ولات حين مناص ، وقد فات زمن الخلاص.

﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ٢٠٤.

فلقد كانوا يستعجلون بعذاب الله الموعود للمكذبين تحديا على النبيين ، استهتارا واغترارا بما لهم من متع الحياة الدنيا ، وهم بذلك الاستعجال العضال يكذبون خاطر النبي الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ ٢٠٧.

فقد «رؤي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كأنه متحير فسأله عن ذلك فقال : ولم؟ ورأيت عدوي يلون أمر امتي من بعدي فنزلت : «أفرأيت ...»^(١).

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٥ . اخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال رؤي ...

فلقد كان يغمّه متاعهم خوفاً على شرعته وأمته ، إمرة لمن لا يؤمن ولا يؤمن^(١) على المسلمين ، فطمأنه ربّه أن أيديهم قاصرة عن القضاء على شرعة الله ، مهما كانت طائلة في متع الحياة الدنيا ، فان للحق دولة وللباطل جولة ، وسوف تنزل كل المتع عن الكفار في دولة القائم المهدي (عج)^(٢).

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ٢٠٩.

«منذرون» هنا تأشير إلى تواتر الإنذار بحق المهلكين «ذكرى» لهم عن غفوتهم فطريا وعقليا ، فان مواد الهدى مرتكزة في الفطر والعقول ، ولا يعني بعث الرسول كأصل إلا «ذكرى» لمن استغفلوا عن دلائل الايمان ، ايقاظا لأصول الهدى ، ثم الفروع تبناها واردة على قضايا الفطر والعقول.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في ذلك الإهلاك ، و «كنّا» هنا تستأصل أصل

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٥ في الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال أري رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في منامه بني امية يصعدون على منبره من بعده ويضلون الناس عن الصراط القهقري ، فأصبح كئيبا حزينا قال : يا جبرئيل إني رأيت بني امية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقري فقال : والذي بعثك بالحق نبيا إني ما اطلعت عليه فخرج إلى السماء فلم يلبث ان نزل عليه بآي من القرآن يونس بما قال : ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ...﴾ وانزل عليه : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ جعل الله ليلة القدر لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) خيرا من الف شهر ملك بني امية.

(٢) تفسير البرهان ٣ : ١٨٩ محمد بن العباس بسند متصل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : خروج القائم (عليه السلام) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ﴾ قال : هم بنو امية الذين متعوا في دنياهم.

كينونة الظلم في الله سبحانه وتعالى ، إذ لا دافع له إليه ، ولو كان لم يظلم لأنه عدل حكيم ، وانما يحتاج إلى الظلم الضعيف ، خوفاً من القوي أن يغلبه ، أو يساميه في القوة ، وكل ذلك مسلوب عن ساحة قدسه سبحانه.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ٢١١ إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ ٢١٢.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ عن الملا الأعلى ، رداً على المتطاولين على الذكر الحكيم انه ﴿تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ﴾ برهان القرآن نفسه انه ليس نازلاً إلا بعلم الله ، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ : الشياطين أن ينزلوا به ، والابتغاء هو قبول البغي الطلب ، فحتى لو طلب من الشياطين ان ينزلوا بالقرآن ﴿مَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ قبولاً لذلك الطلب ، فان قلوبهم مقلوبة عن الهدى مملوءة من الردى ، فأنى لهم ان يحملوا بتلك القلوب المظلمة وحي القرآن؟.

ثم ﴿وَمَا يَسْتَظِيلُونَ﴾ لو حاولوا في قبول ذلك التنزيل ، ان يقبلوه ، ل ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ : ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُخُوراً لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ...﴾ (٣٧ : ٩).

فإذا كانوا عن السمع معزولين فلا يسمعون مهما تسمعوا ، فكيف يحملون الوحي . بقلوبهم المقلوبة . إلى قلوب النبيين؟.

وحتى لو ساغ لهم سمعه وحمله بقلوبهم ف ﴿مَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ سماحاً لذلك الحمل العظيم لأنهم غير مأمونين ، إذ يخلطون الحق بباطل يهوونه ، رغم خالص الوحي الذي يحونه! إذ ﴿مَا يَسْتَظِيلُونَ﴾ حمله خالصاً وأداء كما حملوه قضية غلبة الشقوة عليهم ل ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ للحق الناصح «لمعزولون» ومن الشروط الأصلية للتنزل بالوحي سمعه في قرارة نفس

الوسيط.

فلو تنزلت به الشياطين على ذلك النبي الأمين وهو يلعنهم ليل نهار ، لكان أخرى ان تنزل به على أولياءهم نقضا لما يدعيه من وحي الرحمن ، وكيف تصبح الشياطين بهذه القدرة الخارقة أرحم بعدوهم من أولياءهم وأنعم ، وهم يحاولون دائبا نقض الوحي ونقصه ، تعبيدا لطرق الشيطانات.

ف ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بارزة كالشمس في رابعة النهار إذ ما تنزلوا به على أولياءهم ، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ ظاهرة كالنار على المنار ، فلو لم يكونوا معزولين لأتوا بمثله وأخرى لأوليائهم ، فلا يرد أن ذلك البرهان دور مصرح ، حيث التصديق ب «لا يستطيعون . و . معزولون» منوط بتصديق القرآن انه وحي الرحمن ، كما ان هذا التصديق منوط ب «لا يستطيعون . و . معزولون»؟ حيث الانعزال وعدم الاستطاعة باهر واقعا إذ لم يأتوا بمثله إلى أولياءهم مهما حاولوا واحتالوا! إذا :

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ ٢١٣.

ولماذا تدعو مع الله إلها آخر وهو حسبك الكافي ونعم الوكيل؟ وذلك النهي الصارم ليس صدا عن اقترافه اشراكا بالله ، واعترافه بغير الله ، وانما هو استئصال لآمال المشركين ان يركن إليهم ويميل بغية ايمانهم ، ام تقليلا لثورة كفرهم.

ثم ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ تنبيهة عالية للمؤمنين أن الداعي مع الله إلها آخر يعذب ولو كان هو الرسول العظيم ، فضلا عمن دونه من المؤمنين!

والقول إن التكليف لا يعني في نفيه وإثباته إلا نفي النقص الحاصل واثبات الكمال غير الحاصل ، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالغ ذروة الكمال فكيف ينهى عن الشرك ويؤمر بلزومات الايمان والرسالة.

إنه مردود بان العصمة لا تنافي الإختيار ، ولا حد . كذلك . للكمال ، وان تكليف السلب والإيجاب لا يلزم اقتراف المنهي عنه وترك المأمور به ، بل هو كأصل إعلام بحكم الله ، وإعلان للأمة بمرادات الله ، وان الرسول يحمله كرسول إلى الأمة بعد ما يحمله كمكلف من سائر المكلفين .

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ٢١٤ .

وهنا انتقله في النذارة من نفس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى عشيرته الأقربين ، ومن ثم إلى سواهم وإلى العالمين أجمعين ، وهي طبيعة الحال في الدعوة الصالحة الرسالية ، أن يبدأ الرسول بنفسه وذويه الأقارب ، ثم الأغارب ، حيث الأقربين هم الحملة الأولى للرسالة بعد الرسول ، وفي تركهم إلى سواهم حجة على الرسول : كيف ترك ذويه واتجه إلى سواهم ، ويكأن في دعوته غضاظة لا يقبلها ذووه! وهم اعرف به وبدعوته فلو كان حقا لما تركوه ، وليعلم العشيرة الأقربون أنه لا تنفعهم قرابتهم منه شيئا إلا بالايان . فلما نزلت هذه الآية بكى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم جمع اهله فقال : يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ثم التفت إلى فاطمة فقال : يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنكم من الله غير أن لكم رحما سأبلها بيلالها»^(١) .

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٦ . اخرج ابن مردويه عن انس قال لما نزلت : وانذر عشيرتك الأقربين بكى ... وفيه ٩٧ . اخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي (عليه السلام) قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وانذر عشيرتك الأقربين ، دعاني رسول الله .

وقد يؤشر ذلك الأمر الإمر انه كان في بداية الدعوة ولما يتسع نطاقها ، كما ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥ : ٩٤) فانتفض لتحقيق الأمر فنفض يده من أمرهم ووكلهم إلى الله ، وبين لهم مرارا وتكرارا ان قرابتهم له لا تنفعهم ولا تغني عنهم من الله شيئا ، كيف ولا تنفعه رسالته لو

. (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا علي ! إن الله أمرني ان انذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت أنني مهما أبادئهم بهذا الأمر أرى منهم ما اكروه فصممت عليها حتى جاء جبرئيل فقال يا محمد انك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فاصنع لي صاعا من طعام واجعل عليه رجل شاة واجعل لنا عسا من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وابلغ ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب وحزمة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعته تناول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بضعة من اللحم فشققها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال : كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نملوا عنه ما نرى إلا آثار أصابعهم والله أن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم ، ثم قال اسق القوم يا علي فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعا وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يكلمهم بדרه أبو لهب إلى الكلام فقال : لقد سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما كان الغد قال يا علي ان هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان أكلمهم فعدلنا بمثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقررت ففعلت كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا حتى نملوا ثم تكلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أحدا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله ان أدعوكم اليه فأياكم يوازيني على امري هذا؟ فقلت : . وانا أحدثهم سنا . انا فقام القوم يضحكون.

أقول وقد أخرج القصة باختلافات يسيرة مع الحفاظ على أصلها جم غفير من المحدثين (راجع الدر المنثور وجامع البيان ونور الثقلين والبرهان وبحار الأنوار).

لم يَأْتِ أمر ربه وهو في القمة المرموقة!

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢١٥.

خفض الجناح هو ابلغ اللين والرفق والضعفة والحنان ، تصورا عن الطائر إذ يخفض جناحه إذ يهبط ، ويخفضه حين يحتضن أفراده ، وكذلك يؤمر الرسول حين يهبط عن سماء الوحي برسالة الأرض والسماء ، ان يخفض جناح الرحمة لأفراده المؤمنين به ، من أقارب وأغارب ، دونما مماراة أو مماشاة مع المكذبين الأقارب ، أم طرد للمؤمنين الأغارب ، أم ترجيحاً بين من آمن للأقارب ، وانما ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما الطائر لا يطير عن أفراده ولا يغيب في الحالات الحرجة ، كذلك أنت يا ايها الطائر القدسي الرسالي دم على أفراده المؤمنين : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (١٥ : ٨٩) وقد كان خافض الجناح لهم على ما كان من بعضهم من جفاوة ، فلا يواجههم . إذا . إلا بكل حنان وحفاوة ، بل وبالنسبة لغير المؤمنين ايضا علّهم يؤمنون.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢١٦.

وترى ضمير الجمع في «عصوك» راجع إلى الكفار فقط؟ وهم أبعد مرجعاً والبراءة لا تخص عمل الكافر ، بل والأصل فيها كفره في قلبه حيث يخلف تخلفه في عمله! أم هو راجع إلى ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على قريها مرجعاً؟ وكيف يواجه الرسول المؤمن الفاسق بتلك البرائة ومن شروط النهي عن المنكر لين الكلام بالحكمة والموعظة الحسنة. علّه راجع إليهما ، والبراءة . إذا . يخص ما يعملون ، إذ لا براءة من المؤمن نفسه إن كان فاسقاً.

أم ان «ما تعملون» هي نفسه «ان عصوك» والعصيان يعم الجوانح

إلى الجوارح ، بل وعيان الجوارح هو من مخلفات عصيان الجوانح ، إن كفرا فأعمال كافرة ، وإن فسقا ففاسقة ، ف ﴿مَّا تَعْمَلُونَ﴾ في الكافر يعم قلبه وقالبه ، وفي المؤمن الفاسق عمله إلى تخلفه في قلبه أو نيته.

ثم «إني بريء» في مواجهة الكافر تختلف عنها أمام المؤمن ، والبراءة من العصيان هي قضية الرسالة ، والمجاهرة بها هي من أخريات المطاف في النهي عن المنكر ، وقد تلمح الآيات التالية أن المحور هنا في «ان عصوك» هم الكفار وعلى هامشهم عصاة المؤمنين.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٢١٧ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٢٢٠.

و ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ تلحيقه مكرورة طوال السورة في عرض الايمان والكفر ، ف «العزیز» أمام الكافرين و «الرحيم» أمام المؤمنين ، ف «توكل» في كل المجالات الرسالية ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ولا يهتمك بعد ماذا يحصل بعد ان تطبق أمر الله في دعوتك فانه : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في صلاتك وفي الدعوة الرسالية ^(١). «يراك» بعين العلم والقدرة والعناية فلا تغفلت عن رؤيته ، إذ لا يلتفت عن رعايتك.

﴿يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ منذ كنت في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة ، وحتى رسالتك وإلى ارتحالك إلى رحمة ربك ^(٢) فهل ترى ان

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٩ القمي حدثني محمد بن الوليد عن محمد بن الفرات عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية : الذي يراك حين تقوم «في النبوة» ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال : في أصلاب النبيين.

(٢) المصدر. روى جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و في الدر المنثور ٥ : ٩٨ . اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال سألت .

الله يتغافل عمن تكون حياته قياما لدينه ، وتقلبه فيها سجودا ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ .
وقد يعني ﴿تَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ إلى ما عناه ، أنه كان يرى في صلاته من خلفه
كما يرى من بين يديه ، تقلب العلم والرؤية للساجدين وهو في الساجدين ، وكما يروى عنه
(صلى الله عليه وآله وسلم): «لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فاني أراكم من خلفي كما أراكم
من أمامي ثم تلا هذه الآية» (١).

. رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت بابي أنت وامي اني كنت وآدم في الجنة؟ فتيسم حتى بدت نواجزه
ثم قال : اني كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وانا في صلبه ، وركبت السفينة في صلب أبي نوح وقذفت في النار
في صلب أبي ابراهيم لم يلتق ابواي قط على سفاح لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة
مصقّي مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما قد أخذ الله بالنبوة ميثاقي وبالإسلام هدائي وبين التوراة
والإنجيل ذكرى وبين كل شيء في شرق الأرض وغربها وعلمني كتابه ورقى بي في سمائه وشق لي من أسمائه فذّ
والعرش محمود وانا محمد ووعدني ان يحبوني بالحوض وأعطاني الكوثر وانا أول شافع وأول مشفع ثم اخرجني في
خير قرون امتي وامتّي الحمادون يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر . ورواه في البرهان ٣ : ١٩٢ عن ابن بابويه
عن جابر قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. مثله وروى بطرق كثيرة . وفي تفسير البرهان ٣ :
١٩٢ القمي قال حدثني محمد بن الوليد ممن محمد بن الفرات عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : الذي يراك
حين تقوم وتقلبك في الساجدين قال : في أصلاب النبيين .

(١) المصدر . اخرج مالك وسعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) هل ترون قبلي ها هنا فو الله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم واني لأراكم من وراء
ظهري وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قام إلى
الصلاة رأى من خلفه كما يرى من بين يديه وأخرجه مثله عن مجاهد .

أم وكل تقلباته وتحولاته الحيوية في الساجدين وهم كل المؤمنين معه ، والآية تتحمل
مربعة المعاني أدبيا ومعنويا.

﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ ۚ ٢٢١ تَنْزِلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ ۚ ٢٢٢ يُلْقُونَ
السَّمْعَ وَآكُثْرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ ٢٢٣.

أجل إن الشياطين لا تنزل إلا على الشياطين وهم كل آفاك أثيم ، دون المؤمنين
الصادقين ، ولا سيما المخلصين : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ﴾ (٣٨ : ٨٣).

والإفاك هو قلب الخبر إلى غير واقعة ، فالآفاك هو المقلب ، والأثيم هو الفعال لكل
اثم وقبيح ذميم.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ تسمعا واستراقا دون سماع صادق مسموح ، فلذلك : ﴿وَآكُثْرُهُمْ
كَاذِبُونَ﴾ فيما ينقلون عن الملا الأعلى.

ولأن «السمع» تعم المصدر والمفعول ، فمصدره يعني إلقاء التسميع إلى الملا الأعلى ،
ومفعوله يعني إلقاء ما سمعوه منه إلى شياطينهم ، ﴿وَآكُثْرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ في تسميعهم وإسماعهم
، وقد يعني يلقون . الى ما عناه . ﴿كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ﴾ . ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ إلى هؤلاء الشياطين
دونما تثبت فيما يسمعون ﴿وَآكُثْرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فيما ينقلون ، وحتى القليل الصادقين في
سميعهم إنما ينقلون ما يسمعون من الكذب ، ونقل الكذب كذب مهما كان صدقا في النقل.
وفي صيغة «يلقون» لحة باهرة أنهم كانوا يسمعون بسميعهم دون أنفسهم بعقولهم
وقلوبهم ، ففي إلقاءهم سمعهم إلغاءه بانقطاع صلته عن نفوسهم ، ولا سيما ﴿كُلِّ آفَاكٍ
أَثِيمٍ﴾ يحولون أسماعهم إلى الشياطين بغير حساب ، ومثله كـ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ . «إذ
تلقون بألسنتكم» عناية إلى

إلغاء الألسنة والأسماع عن الرباط بالعقول والأفكار ، يقول ويسمع دون تعقل وتفكير .
 وإذا كان ﴿أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يعني كلا الملقين والملقى إليهم ، سقط القول : كيف
 ﴿أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ والشياطين كلهم كاذبون فيما يقولون أو ينقلون ، مهما خلطوا صدقا إلى
 كذبهم؟ حيث الأكثر يعني الملقى إليهم فيما ينقلون.

ولأننا لا نجد إفكا ولا إثما في هذا النبي الكريم ، ولا كذبا في قرآنه العظيم ، فليس إذا
 مما تنزل به الشياطين ، فصدق القرآن بوحية الأمين ، هو من القضايا التي قياساتها معها دون
 حاجة إلى برهان آخر ، بل هو البرهان لكل برهان ، والشاهد لكل حق.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ٢٢٤.

جواب آخر عن فرية أخرى أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ
 الْمُنُونِ﴾ (٥٢ : ٣٠) يخيل بشعره إلى الناس كل ما يقوله كأنه حق يوحى إليه ، حيث
 الشعر باب من السحر.

وترى من هم الشعراء؟ وما هو الشعر؟

الشعر لغويا من الشَّعر : الدقة واللطافة في الإدراك ، ويقال لما يقابل النثر حيث يجمع
 إلى لطائف المعاني وحقائقها لطائف الأوزان ودقائقها ، وقد يضل المعنى الحق بين الأمرين
 فيضل ، ويقال لكل واحد ايضا شعر ، معنى دقيق دون وزن الشعر ، وزن الشعر دون معنى
 دقيق ، والجامع للأمرين هو الشعر المطلق وأحدهما مطلق الشعر.

«والشعراء» من النوع الأول هم غاؤون و ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ حيث يذهبون في أقوالهم المذاهب المختلفة ، ويسلكون الطرق المتشعبة ، يهبون مع كل ربح ، ويطيرون بكل جناح ، فيرتكبون أي جناح ، تابعين لكل قائد ، ومجبيين لكل ناعق ، سلسوا القياد لمن يجرّهم ، متصرفين في وجوه الكلام من مدح وذم واستزادة وعتب وغزل ونسيب ورثاء وتشبيب ، أودية متشعبة وسبل مختلفة في الشعر فيها يهيمون :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ٢٢٦.

الهيمن هو الذهاب على وجه الاسترسال دونما حساب ، كما وهيمن الحب هو المسترسل ، منه فوصفهم بالهيمن فرط مبالغة في صفتهم بالذهاب في أقطارها ، والإبعاد في غاياتها ، والهيمن صفة من صفات من لا مسكة له ولا رجاحة معه ، فهي مخالفة لصفات ذي الحلم الرزين ، والعقل الرصين. ومن طبيعة الشعراء استرسال القول دون حساب في كل الوديان ، «وفي كل مذهب يذهبون» ^(١) ، وفق الانفعالات المسيطرة عليهم تحت وقع الدوافع الأحيانية والمؤثرات المصحلية الآنية.

يهيمون في كل الوديان حقا وباطلا ، ويتلونون بكل الألوان حسب المصلحيات الوقتية ، والشهوات الأصلية والجانبية ، فلذلك ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أمثالهم ، ثم : ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ نفاقا عارما بين أقوالهم المفرطة والمفرطة ، وبين أفعالهم ، إذ

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٢ القمي في قوله جل ذكره : «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ» يعني : يناظرون بالأباطيل ويجادلون بالحجج المضلين وفي كل مذهب يذهبون وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ قال : ...

يعيشون في عالم من الخيالات والشهوات ، فيؤثرونها على واقع الحياة والواقعيات ، فيلقون القول مسترسلين دونما ضابطة أو رابطة إلا ما تهاوهم أنفسهم «يعطون الناس ولا يتعطون ، وينهون عن المنكر ولا ينتهون ، ويأمرون بالمعروف ولا يعملون» (٥٢).

طبيعة الإسلام وهي الواقعية المطلقة والحقيقية المرسلة لا تلائمها طبيعة الشعراء الخياليين الهائمين في كل واد ، حيث الإسلام يحرض على تصديق الحقائق وتحقيقها ، دون تحرب منها إلى وهميات ، وليست معارضة الإسلام للشعر والشعراء إلا في هذين البعدين البعدين عن الواقعية المطلوبة : ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وهما من خلفيات عدم الايمان وعدم الثبات على خط الحق والواقع المصاب.

واما الشعر المستقر على الحق ، المتبني إبطال الباطل وتحقيق الحق النابع عن الإيمان ، البعيد عن التخيلات والوهميات وعن كل تفريط وإفراط ، فلا يعارضه الإسلام بل ويحرض عليه.

فكما يقول الرسول عن الشعر : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خيرا له من ان يمتلئ شعرا»^(١) ، كذلك هو يقول جوابا عن : ماذا تقول في الشعراء؟ : ان المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٩ . اخرج ابن أبي شيبة واحمد عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

ينضخونهم بالنبل» ^(١) وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) لحسان بن ثابت أهج المشركين فإن جبريل معك» ^(٢) وقال : «ان من الشعر حكمة» ^(٣)

وكما الله يقول : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ٢٢٧.

مواصفات اربع تستثني من الشعراء ، الموصوفين بها ، وهي الايمان وعمل الصالحات وذكر الله كثيرا والانتصار من بعد الظلم ، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلوا آية الاستثناء على أصحابها ^(٤).

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٠ المجمع عن الزهري قال حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك ان كعب قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ماذا تقول في الشعراء؟ ...

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٠٠ . اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

(٣) المصدر اخرج ابن سعد وابن أبي شيبه عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه اخرج عن ابن أبي شيبه عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان من الشعر حكما وان من البيان سحرا.

(٤) الدر المنثور اخرج عن أبي حسن سالم البراد قال : لما نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ...﴾ جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وهم ييكون فقالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقد انزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء أهلكننا؟ فانزل الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ فدعاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتلاها عليهم ، وفيه اخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأوب يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك انه قال للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله قد انزل في الشعر ما انزل فكيف ترى فيه؟ فقال : ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما بوجههم مثل نفج النبل.

هنا ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يعني في شعر وسواه ليذهب بفضاضته ، كما ﴿وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾ تجعل الشعر ذريعة للانتصار لمن ظلم ، ولا تخص «ظلموا» ظلما شخصيا بالشاعر ، أم وبمن يحبه واكثر من نفسه كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن يحذو محذاه ، أو وبأحرى أحب من كل محبوب وهو الله ، هتكا لساحة الألوهية أو الرسالة أو الإمامة أو الايمان أم أيا كان من ظلم حيث يرجع إلى الشاعر فهناك ﴿أَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾ دون إفراط أو تفريط وإنما جزاء وفاقا.

وقد «قيل يا رسول الله ان أبا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب يهجوك فقام ابن رواحة فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ائذن لي فيه ، قال : أنت الذي تقول : ثبت الله؟ قال : نعم يا رسول الله ، قلت : ثبت الله ما أعطاك من حسن* تثبيت موسى ونصرا مثل ما نصرا^(١)

(١) الدر المنثور ٥ : ١٠٠ . اخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... قال : وأنت يفعل الله بك مثل ذلك ثم وثب كعب فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ائذن لي فيه فقال : أنت الذي تقول : همت؟ قال : نعم يا رسول الله قلت :

همت سـخينة ان تغالب رـحـمـا فليغلبني مغالب الغـلاب
* قال : أما ان الله لم ينس ذلك لك ثم قام حسان الحسام فقال يا رسول الله ائذن لي فيه واخرج لسانه اسود فقال يا رسول الله ائذن لي فيه فقال : اذهب الى أبي بكر فليحدثك حديث القوم واياهم وأحسابهم واهجم ومعدك جبريل.

وفيه اخرج ابن سعد عن ابن سيرين قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة وهم في سفر ابن حسان بن ثابت فقال لبيك يا رسول الله وسعديك قال أحد فجعل ينشده ويصغي إليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لهذا أشد عليهم من وقع النبل.

اجل وحماية اعراض المسلمين هي تلو حماية عقيدة التوحيد والرسالة والإمامة وقد أمر بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(١).

فهؤلاء الكرام ليسوا داخلين في الوصف العام للشعراء حيث امتلأت قلوبهم من عقيدة الأيمان واستقامت حياتهم على منهجه ، فلا يعملون إلا الصالح ولا يقولون إلا الجميل ، فتظهر سلبية الايمان «لا إله» وإيجابيته «إلا الله» في نثرهم وشعرهم.

والمذكورون هنا قد نافحوا عن العقيدة في إبان المعركة المصيرية الضارية مع الشرك على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فاذن لهم ان يهجوهم.

وهذه ضابطة سارية ان الشعر حين ينبع عن التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية السامية ، يعتبر من الأعمال الصالحة الايمانية . وأحيانا في قمتها.

﴿.. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ٢٢٧.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ﴾ (٥٤ : ٢٦) والمستقبل المفهوم من أداته هنا ليس بذلك البعيد في القيامة الكبرى فحسب ، بل في البرزخ والرجعة وقبلهما ايضا ، فان الله يجازي الظالم هنا كما يجازيه في الأخرى ، مهما كان فيها الأوفى.

. وفيه اخرج ابن سعد عن مدرك بن عمارة قال قال عبد الله بن رواحة قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف تقول الشعر إذا أردت ان تقول كأنه يتعجب لذاك؟ قلت : انظر في ذاك ثم أقول ، قال : فعليك بالمشركين.

(١) المصدر اخرج ابن سعد عن جابر ابن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من يحمي اعراض المسلمين؟ فقال عبد الله بن رواحة : انا وقال كعب بن مالك : انا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنت تحسن الشعر وقال حسان بن ثابت : انا فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أهجم فان روح القدس سيعينك.

فقد ختمت السورة بمثل ما ابتدأت به : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَأُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ، و «منقلب» مصدر ميمي واسم زمان ومكان ، فهو الانقلاب نفسه وزمانه ومكانه كما كان ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ .

و «آل محمد حقهم» في بعض الروايات لا تعني أنها كانت في القرآن ثم حذفت ، بل هي تفسير تطبيقي بأبلغ مصاديق الظلم! ولا يعني «آل محمد» إلا محمدا وآله عليهم السلام ، أم هم فحسب كمصادق أهم ثان بعد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).
وقد تلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الآية كما هي^(١) برواية أهل البيت فليست إلا هي حسب القراءة المتواترة ان الظالمين سيعلمون منقلبهم علم اليقين وحقه ورد العذاب ولات حين متاب.

(١) تفسير البرهان ٣ : ٢٩٤ . ابن بابويه قال حدثنا محمد بن علي ماجيلويه قال حدثنا علي عن أبيه عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أحب ان يتمسك بديني ويركب سفينة النجاة بعدي فليقتد بعلي بن أبي طالب (عليه السلام) وليعاد عدوه وليوال وليه فانه وصي وخليفتي على أمتي في حياتي وبعد وفاتي وهو أمير كل مسلم وأمير كل مؤمن بعدي قوله قولتي وأمره أمري ونهيي نهيي وتابعه تابعي وناصره ناصرني وخاذله خاذلي ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : من فارق عليا (عليه السلام) بعدي لم يرني ولم أره يوم القيامة ومن خالف عليا (عليه السلام) حرم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار ومن خذل عليا خذله الله يوم يعرض عليه ومن نصر عليا (عليه السلام) نصره الله يوم يلقاه ولقنه حجته عند المنازلة ثم قال : الحسن والحسين اماما امتي بعد أبيهما وسيدا شباب أهل الجنة وأمهما سيدة نساء العالمين وأبوهما سيد الوصيين وولد الحسين تسعة أئمة تاسعهم القائم من ولدي طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي الى الله أشكو المنكرين لفضلهم والمضيعين لحقهم بعدي وكفى بالله ولما وكفى بالله نصيرا لعترتي وأئمة امتي ومنتقما من الجاحدين لحقهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

سورة النمل مكية

وآياتها ثلاث وتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا هُمْ أَغْمَاهُمْ فَهُمْ يَغْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦)

تسمى هذه السورة باسم قهرمانتها : «النمل» المنقطعة النظير ذكرا في الذكر الحكيم ، وقولا يخرج العادة الجارية ان الحيوان لا تنطق ، بلى وكما ﴿قَالَتْ مَلَّةٌ ... فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ..﴾! وانها من الطواسين الثلاث

وتنقصها عن أختيها «م» المذكورة في الشعراء والقصص.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ١.

«تلك النازلة في مثلث الزمان من الآيات المفصلات هي ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ وهو جملة الآيات وهي أبعاضه ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ علّه النازل عليه ليلة القدر من حكمة دون تفصيل ، فانه يبين تفصيله في هذه الآيات ، وهو أم الكتاب لدى الله ، فانه يبين محكمه للرسول ثم تفصيله إلى العالمين.

وعلّه عبارة أخرى عن القرآن ، فانه مبين نفسه بنفسه ومبين رسالة من جاء به ، أم وهو نبي القرآن حيث «كان خلقه القرآن» وكما يقال عنه «أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح بل روح المعاني» كما و ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ وكتاب حياة الرسول الرسالية مبين إشارات ولطائفه وحقائقه ، إبانة علمية وواقعية ، فانه (صلى الله عليه وآله وسلم) تفسير واقعي للقرآن مع ما يفسره علميا!.

اجل «تلك» البعيدة المدى ، القرية الهدى ، من حروفها الرمزية ك «طس» وآياتها البينات المبينات ، هي ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ المقرّو على أسماع العالمين من إرسالية رسالية عليا لخاتم المرسلين ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢.

ليس ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ بل هو ككل بمادته وماهيته ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به ، فلو ان للهدى والبشرى المصدرين مثالا واقعيًا لكان هو القرآن لا سواه ، فانه خالص الهدى والبشرى. ولماذا. فقط . «للمؤمنين»؟ وهو «هدى للناس . و . للعالمين» أجمعين! إنه «بشرى» دون ريب . فقط . للمؤمنين ، إذ لا يبشّر الكافرون وانما هم المنذرون ، وأما «هدى» فهي هنا تعني «هدى» في مثلثها : هدى أولى

هي طبيعتها لحاملها ، حيث يتحرى عن هدى الله فيصل إلى القرآن وهو قمتها ، وهدى ثانية هي حصيلة الأولى حيث يعيشها في القرآن تخلقا به علميا ومعرفيا وعمليا ، ثم الثالثة هي حصيلة الايمان بالقرآن والتدبر في آيه الكريمة.

ف «هدى» هنا «للمؤمنين» هي على غرار وقرار ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ، فالقرآن هدى في مثلثها للمؤمنين المتقين ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واما الذين في قلوبهم زيغ فليس لهم هكذا هدى ، وانما دلالية وهم لا يتحرونها ، وهي في كل زواياها وحواياها . ولا سيما الزاوية القمة . حقيقة عميقة ضخمة ، فانه ليس . فقط . كتاب تفلسف ونظر بل هو في أصله كتاب القلوب والأنفس : ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٤ : ٦٣) فيسكب هداه على قلوب المهتدين ، حيث يتلقونه بالايمان واليقين ، وكلما كان القلب أندى والفؤاد أهدى ، أدرك صاحبه من هداه أندى وأهدى.

ليس مفتاح تفهم القرآن . فقط . الصلاحيات المكرورة ، وإتقان الأدب لغويا ونحويا ، بل هو القلب المفتوح ، الفاضلي عما سوى الله ، الفائض بنور معرفة الله ، فلن تفتح كنوز القرآن . بعد المفاتيح الظاهرة . إلا بمفتاح الايمان ، إذا فهو ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قدر ايمانهم وايقانهم بوحى القرآن.

وليس المؤمنون هم الذين يؤمنون . فقط . بقلوبهم فلا يظهر في اعمالهم ، عبادة لله وخدمة وعونا لعباد الله ، بل هم :

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ٣.

هنا يتوسط كل ما بين المبدء والمعاد عمليا بين المبدء : «للمؤمنين»

فان قمة الايمان هي الايمان بالله ، والمعاد : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ جمعا بين الأصول القمة والفروع القمة ، فالصلاة هي القمة بين الواجبات العبادية ، والزكاة قمة بين الواجبات الخلقية.

ولماذا ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ﴾ بدلا عن أخصرها «وبالآخرة»؟ لأن الايمان بالمبدء ، الظاهر في التصديق بالوحي ، الناتج عنه إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو الدافع للإيقان بالآخرة ، كما الإتيان بما يدفع إلى أعمال الايمان ، فلا يؤمن بالآخرة إلا المؤمن بالله وبوحي الله دون سواه ، فإذا لا مبدء لا مجال للمعاد ، وإذا لا وحي فما هي فائدة المعاد؟! كما الإيقان بالآخرة هو الذي يشغل بالهم بعد سائر الايمان ، ويصدّهم عن جموع الشهوات الطائشة ، حيث يغمر أرواحهم بتقوى الله وينظفها عن طغوى اللهو ، ويقابلهم تماما :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ٤ .

غير المؤمن بالآخرة ، مهما كان مؤمنا بالله . على زعمه . أعماله . بطبيعة الحال . سيئة ، ومن سوء حاله على سوء أعماله ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ . فهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، هنا ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ نسبة الفعل الى الله ، وفي غيرها ﴿فَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ . .﴾ (١٦ : ٦٣) وكيف يضيف الله الى نفسه فعلة الشيطان؟ وهو إغواء والله منه براء؟ إذ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٥ : ٣٩)! انه تعالى يزين لهم سوء أعمالهم سلبيا ألا يصد الشيطان عن تزيينه ، وإجبايا انه يزيغ قلوبهم بما زاغوا : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كما ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢ : ٧).

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ لذلك التزيين ، حائرين عن الهدى ، مائرين إلى

الردى ، عمى البصيرة بما تغامضوا عنها ، وقد تصبح النفس البشرية عمها عن اعمالها السيئة حين تخوض اللذات ولا تؤمن بالآخرة ، والنفوس مطبوعة على حب الملذات ، فتوجيها لها إلى حسنات ما لم تحتد بآيات الله ورسالاته البينات.

فكما النفس الانسانية مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى متحرية عنها ، كذلك هي مستعدة للعمه والعمى إن طمست منافذ الإدراك فيها : ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ﴾ (٣٥ : ٨).

فالإيمان في أصله قيد الفتك ، والإيمان بالآخرة بعد الإيمان بالله هو الزمام الذي يكبح نزوات النفس وشهواتها ، تضمينا للقصد والاعتدال في الحياة الدنيا ، ليضمن الفلاح في الأخرى ، فالناكر للحياة الأخرى يظن الفرصة الوحيدة المتاحة له هي الحياة الدنيا ، فتتزين له كل الشهوات والنزوات كغنائم يغتنمها فيها فيميد فيها ويعمه ..

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ ٥.

﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ليس هو الظلم في الحساب . وعودا بالله . ف ﴿لَا يَظْلُمُونَ فِتْيَالًا﴾ وانما هو الحساب الدقيق الذي لا ييقي على أثر ، دون سماح فيه عن كبيرة ولا صغيرة ولا تخفيف ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٨ : ١٠٤).

﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦) «لتلقى» تلقيا دون وسيط يكدره ، وانما يلقيك الروح الأمين كما يتلقاه من رب العالمين ، تلقيا حكيما ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ وعليما «من لدن

عَلِيمٍ».

وانه ليس . فقط . تلقيا للسمع ألفاظه وانما هو تلق للقلب حيث يتفاد به بنور الوحي
: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ ..﴾ (٢٦ : ١٩٣).

إذا فكما الملقى للقرآن حكيم عليم ، كذلك الملقى يصبح به حكيما عليما ، والروح
الأمين الوسيط حكيم عليم ، وهما في الله الأصيل ، وفي الملقى والملقى به فرع ظرفا صالحا
لتلقيه .

ومن ذلك الظرف . كأصل . اللقيا المعرفية والعبودية حيث التلقي تلقن بلقاء في تكلف
وصعوبة ، فان تطهير القلب لحد يصلح لتلقي القرآن صعب مستصعب لا يحتمله أحد إلا
محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أن يصعد قلبه في لقاء ربه إلى أعلى القمم الممكنة لمن
سوى الله ، و ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ دون «الله» ام سائر صفاته ، قد تلمح الى ان ذلك
التلقي انما هو بتلقيه حكيمة عليمه ربانية ، فالقرآن يحمل علما وحكمة ربانية ، فليلق ظرفا
حكيما عليما ، وليكون نورا نازلا على نور ، وكما وسيط وحيه نور ، نور على نور يهدي
الله لنوره من يشاء .

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى

إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

حلقة سريعة من الرسالة الموسوية تلقيا للوحي من النور النار في الشجرة ، تدليلا على

ان تلقي القرآن ليس بدعا من تلقي الوحي ، فمن كان في ريب منه فليذكر :

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا خَبَرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ .٧

هنا «اهله» لا تعني . فقط . زوجته بنت شعيب ، بل ومعها غيرها من ولد وسواهم

لمكان ﴿سَآتِيكُمْ .. تَصْطَلُونَ﴾ والجمع ولا سيما المذكر منه

لا يؤتى به لواحدة.

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا..﴾ وحقيقة الإيناس هي الإحساس بالشيء من جهة يؤنس بها ويسكن إليها ، ويا له من إيناس بعد الإياس في قرّ الليل المظلم بوعثاء السفر ، وفي خبر انه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء ^(١).

وقد كانت النيران توقد في البرية فوق البرية فوق المرتفعات لهدي السالكين في الليالي ، فظنها كأنها منها ، دون تأكد فيها حيث ﴿آنَسْتُ نَارًا﴾ ولا تنافيه ﴿إِذْ رَأَى نَارًا..﴾ (٢٠ : ١٠) حيث الرؤية قد تكون إيناسا دونما اطمئنان ، فلذلك ﴿سَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ..﴾ ترددا بين «خبر» علّه خبر السماء ، وبين ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ : استيقادا بصلاء شهاب قبس مقتبس من النار ، فالشهاب هو الشعلة الساطعة من النار المشتعلة ، والقبس هو المقبس منها.

وعلّ «لعلكم» هنا تختص ب ﴿آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ فعندئذ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وأما «خبر» ف «سَأْتِيكُمْ..» كأنه متأكد هنا من خبر السماء في النار ، ام مطمئن اليه أكثر من اصل النار ، وقد ذكرت في طه كما هنا وبعكس الترتيب : ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ فقد تختص «لعلّي» بالأولى ، ثم «أو أجد» دون «نجد» . ﴿عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ خارجة عن «لعلّي» كأنها متأكدة ام راجحة مطمئنة ، ثم النص ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا..﴾ دون «إنّا» ولو كانت هي

(١). نور الثقلين ٣ : ٣٧٣ عن الباقر (عليه السلام) في «آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ..» كان قد اخطأ الطريق.

النار المرئية لأي راء لرأته اهله معه! وهذه ترجيحة اخرى لما ذكرنا ، ان الهدى الرسالية هي الراجحة ، بل ولأنها كانت هي المترقبة لموسى وبعد تأجيل ذلك الردح البعيد من الزمن ، فيخبر . إذا . بهذه الفروسية اللامعة :

﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ هنا ، و ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ . وكما فصلنا . في طه! .
 ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨) .
 هنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ وفي طه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا ..﴾ وهما تتجاوبان في معنى : حضر عندها ، ثم هنا ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ...﴾ وفي طه ﴿... نُودِيَ يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رُبُّكَ ..﴾ فقد كانت النداء من الشجرة المباركة الزيتون المحلقة عليها نار النور ونور النار :
 كما في القصص : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ^(١) فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٠) .
 ﴿.. نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ..﴾

وترى ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ هو الله سبحانه وتعالى ، بذاته المقدسة المتعالية عن الحدّ والمكان؟ و «بورك» الرامية إلى حادث البركة على من في النار تبعده عن ساحته تعالى ، تقريبا إلى من باركه الله في هذه النار ، كما و ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تسبحه وتنزهه عن ان يحل في نار أو نور هي من مربوبيه وهو رب العالمين ، فقد متى متى فليس له متى ، وممكن المكان فليس له مكان!

ام ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ هو من ظهر سلطانه وقدرته ورحمته في النار؟ ولا يعبر عن سلطانه ورحمة ب «من»! ولا تحل قدرته في شيء ، نارا ام غير نار! فلا تعني ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ لا ذاته سبحانه ولا صفاته ، حيث البركة هي منه

إلى خلقه ، فكيف «بورك»؟ ومن هو الذي باركه؟ ام بارك نفسه ما لم يكن باركها من ذي قبل! ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾!

قد يعني ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ روح القدس ، المبارك هنا بحمل الوحي الرسالي لموسى ، ف «من حولها» هو موسى حيث بورك بذلك الوحي.

ام ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ هو موسى بمن معه من وسيط الوحي أم ليس معه ، حيث «أتاها» فحصل في جو النور النار ، ف «من حولها» هم الأنبياء الإسرائيليين الذين بوركوا بوحى السماء وهم مدفونون حول الواد المقدس ، في القدس وما حولها.

وعلى أية حال فلا تخلوا هذه البركة الخاصة في «بورك» عن وسيط الوحي ومن أوحى اليه ، والمحور الأصيل هنا هو موسى ، دون ذات الله او صفاته تعالى ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن هذه الشطحات الزور والغرور!.

إنها نور كانت تترائى نارا قضية ظلم الليل وعدم وضوح الوحي فيه ، نور وقادة خلقها الله على الشجرة المباركة في الواد المقدس ، ولقد مضت هذه البقعة في سجل الوجود في الكيان الرسالي مباركة مقدسة بتجلي الوحي الموسوي فيها ، تلقيا لوحي التورات كما ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٩.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى...﴾ (٢٠ : ١٣) . ﴿.. نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٠ :

«إني أنا ربك . الله رب العالمين . العزيز الحكيم» تلمح كمجموعة ان

صيغة النداء كانت تشملها كلها ، فمثلت التعبير مطوي فيها ، وفي كل مجاله من عرضها تأتي ما تناسبها من هذه الثلاث.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا هَئِثْرًا كَأَنَّهُ جَانٌّ وَلِي مُدَبِّرًا وَمُ يُعَقِّبُ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ ١٠.

«لدي» هنا تعني لدنية القرب في القمة المعرفية الرسالية ، إذ يلقي فيها الوحي ، لا فحسب العلم والقدرة إذ يشملان كل كائن أيا كان وأيان ، و «جان» هي الحية الصغيرة الناعمة ، فقد اهتزت عصاه بشاكلة كأنها جانٌّ على كبرها حية تسعى ف ﴿وَلِي مُدَبِّرًا وَمُ يُعَقِّبُ﴾ خوفا منها ، فإذا بخطاب رب العزة ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ ولقد كان من حقه أن يخاف جانّ العصا ولما يتقدم من ربه الأمن وألا يخف ، إذ كانت عصاه سلاحه الذي يدفع به ، فإذا هي حية تسعى ، فلا قرار . إذا . إلا الفرار من عصاه المقلوبة من أمنه وتأمينه إلى بأسه ، وقد ظلم نفسه من ذي قبل : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ..﴾!

وترى ان «لا تخف» إخبار عن واقع يستغرق كل المرسلين قضية الرسالة وانهم «لدي»؟ فلما ذا خاف موسى هنا . وقد بدأت رسالته بالوحي الرسالي . من آيته الرسالية؟ وذلك تكذيب لما أخبر الله به ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ..﴾ أو تكذيب . لكونه رسول الله! لأنه لم يكن «لدي»؟ وهو لدى الله في موقف الوحي الرسالي بآية من آياته! أم لم يكن حينه من المرسلين؟ وهو رسول بسند الوحي وآية الرسالة ، ام ان هذه الضابطة مخصصة في موسى؟ وهي آية عن التخصيص! ولو خصصت فلما ذا إذا «لا تخف» سنادا إلى نفس الضابطة : ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾!

علّه داخل في المستثنى : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ : انتقاصا قبل الرسالة :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨ : ١٦).

فقد ظلم نفسه من قبل دونما تقصير ثم بدل حسنا بعد سوء فغفر له ربه ، إذا فقد

يكون من :

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ١١ .

فهو بعد غفره تعالى لا يخاف لدى الله فيما يأمره به الله مهما ظهر جانا أو ثعبانا ،

بل هو من الأمنين : ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ مهما كنت قبل ﴿مَنْ

ظَلَمَ﴾ ولكنك بدلت بعد حسنا بعد سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، ف «لا تخف» المعلل ب

﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ هناك ، وب ﴿لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلُونَ﴾ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .. هنا ، نهي

عن خوفه من ظلمه لمكان غفره تعالى ، وكأنه خيل إليه الجان المحوّل عن عصاه ، عساه جزاء

عن ظلمه ، غضا عن غفره وتعالى تطامنا وتذلا.

وانقطاع الاستثناء هنا لا يرجع إلى معنى صالح فانه «لا يخاف .. إلا من ظلم ثم

غفر» وليس للمغفور له أن يخاف كما ليس لغير الظالم ان يخاف ، فانما الخائف هو الظالم

غير المغفور له وهو خارج عن نص الآية.

وقد يقال ﴿لَا يَخَافُ .. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ﴾ ولما يغفر له ، فلا يخفف ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ ؟ ولكن حصر الخوف لدى الله بمن بدل ، حسر له عمن ظلم ولم يبدل وهو أحق أن

يخاف لدى الله!

ف ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلُونَ﴾ اخبار حال كونها إنشاء لسلب الخوف لدى الله

عن ساحة المرسلين ، وحتى من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم ، فهو إذا من

الأمنين ، ليس له ان يخاف لدى الله بعد ذلك الغفر الأمنين.

ويا له من مسرح الخوفة المولية له مدبرا دون تعقيب ، إذ ألقى عصاه فإذا هي تدب وتسعى بسرعة هائلة كأنها جان ، فأدركت موسى طبيعة الانفعالية ، وهزته هزتها المفاجئة التي لم تك تخطر ببال ، وهو في تلك الحال المباركة ﴿تُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ فيجري في جريه موليا دون تفكير في الرجوع ، فيأتيه النداء الحنون المنون ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ وهذه ضابطة شاملة انه انما يخاف لدى الله «من ظلم» ثم لم يبدل حسنا بعد سوء ، وهلا يخاف غير الظالم الله كما لا يخاف لدى الله؟ طبعاً يخاف الله ويخشاه حيث الخوف والخشية من الله هما قضية الضعة الكاملة أمام الله ، ف ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ لا تنفي إلا الخوف عما يخيف من الكائنات المخيفة كحية العصا أماذا؟ جزاء الظلم ، فاما الله ف ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ بالله ، العارفين قدر الله.

خوف وخشية عن الله هما قضية العلم بالله ، وخوف لدى الله ام سواه عما سوى الله هو قضية عصيان الله ، ف«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»^(١).

فقد كان يخاف موسى لما ظلم نفسه ﴿وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٢٦) :
 (١٤) ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤ : ٢٨) ، وهذا خوف من غير الله قضية الانتقاص بجنب الله.

ثم هنالك خوف من الله قضية العلم بالله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) :
 (١٧٥) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (٧٦ : ٢٠) أم خوف في الله حفاظا على شرعة الله : ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ (٨ : ٥٨).

(١) عيون الأخبار عن الامام الرضا (عليه السلام).

فهنا خوف صالح وخوف طالح وعوان بين ذلك ، وموسى ينهى عن العوان ، وكلنا منهيون عن طالحه الى صالحة.

والآن بعد ذلك الحنان من الرب المنان ، وقد اطمأن موسى الى أمن الحضور ورحمته يؤمر مرة ثانية بآية أخرى :

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ١٢ .

لماذا «في جيبك» دون كمك الداخلة يدك فيه دونما حاجة إلى إدخال؟ علّه لم يكن له كم فليدخلها في جيبه ، ام ليتأكد انها أصبحت ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وإلا فعلها كانت في كفه ، ومنذ فترة قصيرة بيضاء من سوء برص ، فلا يجديه نفعا : «وأخرج يدك من كمك»!.

ثم ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ هل تعني كل الآيات الموسوية وهي اكثر منها؟ كلا ، وإنما هي التي ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾^(١) دون الباقية الخاصة ببني إسرائيل كما فصلناها في الأسرى على ضوء : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ...﴾ (١٠١). ولم يأت هنا بعدد الآيات التسع إلا ثنتين والسبع الأخرى مسرودة في الأعراف؟ حيث التركيز على قوة الآيات وهما نموذجتان من اقوامها لنعرف المكذبين بها ما أغواهم.

وقد تعني ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ اليد والعصا ، حيث التسع كلها ظهرت

(١) والتسعة هي : ١ . اليد البيضاء ، ٢ . ثعبان العصا ، ٣ . الطوفان ، ٤ . الجراد ، ٥ . القمل ، ٦ . الضفادع ، ٧ . الدم ، ٨ . ضرب الأموال بنقص وطمس وأخذهم بالسنين ، ٩ . فلق البحر . والآيات الخاصة ببني إسرائيل هي : ١ . نتق الجبل ، ٢ . تفجير اثنتي عشرة عينا ، ٣ . المن والسلوى .

منهما ، إذا فهما التسع في الأصل وكل التسع فروعها .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ١٣ .

ولماذا «هذا» و «آياتنا» تتطلب «هذه»؟ علّه لأنها قولتهم الهاتكة لها دون قول الله ، فهم تغامضوا عن عديد الآيات ، وحتى عن أنها آية إلهية ، فلم يعتبروها إلّا شيئاً وامراً مّا غير خارق للعادة ، رغم انها مبصرة لمن ابصر إليها وبها ، ولكنهم كانوا قوما عمين ف ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لا ريب فيه حيث يبين سحره للناظرين ، وقد سبق لهم المسرح العظيم من صراع السحرة مع موسى في محشر الناظرين ، وثبت للساحرين أنفسهم ان ما جاء به موسى آية بينة من رب العالمين!

ولماذا مبصرة ، وكل آيات الله مبصرة؟ علّها توصيفة تأكيدية لفرقة وتبيينية لآخرين! أم أن الآيات غير المبصرة حسياً أبعد عن الحجة وان كانت اقرب الى المحجة واثبت ، وآيات موسى كلها مبصرة.

ولماذا «مبصرة» والإبصار إنما هو للناظرين؟ علّها مبالغة في وضوحها كأنها هي التي تبصر الناظرين لشدة لمعانها ، فتجلب الناظر لينظر إليها ، إذا فهي مبصرة في ذاتها ، دون حاجة إلى دافع آخر ، لكونها خارقة للعادة بينة لا غبار عليها.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

١٤ .

هؤلاء الأغاد المناكيد ﴿جَحَدُوا بِهَا﴾ : الآيات المبصرة «و» الحال انهم ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ حيث تجاوزت أبصارهم إلى عقولهم ، وشملت أنفسهم اللهم إلّا قلوبهم المقلوبة عن الهدى ، المليئة من الردى ، ﴿جَحَدُوا بِهَا﴾ لا عن اقتناع أو شبهة فيها أو ريبة تعثرها ، وانما ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ جحداً بالستهم

رغم استيقان أنفسهم ، حيث القلوب قاسية لا تحن إلى هدى مهما استيقنت النفوس .
 ف «أنفسهم» هنا لا تشمل قلوبهم ، فان ظنّها فضلاً عن استيقانها يحمل أصحابها
 على التصديق .

وقد يلمح هنا الاستيقان دون الإيقان إلى استثناء قلوبهم عن أنفسهم ، فقد كانت
 حواسهم وافكارهم وعقولهم ومعها فطرهم تتطلب إيقان قلوبهم لأنها ذرائع الإيمان والإيقان ،
 ولكنهم ﴿جَحَدُوا بِهَا﴾ بالسنتهم وقلوبهم ﴿وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ بسائر ادراكاتهم ، تغافلا
 عنها وتجاهلا عن تطلباتها ، «ظلما» بأنفسهم وبالحق والذرائع الموصلة اليه ، فقد ظلموا
 حواسهم الى فطرهم وفكرهم وعقولهم ، وتنازلوا عن استيقانها لقلوبهم ، «وعلوا» على الله
 ورسله برسالاته ، فذلك الظلم الفاتك عبّد طريقهم إلى علوّهم ، فصدوا منافذ الهدى عن
 قلوبهم ، وفتحوا مسالك الردى إليها فختم الله عليها بما ظلموا وعلوا!! .

هذه الآيات المبصرة كانت مستيقنة تطلب اليقين ، ثم وحواسهم بسائر ادراكاتهم
 كانت تستيقن هذه الآيات تطلبا ليقين القلوب ، ولكنهم ﴿جَحَدُوا بِهَا ... ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾
 تنازلا وتغافلا عن كل ادراكاتهم وحتى الحسية الحيوانية ، فهم أصبحوا أنزل من الحيوان وأنزل
 وأضل سبيلا ، حيث تحللوا عن كافة الإحساسات والنفسيات انسانية وحيوانية! .
 وذلك هو أسفل دركات الجحود بالحق ^(١) «فانظر» عبر التاريخ ﴿كَيْفَ كَانَ

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٥ بسند متصل عن أبي عمر الزبيرى عن أبي عبد الله (عليه السلام): أخبرني عن وجوه
 الكفر في كتاب الله عز وجل ، قال : الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه فمنها كفر الجحود على وجهين . الى
 قوله . : واما الوجه الآخر .

عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ نَظَرْنَا إِلَى مَهَالِكِهِمْ بِمَا ظَلَمُوا وَعَلَوْا ﴿١٥﴾ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ فَقَدْ أَفْسَدُوا ذَوَاتَ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَفْسَدُوا بِذَلِكَ الْبِلَادَ وَمَسْتَضْعَفِي الْعِبَادِ!.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

. من الجحود على معرفة وهو ان يجحد الجاحد وهم يعلم انه حق قد استقر عنده وقد قال الله عز وجل : وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ..

صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى
 الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ
 (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي
 وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
 لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)
 أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)
 اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
 إِنِّي أَلْقَيْ

إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عَفْرِتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

عرض حافل لملك سليمان وسلطته الروحية الرسالية مع الجن والأنس والطيور فهم يوزعون ، في حلقات من حياته المنقطعة النظير مع الطير والنمل وملكة سبأ ، تبرز سلطته الملكية بجنب سلطانه الرسالي ، تبيننا لعدله في

سلطانته الجامع غير الجامح ، قصصا حافلة بمحركات ومشاعر ومشاهد ، نبراسا ينير الدرب على الزعماء في كل حقل كيف يجب عليهم رعاية الرعايا والتجنب عن الخطايا :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٥ .

«لقد» تأكيدان اثنان لوهبة العلم الربانية ، و «آتينا» في جمعية الصفات تأكيداً ثلاثاً تلمح لمختلف صنوف العلوم الربانية ، الممكن ايتاءها للصالحين الخصوص ، ثم «علما» منكراً تأشير إلى فخامة ذلك العلم ، كما و «آتينا» تشير إلى انه ليس مما يحصل بتحصيل متعود ، بل هو إشراق رباني الى قلوب الطاهرين على قدر الفاعليات والقابليات «علما» ومعرفة بالله يتبع العقيدة الصالحة والعمل الصالح «علما» يعلم صاحبه مصدره ، متجها إلى الله ، منفقا له في مرضات الله ، مقربا له إلى الله ، دونما صدّ للقلب عن الله ، زائغا عن مصدره ومورده ، لا يثمر إلا شقاوة ، لأنه منقطع الصلة صادرا وواردا ، وبعيدا عن النور مادة.

وهنا نعرف موقف الواو في ﴿وَقَالَا...﴾ كأنها عطف على محذوف معروف من «علما» هذا ، وهو العقيدة الصالحة والعمل الصالح : ﴿آتَيْنَا... عِلْمًا﴾ . فاعتقدها وعملا به ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ فذلك الحمد باللسان يتبع الحمد بالجنان والأركان ، شكرا على عطية الملك المنان ، و «فضلنا» ليس فقط في مجرد العلم ، إذ لا فضل في مجردة عن أثماره ، بل هو الذي قال الله عنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ . : بالله و ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ علم التقوى والتقوى في العلم ، جناحان يطير بهما العبد الصالح إلى قمم المعرفة والكمال.

ثم وليس «فضلنا» هنا . فقط . بما علمنا مجردا عما يرام منه مادة وفاعلية ، بل «فضلنا» بما يفضل عبادا على عباد وقمته التقوى ، و ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعقية رقية على ذلك التفضيل في علم وسواه ، انه في العبودية والايمان ، دون العلم الفاضي عنهما ، وانما هو الفائض منهما ، الصادر عنهما ، والوارد موارد الحق المرام فيهما .

ولقد أشير إلى العلم المؤتى لداود في ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (٣٨ : ٢٠) ولسليمان ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٢١ : ٧٩) فهما المؤتيان حكما وعلما ، يشملان قمما معرفية عالية فضلا بها على كثير من عباد المؤمنين .

اجل وهم من القلة القليلة بين ﴿عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (٥٦ : ١٤) فتلك الثلة وهذه القلة هم القلة القليلة ﴿مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ومن فضل داود المشار إليه ب «فضلنا» : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (١٠) ﴿وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (٣٤ : ١٢) .

فقد كان داود يرتل مقاطع من الزبور فيتجاوب به ذرات الكائنات من حوله ، مما يدل على العبودية العريقة القمة ، وسليمان المسخر له الريح والجن والإنس بأمر الله قضية طاعة الله كما قال الله : عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي انا أقول للشيء كن فيكون ، أجعلك تقول للشيء كن فيكون!

لذلك لما «سأل رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أفضل الأعمال فقال : العلم بالله والفقه في دينه وكررها ، عليه ، فقال : يا

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اسألك عن العمل فتخبرني عن العلم فقال ان العلم ينفعك معه قليل العمل وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل»^(١).

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ ١٦.

«ورث» هنا لا تعني ارث النبوة ، بل هو هنا المال ، فالنبوة ليست لتورث لأنها وهبة إلهية كما هنا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ فالله هو الذي علم سليمان كما علم داود فلا مجال لأرثه عنه بعد ما آتاه الله ، إلا تحصيلًا لحاصل ومن غير مصدره!

فالمال يورث بما فرضه الله كضابطة لا تستثنى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ..﴾ إرثًا دون تحصيل ، ثم العلم غير الرسالي قد يورث ولكنه بتحصيل كما «العلماء ورثة الأنبياء» تعلمنا منهم ، ولكنهما النبوة لا تورث إذ لا تحصل بتحصيل ، وإنما هي وهبة إلهية لا تنتقل من نبي إلى نبي ، بل هي عطية ربانية لمن يشاء : ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فطالما العلم مصداق مجازي هامشي للإرث ، فالنبوة غير داخلية في ميراث ولا مجازيا^(٢) فكيف يختص هنا الإرث بالنبوة توجيهها لغصب فذك

(١) تفسير روح البيان ٦ : ٣٢٦.

(٢) اللهم إلا مجازا بعيدا وضمن سائر الميراث ، بمعنى ان الله تعالى أورث نبيا مثل النبوة السالفة ام فوقها ام دونها ، وبين النبوة والميراث عموم من وجه ، فقد يكون الابن نبيا دون أبيه أو يكون الأب نبيا دون ابنه فلا ميراث هنا وهناك أو يكون الأب والأبن نبيين ولكن النبوة الثانية ليست في الحق ارثا من الأولى إلا بمجاز بعيد عن حقيقة الإرث ومجازه القريب.

وحتى إذا عم الإرث النبوة إلى المال فليس ليختص بغير المال على أية حال.

البتولة الزهراء (عليها السلام) سنادا إلى مختلقة مخالفة لكتاب الله «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة»! وكما يروي الحجاج بهذه الآية واضرابها عن الزهراء سلام الله عليها بين جماهير المسلمين في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الخليفة أبي بكر^(١) :

(١) وقد أخرجت بألفاظ تالية : «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضيني» .. يؤذيني ما آذاها ويغضبي ما أغضبها» .. يقبضي ما يقبضها ويسطني ما يسطها» .. يؤذيني ما آذاها وينصبي ما أنصبها» .. يريني ما راها ويؤذيني ما آذاها» .. يسعفي ما يسعفنا . و : «فاطمة شجنة مني يسطني ما يسطها ويقبضي ما يقبضها» «فاطمة مضعة مني فمن آذاها فقد آذاني» .. يقبضي ما قبضها ويسطني ما بسطها» .. يسريني ما يسرها» .

أخرج على اختلاف ألفاظها أئمة الصحاح الست وعدة أخرى من رجال الحديث في السنن والمسانيد والمعاجم واليكم جملة ممن رواها : ١ . أبو محمد ابن عيينة الكوفي المتوفي ١٩٨ كما في الصحيحين . ٢ . ابن أبي مليكة ١١٧ في رواية البخاري ومسلم وابن ماجه وابن داود وأحمد والحاكم . ٣ . أبو عمر بن دينار المكي ١٢٥ كما في صحيح البخاري ومسلم . ٤ . الليث بن سعد المصري ١٧٥ كما في اسناد ابن ماجه وابن داود واحمد . ٥ . أبو النضر هاشم البغدادي ٣٠٥ مسند أحمد . ٦ . أحمد بن يونس البزيعي ٢٢٧ كما في صحيح مسلم وسنن أبي داود . ٧ . الحافظ أبو الوليد الطيالسي ٢٢٧ صحيح البخاري . ٨ . أبو المعمر الهذلي ٣٣٦ صحيح مسلم . ٩ . قتيبة بن سعيد الثقفي ٢٤٠ مسلم وأبو داود . ١٠ . عيسى بن حماد المصري ٢٤٨ . ١١ . ابن ماجه . ١٢ . أحمد بن حنبل ٢٤١ في مسنده ٤ : ٣٢٢ و ٣٢٨ . ١٣ . البخاري في صحيحه ٥ : ٣٧٤ . ١٤ . مسلم ٢٦١ في صحيحه ٢ : ٢٦١ . ١٥ . ابن ماجه في سننه ١ : ٢١٦ . ١٦ . أبو داود في سننه ١ : ٣٢٤ . ١٦ . الترمذي في جامعه ٢ : ٣١٩ . ١٧ . الترمذي في نوادر الأصول ٣٠٨ . ١٨ . النسائي في خصائصه ٣٥ . ١٩ . أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني ٨ : ١٥٦ . ٢٠ . النيسابوري في المستدرک ٣ : ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ . وإلى (٤٩) شخصا ذكرهم العلامة الأميني في الغدير ٧ : ٢٣١ . ٢٣٥ .

«أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ وقال عز وجل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وقال عز ذكره ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقال ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وقال ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وزعمتم ان لا حظوة لي ولا ارث من أبي ولا رحم بيننا ، افخصكم الله بآية أخرج نبيه منها؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْغَوْنَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟ أغلب على إرثي ظلما وجورا ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١).

ورواية أبي بكر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، مضمومة عرض الحائط لمخالفتها نصوصا من الكتاب ، فانها معللة عدم اليراث بالنبوة ، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ واضرابها تورث الأنبياء بعضهم عن بعض! اضافة إلى المتواتر عن

(١) بحار الأنوار ج ٦ نقلا لها عن كتاب «بلاغات النساء لأبي الفضل احمد بن أبي طاهر قاتلا انها من المشهورات بين الفريقين وفي كتاب الاحتجاج روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آيائه عليهم السلام انه لما اجمع ابو بكر على منع فاطمة فذك وبلغها ذلك جاءت اليه وقالت له : يا ابن أبي قحافة أفني كتاب الله ان ترث أباك ولا ارث أبي لقد جئت شيئا فريا ، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ...

الرسول في فاطمته أن أذاها أذاه ورضاها رضاها وقد تأذت ووجدت من فعلة الخليفة ^(١).
 ذلك ارث المال ، واما الحال فلا ارث فيها وهي المذكورة قبل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ
 وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا ..﴾ وكذلك بعد في قسم من قضايها ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ .. وَأَوْتَيْنَا
 .. إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

ولو كانت هذه مما ورثه داود لم يكن للواو مجال في «وقال» بل الصحيح إذا : قال ،
 ام : فقال ..

﴿.. وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ...﴾.

هنا نعرف ان للطير منطقا ، فليس الإنسان هو الحيوان الناطق بين الحيوان ، ولكن
 كيف تنطق الطير وماذا؟ إن علمه بحاجة إلى تعليم رباني يختص بأمثال سليمان ممن آتاهم الله
 علما.

(١) في نور الثقلين ٤ : ٧٥ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وذكر مسلم عن عبد الرزاق عن معمر عن
 الزهري عن عروة عن عائشة وفي حديث الليث بن سعد عن عقيل عن ابن عروة عن عائشة في خبر طويل تذكر
 فيه ان فاطمة أرسلت إلى أبي بكر تسأل ميراثها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) القصة . قال : فهجرت
 ولم تكلمه حتى توفيت ولم يؤذن بها أبا بكر يصلي عليها.

واخرج البخاري في باب فرض الخمس ٥ : ٥ عن عائشة ان فاطمة (عليها السلام) ابنة رسول الله (صلى
 الله عليه وآله وسلم) سألت أبا بكر الصديق بعد وفات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يقسم لها ميراثها
 ما ترك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مما أفاء الله عليه فقال لها ابو بكر : ان رسول الله (صلى الله عليه
 وآله وسلم) قال : لا نورث ما تركنا صدقة . فغضبت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهجرت
 أبا بكر فلم تزل مهاجرة حتى توفيت.

أقول : ما تركنا صدقة قد تعني ان ما تركناه صدقة لا نورثها ، لا وما تركناه غيرها.

وهل ان الطير ايضا علّمت منطق سليمان إذ كلمته هدهد في حوار؟ طبعاً نعم! وإلا فكيف عرفت مقال سليمان ثم أجابت «فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ

واخرج في الغزوات باب غزوة خيبر ٦ : ١٩٦ عن عائشة قالت : ان فاطمة (عليها السلام) . الى ان قالت . : فأبى ابو بكر ان يدفع الى فاطمة منها شيئاً فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرتة فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة أشهر فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها.

واخرج مثله مسلم في صحيحه ٣ : ٧٢ واحمد في مسنده ١ : ٦ ، ٩ والطبري في تاريخه ٣ : ٢٠٢ والطحاوي في مشكل الآثار ١ : ٤٨ والبيهقي في سننه ٦ : ٣٠٠ - ٣٠١ وكفاية الطالب ٢٢٦ وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٨٥ وقال في ٦ : ٣٣٣ : لم تنزل فاطمة تبغضه مدة حياتها ، وذكره بلفظ الصحيحين الديار بكرى في تاريخ الخميس ٢ : ١٩٣ .

ولقد بلغت من موجدتها انها أوصت بان تدفن ليلاً وان لا يدخل عليها احد ولا يصلي عليها ابو بكر فدفنت ليلاً ولم يشعر بها ابو بكر وصلى عليها علي وهو الذي غسلها مع اسماء بنت عميس : (طبقات ابن سعد . رسائل الجاحظ ٣٠٠ . حلية الأولياء ٣ : ٤٣ . مستدرک الحاكم ٣ : ١٦٣ . طرح التثريب ١ : ١٥٠ . اسد الغابة ٥ : ٢٥٤ . الاستيعاب ٣ : ٧٥١ . مقتل الخوارزمي ١ : ٨٣ . ارشاد الساري للقسطلاني ٦ : ٣٦٢ . الاصابة ٤ : ٣٧٨ . ٣٨٠ ، تاريخ الخميس ١ : ٣٢٣).

وقال الواقدي كما في السيرة الحلبية ٣ : ٣٩٠ ثبت عندنا ان علياً كرم الله وجهه دفنها رضي الله عنها ليلاً وصلى عليها ومعه العباس والفضل ولم يعلموا بها أحداً.

ومن جراء تلك الموجدة منعت ان تدخلها يوم ذاك عائشة كريمة أبي بكر فضلاً عن أيها فجاءت تدخل فمنعتها الأسماء فقالت . لا تدخلني ، فشكت إلى أبي بكر وقالت : هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فوقف ابو بكر على الباب وقال يا اسماء ما حملك على ان منعت ازواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يدخلن على بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد صنعت لها هودج العروس؟ قالت : هي امرتني ان لا يدخل عليها أحد وامرتني ان اصنع لها ذلك . راجع (الاستيعاب ٣ : ٧٧٢ . ذخائر العقبى ٥٣ . اسد الغابة ٥ : ٥٢٤ . تاريخ الخميس .

به» إلا انه ليس لزامه ان الهدهد تفهمت لغة الإنسان من سليمان ، فالذي علّم منطق الطير يعلم نطقها ويعلم كيف ينطق معها نطقها ، و ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ تشمل النطق بلغتها بحسب تفهّمها لغته ، بل لا فكاك بين ان يفهم منطقها وبين أن ينطق به. وكما «علّمنا ..» تشمل العلمين سماعا وتكلما ، كذلك «الطير»

١ . ٣١٣ . كنز العمال ٧ : ١١٤ . شرح صحيح مسلم للسنوسي ٦ : ٢٨١ . شرح الآبي لمسلم ٦ : ٢٨٢ .
أعلام النساء ٣ : ١٢٢١ .

وقد اخرج ابن قتيبة والجاحظ ان عمر قال لأبي بكر انطلق بنا إلى فاطمة فانا قد أغضبناها فانطلقا جميعا فاستأذن علي فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم ابو بكر فقال : يا حبيبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والله ان قرابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحب الي من قرابتي وإنك لأحب الي من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك متّ ولا أبقى بعده أفتراي أعرفك واعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألا إني سمعت أباك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، فقالت : رأيتهما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تعرفانه وتفعلان به؟ فقالا : نعم فقالت : نشدتكما الله الم تسمعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة ابنتي فقد احبني ومن ارضى فاطمة فقد ارضاني ومن أسخط فاطمة فقد اسخطني؟ قالوا : نعم سمعناه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت : فاني اشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما ارضيتماني ، ولئن لقيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأشكونكما اليه ، فقال ابو بكر : انا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ، ثم انتحب ابو بكر يبكي حتى كادت نفسه ان تزهق وهي تقول : والله لأدعون عليك في كل صلاة أصلها ، ثم خرج باكيا فاجتمع الناس اليه فقال لهم : يبيت كل رجل معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتموني وما أنا فيه لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي.

تشمل سائر الطير دونما استثناء ، مهما برزت الهدهد في ذلك المسرح .
 وهل إن ﴿مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ هنا تختص علمه بمنطقها بين سائر الحيوان؟ فكيف علّم
 منطق النملة! ألاّ كما كانت من طيرها فتشملها «الطير»؟ ولا يقال لذوات الأجنحة منها
 طير!

أم لأن النملة اختصت بهذا النص بين الحيوان غير الطير ، فلم يعلم منطق سائر
 الحيوان إلّا النملة؟ .. ليس لنا إلّا متابعة النص ، فقد علّم منطق الطير والنملة ثم لا ندري
 هل علّم منطقاً آخر أم لا؟ اللهم إلّا أن تلمح ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ
 الْمُبِينُ﴾ و ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شيء من العلم بمنطق سائر الحيوان بل وسائر الكائنات ^(١)
 وشيء من الملك والملك.

اجل ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا تعني البعض الذي يعرفه الكلّ علماً فطرياً أو تعلماً ، وإنما
 «أوتينا» كعطاء خاص رباني كما ﴿آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ فذلك المؤتي له من كل
 شيء ، شيء من العلم الخاص والقدرة الخاصة أمّا هيه من المخبوء تحت ستار الغيب ، لا
 يعلمها إلّا من علمه الله ، و ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ حيث يبين اختصاص الفضل
 على سائر العالمين ، إذ لا يناله أحد إلّا بما يؤتيه الله لا سواه.

إلّا أن هنا فرقاً بين ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ و ﴿أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾

(١) المجمع روى الواحدي بالإسناد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال : أعطي سليمان بن داود
 ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والانس
 والشياطين والدواب والطيور والسباع وأعطي علم كل شيء ومنطق كل شيء وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة التي
 سمع بها الناس وذلك قوله ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

حيث الأول تلمح انه علم منطق الطير ككل ، والثانية لمكان «من» التبعض تختص علمه وقدرته بالبعض ، فقد علّم . إذا . بعض المنطق من سائر الحيوان وسواها ، كما أوتي البعض غير العلم كما العلم ، وليس منطق الطير كلّ ما يسمع منها ، فقد يكون صوتا دون معنى كما قد يكون منا ، وقد لا يكون صوتا نسمعه كما في النمل واضرابها ، فما يناله الإنسان من الصوت انما هو عدد محدود من الارتعاش الصوتي وهو كما يقال ما بين ستة عشر ألفا إلى اثنين وثلاثين ألفا في الثانية ، والخارج منها في الجانبين خارج عن حدود سمعه ، وقد تنطق الطير أو سائر الحيوان دون صوت ، وإنما بإشارات تلغرافية أو الرادار كما نراها من النمل وسائر الحيوان ، فلا يختص المنطق بما له صوت ، بل يعمه مسموعا لنا وسواه ، ام رمزا لا يسمع ، والنطق هو إبراز ما في الباطن بآلة ظاهرة لسانا وسواه ، و ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ تعم مثلث النطق . اجل وللطير منطق كما لكل حيوان حيث الكل امم كما نحن : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٦ : ٣٨).

ذلك! لضرورة التفاهم بينها لإدارة الشؤون الحيوية لها ، وليس للإنسان التعرّف إلى منطقها مهما حاول وزاول ، لأنه من الأسرار الربانية يعلمها من يشاء! .
 وحين يعلم سليمان منطق الطير ويؤتى من كل شيء فباحرى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ، أخرى بهم ان يعلموا منطق الطير ويؤتوا من كل شيء ^(١) فإنهم أئمة

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٧ في الخرائج والجرائح قال بدر مولى الرضا (عليه السلام) ان إسحاق بن عمار دخل على موسى (عليه السلام) فجلس عنده واستأذن عليه رجل من .

. خراسان فكلمه بكلام لم اسمع بمثله كأنه كلام الطير ، قال اسحق : فأجابه موسى (عليه السلام) بمثله ولغته إلى أن قضى وطره من مسائله فخرج من عنده فقلت : ما سمعت بمثله هذا الكلام! فقال (عليه السلام) : هذا كلام قوم من أهل الصين وليس كل كلام أهل الصين مثله ثم قال : أتعجب من كلامي بلغته؟ فقلت : هو موضع العجب! قال (عليه السلام) : أخبرك بما هو اعجب منه ان الامام يعلم منطق الطير ونطق كل ذي روح خلقها الله تعالى وما يخفى على الإمام شيء.

أقول «لا يخفى على الامام شيء» قد يعني لغة كل شيء لا كل شيء من كل شيء فانه خاص بالله الذي لا يعزب عن علمه شيء.

وفيه عن المناقب لابن شهر آشوب محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال سمعته يقول : ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أقول : وهذا يؤيد تبعض العلم وكل شيء من كل شيء.

وفيه عن بصائر الدرجات بسند عن الثمالي قال كنت مع علي بن الحسين (عليهما السلام) فانتشرت العصفير وصوتت فقال : يا أبا حمزة أتدري ما تقول؟ قلت : لا قال : تقدس ربها وتسأله قوت يومها ثم قال : يا حمزة ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وعنه عن زرارة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) لابن عباس : أن الله علمنا منطق الطير كما علم سليمان بن داود ، ومنطق كل دابة في بر وبحر. وفي تفسير البرهان ٣ : ٢٠١ محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند متصل عن محمد بن جعفر عن أبيه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : استوصوا بالصنانيات خيرا يعني الخطاف فانه أنس طير الناس بالناس ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أتدرون ما تقول الصنانية إذ هي ترنمت تقول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى تقرأ ام الكتاب فإذا كان في آخر ترنمها قالت ولا الضالين.

أقول : والروايات في انهم علموا منطق الطير وأوتوا من كل شيء علها متواترة.

سليمان ومن فوقه من النبيين ، وما هم بعالمين كل شيء خلافا لما يروى ^(١) وترى «علمنا وأوتينا» . وهو شخص . أهى من سنة الرعونة والكبرياء في الملوك؟ وسليمان من أفضل الصالحين! قد يعني نفسه وأباه داود ، ام ومن معه من النبيين وسائر المعصومين سلام الله عليهم أجمعين ، وكما ﴿آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ .

وقد تلمح «علمنا وأوتينا» برجاحة الإعلان بما أنعم الله أو اختص بكرامته ، كما ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ شرط ألا تمازجه رعونة وكبرياء فان الله منها براء ، بل هو هنا إعلان رسالي تدليلا بذلك العلم على رسالته الى الناس ، فليس فقط تحدثنا بنعمة ربه راجحا غير واجب .

فقد أذاع سليمان هذه العطية الربانية للناس تحدثا بنعمة الله دون مباهاة ولا تنفج على الناس ، وكما يدل عليه بتعقيبه ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ .
وليس منطق الطير وسائر الحيوان . ككل . بالساذج الحيواني دون العقول الإنسانية ، وكما النملة والهدهد تبرزان هذه الحقيقة ، ان لها معارف كما

. وقد يعني ان علمهم عليهم السلام أوسع من علمه كما عن نفس المصدر عن الفيض بن المختار قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) ، ان سليمان بن داود قال : «عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» وقد والله علمنا منطق الطير وعلم كل شيء ، أقول : ولكن الكل نسبي لا يعني ككل ما يعلمه الله ، وانما البعض الأكثر شمولا مما علم وأوتي سليمان .

(١) المصدر عن بصائر الدرجات احمد بن محمد بن خالد عن بعض رجاله عن أبي عبد الله (عليه السلام) وتلا رجل عنده هذه الآية ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فقال ابو عبد الله (عليه السلام) ليس فيها «من» انما هي «أوتينا كل شيء» أقول : انه مضروب عرض الحائط لمخالفته تواتر القرآن وكما في روايات العرض .

للإنسان ام وقد تكون أصغى وأوفى ، وأنها تسبّح بحمد ربها كما نسبّح ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (٢٤ : ٤١) ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٧ : ٤٤) ^(١).

وإنما الميزة البارزة للإنسان بين سائر الحيوان هو التقويم الأحسن فيه قلبا وقالبا ، وانه لا يقف لحدّ ، فله التكامل الى قم عليا من الكمال وأعلى من الملائكة المقربين ، وللحيوان . ككل . مقام محدود ، وحتى بالنسبة للحيوان الذي يتكامل وقليل ما هو ، وان الكمالات الإنسانية روحية وسواها

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٨ . المناقب عن تفسير الثعلبي قال الصادق (عليه السلام) قال الحسين بن علي عليهما السلام : إذا صاح النسر قال : يا ابن آدم أعش ما شئت آخره الموت ، وإذا صاح الغراب قال : ان في البعد عن الناس أنسا . وإذا صاح القنبر قال : اللهم العن مبغضي آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وإذا صاح الخطاف قرء الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدّها القارئ . وفيه في مناقب أبي جعفر الباقر (عليه السلام) وسمع عصفير تصحن قال : تدري يا با حمزة ما يقلن؟ قلت : لا . قال : يسبحن ربي عز وجل ويسألن قوت يومهن . وعن بصائر الدرجات بسند عن فضيل بن يسار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : كنت عنده إذ نظرت إلى زوج حمام فهدر الذكر على الأنثى فقال لي : أتدري ما يقول؟ قلت : لا . قال يقول : ياء سكاني وعرسي ما خلق الله أحب إليّ منك إلّا ان يكون مولاي جعفر بن محمد .

وفيه بسند عن سليمان من ولد جعفر بن أبي طالب قال : كنت مع أبي الحسن الرضا (عليه السلام) في حائط له إذ جاء عصفور فوق بين يديه وأخذ يصيح ويكثر الصياح ويضطرب فقال لي : يا فلان تدري ما يقول هذا العصفور؟ قال قلت : الله ورسوله وابن رسوله اعلم قال : انها تقول ان حية تريد ان تأكل فراخي في البيت فخذ معك العصا وادخل البيت واقتل الحية ، قال : فأخذت النبعة . وهي العصا . ودخلت إلى البيت وإذا حية تجول في البيت فقتلتها .

تتبنى المساعي على قدرها ، والحيوان أوتيت المعرفة بالله غريزيا في كل وظائفها ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾!

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ١٧.

الحشر هو إخراج جماعة عن مستقرهم بازعاج ودفع جماعة ، وهكذا يحشر الجنود المتفرقون في مختلف مستقراتهم لهدف الغزو ، أو عرضهم أمام قائدهم أمّاذا؟ ، والإيزاع هو المنع ، وهنا الحبس عن تفرقهم وحشرهم ان «يحبس أولهم على آخرهم»^(١). فقد أصبح جنوده من الأقسام الثلاثة محشورة مع بعض ، دون سماح لهم بالتفرق والرجوع إلى مستقراتهم لفترة مقصودة فيما أهمه.

و «من» هنا تبعض الجن والإنس والطير ، فلم يكن الكل بأسرهم جنوده ، فمن يبقى بعدهم اجمع حتى يحاربهم؟ أيحارب الحيوان الوحش أو الملائكة آمن هم؟ ولم يتجاوز ملكه ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات! والشيطان . وهو من الجن وزعيمردة الشياطين . لم يكن من جنوده ، ومنهم محاربون له معارضون : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (٢ : ١٠٢) ، ثم الشياطين العمال لم يكونوا كلهم من جنوده ، بل ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (٣٨ : ٣٧) ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (٢١ : ٨٢) ومنهم من لم يطلع عليهم كمملكة سبا حتى أخبره الهدهد! ثم الطير وهي البلايين

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٢ القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية ...

البلايين لم تكن لتحشر عن بكرتها ، ومنها الملايين من الهداهد ، وهو يقول عند تفقد الطير ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَّهَ ..﴾ فهو هدهد خاص بين كل الهداهد ، كان من الطير المشحورة ، ام هو صاحب هذه النبوة الخاصة في هذا الحشر بين عدد من الهداهد.

إذا فجنوده من كل صنف من الثلاثة هم النخبة الصالحة لحرب أعدائه من محاربي الجن والإنس ، المكافحين فيها ، وكيف يأتمن شياطين الجن في الحرب ولهم إدغال وإخلال؟! وأخيرا كيف بالإمكان ان يسافر بذلك الحشد الهائل من كل الجن والإنس والطير حتى يأتوا على واد النمل ، وهو من الوديان الصغيرة المناسبة لطبيعة حال النمل؟!.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ تَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٨.

لقد سار الموكب الملكي الرسالي مصيره ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ ، وترى اين ﴿وَادِ النَّمْلِ﴾ ولها وديان في مختلف الأرض؟ فلو كان واديا كسائر الوديان لكان حق التعبير «واديا للنمل»! فقد تعني ﴿وَادِ النَّمْلِ﴾ واديا خاصا مميّزا عن سائر الوديان لجمهورية النمل العجيبة بين جمهوريات الحيوانات ^(١) وقد ألقت لها كتابات ومنها حياة النمل.

ومما يزيد ذلك التميّز اختصاصا ﴿أَتَوْا عَلَىٰ﴾ دون «مرو على» أو «مروا ب» مما يلمح انه إتيان قاصد دونما صدفة غير مقصودة.

(١) تبلغ اصناف النمل ألفا وتزيد ، وكل صنف يمتاز عن غيره بميّزه ، وكل جمهورية من هذه الجمهوريات لها ملكة أو أكثر ذات جناح ، وقد تتألف قرية النمل من نصف مليون نملة ..

ولأن مملكة سليمان كانت فلسطين الواسعة والعراق ، فقد يكون ﴿وَادِ النَّمْلِ﴾ واديا في فلسطين ^(١) وما يدرينا اين هو منها؟ وكيف هو؟ والنص مقتصر على ﴿وَادِ النَّمْلِ﴾. فبصرت به نملة من النمل فارتاعت لذلك الحشد الحافل ، وخافت على قومها ان تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم على غفلة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فأهابت بهم ان ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾ وقد تلمح ﴿لَا يَخْطِمَنَّكُمْ﴾ وهو الكسر انما تعني فيما تعني كسرهم عن كيان العبودية انعطافا الى زينة الدنيا كما يروى ^(٢).

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٢ عن تفسير القمي في الآية فانه قعد على كرسيه وحملته الريح فمرت به على واد النمل وهو واد ينبت فيه الذهب والفضة وقد وكل به النمل وهو قول الصادق (عليه السلام) ان لله واديا ينبت الذهب والفضة وقد حماه الله بأضعف خلقه وهو النمل لو رامته النجاشي ما قدرت عليه.

أقول قصة حمله على كرسيه هنا تخالف ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا﴾ الدالة على إتيانه بجنوده وكيف تحمله الريح على كرسيه وجنوده مشاة؟ وأما قصة إنبات الذهب والفضة فمما لا نصدقها ولا نكذبها فهي مردودة الى قائلها. وفي البحار ١٤ : ٩٤ يه باسناده الى حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال : ان سليمان بن داود عليهما السلام خرج ذات يوم مع أصحابه يستسقي فوجد نملة قد رفعت قائمة من قوائمها الى السماء وهي تقول : اللهم انا خلق من خلقك لا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب بني آدم ، فقال سليمان (عليه السلام) لأصحابه : ارجعوا لقد سقيتم بغيركم.

(٢) بحار الأنوار ١٤ : ٩٢ ن. ع بسند متصل عن داود بن سليمان الغازي قال : سمعت علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عليهم السلام في قوله عز وجل : فتبسم ضاحكا من قولها . قال لما قالت النملة ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾ حملت الريح صوت النملة إلى سليمان وهو مار في .

أجل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ..﴾ فهل قالت بصوت ناعم أسمع الله سليمان ولا يسمعه أي انسان؟! حيث العدد في الارتعاش الصوتي للإنسان محدود ليس يسمع ادنى منه ولا أعلى ، ام قالت بالتلغراف اللاسلكي أو جهاز الرادار المودوع في قرنيها ، فهي تبادل الخواطر بتلك الوسائل العجيبة ، فتفهم قولها هو من خوارق العادة للإنسان في بعدي مادة الخاطرة وإيصالها دون صوت ، والبشرية اليوم مهما وصلت الى استخدام الرادار اللاسلكي في نقل الأقوال ، لم تصل حتى الآن الى حد نقل الخواطر دون أية وسيلة صوتية ، وحتى إذا وصلت اليه يوما مّا فليست لتفهم خواطر الحيوان أيّا كان ، فانه من تعليم الملك المئان!.

وعلى نملة هذه هي الملكة في واد النمل ، كما يلمح لها تأنيثها . أو الخطيئة الممثلة لها ، فخاطبت النمل خطابها العجيب :

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ..﴾

ويا لمساكن النمل من أعاجيب في هندساتها وتنظيماتها ، وهل أتاك نبأ البيوت التي تتخذها تحت الأرض وتجعل لها أعمدة وبهوات متسعَات :

. الهواء والريح قد حملته فوق وقال عليّ بالنملة ، فلما أتى بها قال سليمان : يا أيتها النملة اما علمت اني نبي الله واني لا اظلم أحدا؟ قالت النملة : بلى قال سليمان : فلم حذرتيهم ظلمي وقلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ قالت النملة : خشيت ان ينظروا إلى زينتك فيفتنوا بها فيبعدوا عن الله تعالى ذكره . وفي العلل : فيبعدون غير الله تعالى ذكره ، وفي العيون : فيبعدون عن ذكر الله تعالى ، ثم قالت النملة : هل تدري لم سخرت لك الريح من بين سائر المملكة (الملكة) قال سليمان : مالي بهذا علم ، قالت النملة : يعني عز وجل بذلك : لو سخرت لك جميع المملكة كما سخرت لك هذه الريح لكان زوالها من يدرك كزوال الريح ، فحينئذ تبسم ضاحكا من قولها. أقول : وللنظر في بعض فقراتها مجال إذ تخالف القرآن أم لا توافقه.

(صالات) في كل بهوة أبواب مفتحات إلى حجر صغيرات تسكن فيها ، وآخر تخزن فيها الحبوب والغلال وبينها الطرق والمسالك والشوارع بحيث تهتدي بها إلى أعلى الأرض وتجتمع من تلك البيوت وبهواتها وحجراتها وأعمدتها قرى كاملة ذات بيوت كثيرة. والأغرب من ذلك أنها قد تملك عدة قرى كأنها مستعمرات تصل بينها بطرق كما تفعل الأمم المتقدمة وتصل بين مستعمراتها بالسكك الحديدية. وهي لا تقتصر على فن واحد من العمارات ، فقد تبني بيوتا فوق الأرضية كما تحتها ، من أوراق الأشجار والأغصان وقصور الخشب المتساقطة من الأشجار العتيقة وتبني مساكن وترى أمام الناظر كأنها آكام ما بين عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدما ، ويكثر ذلك تحت شجر الصنوبر ، ثم نوع ثالث من مساكنها تنحت من الأشجار العتيقة بيوتا كما نتخذ نحن من الجبال بيوتا^(١).

(١) للاطلاع إلى إجمال من حياة النمل راجع الى ما جمعه الشيخ الطنطاوي في تفسيره الجواهر ، مما وصل اليه العلم حتى الآن ، ومما جاء فيه ان النمل تفعل فعل الملوك فتدبر وتسوس كما يسوس الحكام ، فتراه كيف يتخذ القرى تحت الأرض وليبوتها أوراقه ودهاليز وغرفات ذوات طبقات منعطفات ، وكيف تملأ بعضها حبوبا وذخائر وقوتا للشتاء ، وكيف تجعل بعضها بيوتها منخفضا مصوبا تجري اليه المياه وبعضها يكون حولها مرتفعا لئلا يجري اليه ماء المطر. ومن حكمة النمل ان الحبوب المخزونة عندها إذا أصيبت بماء المطر تنشرها ايام الصحو فيقطع حبة القمح نصفين ويقشر الباقلا والعدس والشعير ويقطع حب الكريزة اربع قطع كيلا تنبت ، مما وصل اليه الإنسان بعد تجارب عدة!.

ذكاء النمل :

ومن عجائب تدبير النمل انه رأى رجل ان النمل يتكاثر على شجرة في حقوله فعمد .

وهناك عجائب اخرى في حياة النمل قد يقتضي سردها مؤلفات عدة ، ثم لا نصل
إلى كل اسرارها وكما قال الله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ

. إليها وحفر حولها وماء الحفرة ماء وظن انه نجا منها وبات ليلا خالي البال منشرج الصدر مطمئنا على شجرته
الغالية فأصبح فرأى الورق مغطى بالنمل ونظر الحفرة فوجدها مملوءة بالماء ، وبينما يتفقد السبب إذ رأى اوراقا
متراصة على سطح البركة من شاطئها الى جذع الشجرة والنمل يمر عليها كأنها قنطرة الى حيث تطلع على تلك
الشجرة!

ومن عجائب كدحه في عمله الجبار انه قضى عالم من علماء الرومان طول حياته في التنظر في حال
النمل فشاهد نملة تشتغل طول يومها فحسب ما حفرت وبنته في ذلك اليوم نسبة الى جسمها وشغل الإنسان
وجسمه فوجد انها لو كانت رجلا مشتغلا هذا الشغل لكان يحفر خليجين كل منهما طوله اثنان وسبعون قدما
وعمقه ٥ ، ٤ اقدام ، وأخذ هذا الطين وصنع منه آجرا وبني به اربع حيطان على الأربع الجوانب للخليجين كل
حائط من قدمين الى ثلاثة ارتفاعا ، ونحو ١٥ بوصة سمكا وغلظا ويدعك تلك الحيطان من الداخل فتصير ملساء
وكل هذه الأعمال بلا مساعد آخر في النهار كله مع ان الأرض مملوءة بالأعشاب الصغيرة والأخشاب والأشجار
وجذوعها الهائلة والأرض وعرة المسالك فيها آكام من الردم! سبحان الخلاق العظيم.

قوة النمل :

وقد تبلغ قوة نملة أقوى من إنسان ٣٠٠٠ مرة وكما يروى عن المستر ، د. دى بوا ، العالم الطبيعي انه
قال : رأيت نملة تحمل حصاة من أسفل العرامة إلى أعلاها فوزنت النملة والحصاة وزنا دقيقا بادق الموازين
وقسمت ارتفاع العرمة فوجدت بعد الحساب ان الرجل لكي ينافس النملة في رفع الأثقال يجب ان يحمل حملا
وزنه نصف طن ويصعد به ٢٥ درجة من درجات السلم الاعتيادية ، وقد أكد احد عار في طبائع النمل انه إذا
كان رجل يزن (١٥٠) رطلا وله قوة بالنسبة الى وزنه كقوة النمل لاستطاع ان يحمل على ظهره قاطرتين من اكبر
قاطرات السكك الحديدية من غير ترنح.

وقد روى الأستاذ رفنون ان في افريقيا نوعا من النمل يسمى (بول دوج) يستطيع ان يمشي واثبا وكل وثبة
نحو قدم ، فإذا رام الإنسان ان يجاريه وجب ان يثب الوثبة الواحدة نحو ١٤٤ قدما.

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٦﴾ : (٣٨).

حشم النمل :

ومن عجيب حياة النمل بقره وهو نوع من البعوض النبائي المائل الى الخضرة وهو كثير في الجنائن فالنمل يقنص هذا البعوض ويأخذه إلى عشه ويحميه ويغذيه ، وهذا البعوض يفرز مادة لزجة يستطيعها النمل والعجب انه لا يفرزها ما لم يدغغه النمل بخروطومه وقد حاول دارون ان يجعل بعوضة تفرز عسلها إذ دغدها فلم تفرز شيئا فلما اطلق عليها نملة دغدها فأفرزت العسل.

النمل جراح :

وهل خطر لك ان النمل جراح حاذق ، ففي البرازيل نوع من النمل القاطع للورق يحسن الجراحة كأمهر جراح فمتى جاءت اليه نملة تقاسي من جرح خطرا يستدعي بعض الجنود الاختصاصيين ثم يضم شفتي الجرح معا ويأمر الجندي ان يمسكهما معا بفكيه ويبقى هذا ممسكا بهما الى ان يخيطنهما الجراح على طول الجرح بواسطة خيوط يفرزها من نفسه!.

جبانة النمل :

ومن اغرب الأمور للنمل انه يدفن موتاه في مقبرة خاصة وذلك ان بعض النملات ترفع الجثة بواسطة خراطيمها وتتبعها النملات الأخرى في موكب جليل وتسير جميعا خارج الوكر الى مكان معين تدفن فيه موتاه!.

قرى النمل :

وقرية النمل تتشكل من ستة عشر قسما : ١ . باب القرية ، ٢ . مدخل القرية ، ٣ . مكان الحرس لمنع دخول الغريب ، ٤ . أول طبقة لراحة العمال في الصيف ، ٥ . الطبقة الثانية لراحة العمال في الصيف ، ٦ . مكان تناول الغذاء ، ٧ . مخزن الأقوات ، ٨ . ثكنة الجنود ، ٩ . الغرف الملوكية حيث تبيض فيه ملكة النمل ، ١٠ . إصطبل لبقر النمل مع علفه ، ١١ . إصطبل آخر لحلب البقر ، ١٢ . مكان لتفقس البيض عن الصغار ، ١٣ . صغار النمل ويبيضه ، ١٤ . صغار النمر ، ١٥ . مشق النمل وييمينه جبانة لدفن الموتى ، ١٦ . مشق الملكة. وقد وردت روايات في عجائب شأن النمل ، يراجع فيه الى المفصلات كالبهار وسواه.

﴿.. قَالَتْ غَلَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٨.

خطيبته متأمرة في شعبها تنادي من تحت إمرتها حفاظا عليهم من التحطم ، سياسة قيادية حيادية للنمل الخارج عن مساكنها للحاجة المعيشية ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ عن بكرتكم ، كي ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ ثم حفاظا على كرامة سليمان وجنوده وهي تعرفهم كما هم ، تعقب على ندائه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إذ لا يرون ما تحت اقدامهم ، فلا يحطمونكم عمدا وعداء ، وإنما غفلة لا شعورية! وقد تعني ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جنوده دون نفسه ولكنه لا يناسب إضافة سليمان إلى جنوده في «لا يحطمنكم». وأعجب بنملة من النمل تبرهن ندائها الحيادية بأن ذلك الحشد العظيم من الإنس والجن والطير «لا يشعرون» وهي النملة تشعر تحطيمهم لا عن شعورهم!

أدرك سليمان حالة النملة وهشّ لها وانشرح صدره بها كما يهش الكبير العادل الحنون للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه ، دون ان يضمر أذاه :

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ..﴾ تبسّمة ضاحكة ، فرحة بما عرف ، وتعجبا مما تعرّفت وقالت ، وكيف تبسم ضاحكا وهو دون الضحك آتيا قبله ، فلا تبسّم حال الضحك كي تصح ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾؟ علّه لأنه تظاهر بحالة التبسم وهو ضاحك ، حفاظا على سؤدد الملك ، تبسما يخفي ظاهر الضحك فيه إلى باطنه ، كيلا يجلب انظار جنوده كيف يضحك سليمان لا من شيء يضحكه؟ إذ لم يسمع حالة النمل إلّا سليمان. لقد شعرت النملة عصمة سليمان واعتصام من في إمرته من جنود ، لحد لا يحطّمون النمل قاصدين ، فضلا عن حطم الإنس ، فما لأناس . بعد . لم يشعروا أن الأنبياء

معصومون؟! وترى النملة أرادت بما قالت الحذار عن حطم النمل بحياتها المادية ، ام حيويتها المعنوية إذ خافت هي على النمل . إذا رأيت سليمان وجنوده في تلك الحشمة العالية . أن تتأرجف عما هي عليها فتقع في كفران نعمة الله ، وكما تلمح له قالة سليمان : ﴿أُوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ...﴾. وتحطيم الحيوية اخطر من تحطيم الحياة؟ أم هي مريدة كلا الأمرين ، لا ندري .. وهنا ندرس ان تحطيم النمل وأي حيوان غير مسموح في شرعة الله اللهم إلا دون شعور ، فليشعر الإنسان في مشيه ألا يحطم دون مبرر ، جويا أو بريا أو بحريا ، وكما ندرس كف الأذى عن كل حيوان ، بل ونبات ، حالة الإحرام وفي حرم الله ، فنتمرن هكذا حتى نعيش غير محطمين الضعفاء أيا كانوا وأيان حتى النبات والحيوان فضلا عن الجن والإنسان.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ١٩ .

«فتبسّم» تبسم الفرحة بهذه النعمة الناعمة أن علّم منطق النمل ، فاستفاد منه التحذر عن تحطيمها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مما يشعرونا أن علينا أن نشعر ونذكر من حولنا وتحت أقدامنا ، فلا نتمشى تحطيمًا غافلا لذي روح ، فضلا عما فوقه من تحطيم في تقصّد.

والإيزاع هو الحبس عن التفرق ، حبس الأوّل إلى الآخر والآخر إلى الأوّل وهو هنا حبس طاقات سليمان عن التمزق والتفرق ، جمعا لجوارحه وجوانحه كلها في شكر الله ، وحشرا لطاقاته كلها في خدمة الله ، وهكذا إيزاع للشكر ليس . بطبيعة الحال . إلا بطريقة الوحي والإلهام ، حيث الإنسان . أيا كان . لو خلي وطبعه ، لا يستطيع أن يجنّد كل طاقاته وامكانياته

في سبيل شكر نعم الله كما يحق ويليق بساحته.

فسليمان هنا يتطلب الى ربه ان يلهمه شكر نعمته ، اضافة الى ما تدعوه إليه فطرته وعقليته وشرعته ، شكرا إلهاميا ليس فقط من مقولة الألفاظ ، وليس الشكر . كذلك . قاله تلفظ ، بل هي حكاية عن واقع الشكر بجاذبة أو جارحة ، فقد تعني ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ ..﴾ هنا ما تعنيه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٢١ : ٧٣) ، ثم ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ كخلفية لذلك الإيزاع الحبس الإلهام ، أو هو مصداق عملي للشكر بعد مصداقه الروحي ، فإيزاع الشكر هنا يخلق على الشاكر بكل كونه وكيانه ، وكأنه الشكر بعينه ، بقلبه وقالبه ، ولا يتيسر ذلك الشكر التام الطام إلا بإلهام من الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾!

﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ...﴾ وهي الوحيدة : . لمكان نعمتك . النعمة الرسالية ، معرفية وعملية ، ولحدّ ﴿عَلَّمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾ . ومنطق النمل وسائر الحيوان! وكذلك التي ﴿عَلَى وَالِدَيَّ﴾ : والدي داود حيث أوتي ما أوتي من ملك النبوة السامية ، ووالدي إذ ولدني من والدي بكل طهارة ونزاهة ، دون ما تتقوله التوراة المحرفة ، إن سليمان ولد من امرأة أورياه التي اغتصبها منه داود وحاشاه ^(١) وهو هبة الله لداود

(١) ففي صموئيل الثاني الاصحاح ١١ «وكان وقت المساء ان داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جدا. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي. فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئنها. ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت اني حبلت.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٨ : ٣٠) . ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ (٤٠) فهل إن الهبة الإلهية يولد من امرأة ذات بعل يغتصبها داود؟! .

اجل وان سليمان هو من المشهود لهم بما نقول : واشهد انك كنت نورا في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها» وما هذه الفرية الوقحة التوراتية المزورة إلا تسترا لأهلها وراءها فيما يفتعلون من دعارات وافتضاحات ، وسليمان المفتري عليه يستوزع ربه شكر النعمة الغالية على والديه كما عليه ، ومنها عرض براءته في هذه الإذاعة القرآنية ، قضاء صارما على هذه التهم المزورة.

﴿أَنْ أَشْكُرَ ... وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ دون ما لا ترضاه مهما أنا أرضاه ، وإنما ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ فسليمان الذي يستوزع شكر نعمة الله ، ليس ليقف على حالة الشكر وقالته ، بل و ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ جمعا لشكر العمل إلى شكر الحالة والقالة.

. فأرسل داود إلى يوباب يقول أرسل اليّ اوريا الحثي . فأرسل يوباب اوريا الى داود . فأتى اوريا اليه فسأل داود عن سلامة يوباب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لاوريا انزل الى بيتك واغسل رجلك . الى ان يقول في احتياله على اوريا . اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت .. الى قوله : فلما سمع امرأة اوريا انه قد مات اوريا رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيتها وصارت له امرأة وولدت له ابن ..» .

هذا! وفي إنجيل متى ١ : ٦ . ان داود الملك ولد سليمان من أوريا!

لا فحسب بل داود نفسه ايضا كما في المزامير ٥١ : ٥ : هانذا بالإثم صوّرت وبالخطيئة حبلت بي امي!

﴿.. وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ هنا وفي يوم الدين ، فنراه يضرع إلى ربه بعد ملكه ونبوته بنعمته ان يدخله في الصالحين ، وهكذا تكون الحساسية المرفهة بتقوى الله وخشيته ، والتشوّف والتشرّف إلى رضاه ورحمته في الآونة التي تتجلى فيها نعمته تعالى عليه . والملاحظ في ذلك المسرح من دعاء سليمان والتجاءه انه لا تزهيه زهوة الملك ورعونته ، خلاف كل من يزدهي من الملوك والزعماء بكل زهوة وزهرة ، فهم يسطون كلما ازدادوا سلطة وقوة ، وسليمان يزداد تطامنا في عبوديته وشكر النعمة الربانية عليه قائلا : رب ازعني . كأنه غير موزع : ان أشكر . كأنه غير شاكر : وأن اعمل صالحا ترضاه . كأنه تارك أو مقصر : وادخلي برحمتك في عبادك الصالحين . كأنه ليس من الصالحين ، حين يتخوف على نفسه من غلب النعمة ان تنقلب عليه نعمة ، ملتجيا إلى ربه مستدعيا أن يثبتته على الروحية الرسالية ويزداد.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۚ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٢١ .

«الطير» هنا هي مختلفها من جنوده المحشورين معه في مسيرته ، ولما ﴿تَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ كما تفقد الإنس والجن من جنوده ، فلم يجد الهدهد ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ﴾ مما يلح انه واحد منتخب من الهداهد ، ام قائد في جيش الهداهد ، وتعريفه باللام يخصه بالتفقد ، إما لوحدة في شخصه أم شخصيته القيادية ^(١).

(١) الدر المنثور ٥ : ١٠٥ . اخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا ان سليمان أراد ان يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء وقد كان اعطي من البصر بذلك شيئا لم يعطه شيء من الطير لقد ذكر لنا انه كان يبصر

والتفقد هو تعرّف فقدان الشيء حين فقدته لماذا فقد ، ولمكان «الطير» ككل لم يكن تفقده يختص بالهدهد ، بل يشمل جنود الطير كلها ، فلما لم ير الهدهد من بينها ﴿فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ ..﴾ مما يدل على ان سائر الطير كانت حاضرة لديه وهو يراها . بما فيها سائر الهداهد المجنّدة . إلّا أن تعنى غيّب آخرون من ﴿كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ . ولكنه هنا يعني الهدهد الخاص ، المعين لنوبته في ذلك العرض .

وقد يلمح ذلك التفقد لمدى اليقظة والدقة والحزم من سليمان في عرض جنوده ، حيث لا يتغافل عن جندي واحد من حشره الضخم الهائل من الجن والإنس والطير ، الذي يوزع جمعا لأوله إلى آخره وآخره إلى أوله كيلا يتفرق وينتكت . وليدرس قواد الجنود من سليمان درسهم في هذه المراقبة التامة والتفقد الشامل ، تحكيما لعرى التجنيد ، دوغما تغلب ولا تلقّت .

﴿فقال﴾ هنا قولة جاهرة أمام الجيوش ، ليعلم الجميع ويعرفوا غائبهم ، فلو أسرّه أم أجمل شأن الغائب لكان سابقة سوء لكل الجند إذ لا يعرف المتخلف بعينه ، ﴿فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ ..﴾ ونراه هنا لا يوجه التخلف إلى «الهدهد» حين يتفقده فيفقده ، أخذا بالحائطة متهما نفسه : «مالي» كأنه حاضر وهو لا يراه لنقص في رؤيته ، ام حاجز عن مرئيه ، فلما تأكد من سلامة نظره ، انتقل الى مرحلة ثانية ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ وقد تلمح «كان» للغياب عن الحضور في حشر الجنود ، انه ﴿كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ عن الحشر ، لا انه غاب بعد الحضور ، وإلا لم يكن ل «كان» مكان .

كما قد يلمح جمع «الغائبين» ان هناك غيّب غير الهدهد ، أمن الجن أو

. الماء في الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجاة .

الإنس أو الطير أم ومن الهدهد؟ لا ندري ، إلا أن هناك «غائبين» وعلّ تخصيصه التحذير بخصوص هذا الجندي الغائب ، كان لحاجة حاضرة إليه ، وقد تكون دلالته على موضع الماء كما يروى ^(١) ولأن الغائب عن حشر الجنود

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٣ في بصائر الدرجات بسند متصل عن أبي الحسن الأول (عليه السلام) قال قلت له جعلت فداك أخبرني عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورث النبيين كلهم؟ قال لي : نعم ، قلت من لدن آدم إلى أن انتهى الى نفسه؟ قال : ما بعث الله نبيا إلا ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اعلم منه ، قال قلت : ان عيسى بن مريم كان يحيي الموتى بإذن الله؟ قال : صدقت . قلت : وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير هل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقدر على هذه المنازل؟ قال فقال : ان سليمان قال للهدهد حين تفقده وشك في امره ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ فغضب عليه فقال : ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وانما غضب عليه لأنه كان يدلّه على الماء ، فهذا وهو طير قد أعطي ما لم يعط سليمان وقد كانت الريح والنمل والجن والإنس والشياطين المردة له طائعين ولم يكن يعرف ما تحت الهواء ، وان في كتاب الله لآيات ما يراد بها امر الآن الى أن يأذن الله به مع ما يأذن الله مما كتبه للماضين جعله الله لنا في ام الكتاب ان الله يقول في كتابه ﴿مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ثم قال ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فنحن الذين اصطفانا الله فورثنا هذا الذي فيه كل شيء.

وفيه عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) قال آصف بن برخيا وزير سليمان لسليمان (عليه السلام) أخبرني عنك يا سليمان صرت تحب الهدهد وهو أخس الطير منبتا وأنتنه ريحا؟ قال : انه يبصر الماء وراء الصفا الأصم ، فقال وكيف يبصر الماء من وراء الصفا وانما يوارى عنه الفخ بكف من تراب حتى يؤخذ بعنقه؟ فقال سليمان : قف باوقاف انه إذا جاء القدر حال دون البصر .. وفيه عن المجمع وروى العياشي بالإسناد وقال قال ابو حنيفة لأبي عبد الله (عليه السلام) كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال : لأن الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه وضحك قال ابو عبد الله (عليه السلام) ما .

دون إذن يؤدّب كيلا يكرر غيابه وينتبه الآخرون ف : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾
 مما يلوح ثانية أن الحاجة إليه كانت مدقعة حيوية لصالح الجنود ، وقد يعني شديد العذاب
 نتف ريشه ^(١) ، وأشد منه ذبحه ، أو عذابه هو ما دون ذبحه في الشدة كأن يلقي بعد نتف
 ريشه في الشمس بين النمل ويقرن بالأضداد.

ولكن سليمان لم يكن ملكا جبارا يحكم دون حجة ، ولما يسمع حجة الهدهد الغائب
 ، ولا حكم على الغائب ، فلذلك يبدّل تهديد العذاب والذبح ب ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ
 مُّبِينٍ﴾ فما لم يأت بسُلطان مبین فالحكم كما حكم لأنه عصى ..

وترى الهدهد هو من المكلفين حتى يعصي أمرا فيهدّد بشديد العذاب؟ بصورة عامة
 نعم! فيما يرجع إلى حيونة الشعور بالحبور والمحذور : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ
 بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٦ : ٣٨) ولا
 يعني حشرهم يوم الحشر إلا جزاءهم بما عملوا فضلا وعدلا.
 ثم بصورة خاصة حين يأمر النبي حيوانا أو ينهاه بأمر الله ، وهو يشعر

. يضحك؟ قال : ظفرت بك جعلت فداك ، قال : وكيف ذلك؟ قال : الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى
 الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال ابو عبد الله (عليه السلام) يا نعمان اما علمت انه إذا انزل القدر أغشي
 البصر؟

(١) ومن العذاب الشديد ايداعه القفص ، والتفريق بينه وبين إلفه ، وإلزامه صحبة الأضداد ، أو خدمتهم أو
 خدمة الأقران.

وفي البحار ١٤ : ١١٢ عن تفسير القمي في سرد القصة وقال الصادق (عليه السلام) ... لأعذبنه
 عذابا شديدا : لأنتن ريشه ..

مكانة النبوة ويعرف الله فهو . إذا . مكلف في ذلك الحقل ، مهما لم تشمله الشريعة الإلهية العامة للمكلفين.

فآية الأنعام في وجهة عامة ، وآية النمل هذه في وجهة خاصة برهان قاطع لا مرد له ان الهدهد كسائر الجنود من الطير والجن والإنس كان من المكلفين في حقل التجنيد ، مهما اختصت الشريعة الإلهية ككل بالجن والإنس واضرا بهما من ذوي العقول.

وسلطان مبين من الهدهد الذي يخلصه من شديد العذاب ، هو الحجة التي تبين عذره أن ﴿كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

وفائدة أخرى من ذلك التهديد السماح في تأديب الحيوانات إذا عصت عارفة ولحد القتل ، إلا ان تتبين حجة تعذرهما فيما عصت ، وعدم السماح في إيذاءها دون تقصير ، قصورا أم بغير قصور ، فقد يعمل الحيوان خلاف رضاك وهو لا يعرف رضاك فكيف تعذبه بقصوره ، إلا تنبيهها لكيلا يكرر فعلته شرط أن ينتبه.

فحين تضرب حمارك العاصي في مشيته ، وقد عرّفته واجبه في مشيته ، فما أنت . إذا . بظالم ، انما أنت مؤدب تأخذ حقلك ممن تنفق عليه ، وأما إذا لم تنفق عليه واجب النفقة فله العصيان في واجب الخدمة ، ام إذا لم تعرّفه واجبه ، فلا ضرب هنا وهناك إذ لا تخلف تقصيرا عن واجب الخدمة ، وضربتك هنا وهناك ضربة ظالمة تعاقب بها وقت المعاقبة.

فحذار حذار عن ظلم من لا يجد عليك ناصرا إلا الله ، فانه من اظلم الظلم وأنكاه ، أم كيف تظلم من سخره الله لك ، وذلك مس من كرامة الله ، فلتكرم حيوانا هو تحت إمرتك ، ولتنفق عليه ما يقيم أوده ، ويقوى به على واجبه ، ولتعف عنه ما وجدت إليه سبيلا ، ثم تأديبه تقصيرا عن خدمة

ام تعديا عليك.

عليك ان تراعي الحيوان كما الإنسان ، بل والحيوان أخرى برعايتك إذ لا يقدر . في الأكثر . على الدفاع عن نفسه ، فلا تغتنم سلطتك عليه أن تعتدي عليه . وهكذا ندرس في مدرسة الإحرام أن ظلم الحيوان حرام أيا كان ، إلا ما تستثنيه شرعة العدل وقضية العقل .

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَقِينُ﴾ ٢٢ .

هل إنه «فمكث» سليمان ، فانه ثبات مع انتظار ولم يكن إلا لسليمان ، والهدهد كان ناظرا للرجوع دون مكوث؟ أم «فمكث» الهدهد في تفتيشه عن سبأ وهو بانتظار الرجوع خوفا من سليمان ان يؤنبه أو يعذبه؟ والمعنيان يناسبان ادب اللفظ والمعنى ، فهما . إذا . معنيان ، تقريبا للأول لسابقه سليمان موضوعا للقصة ، وللثاني للاحقه : ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ ..﴾ .

و ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ هو في زمن قريب لمكث سليمان والهدهد ، وغير بعيد أن تعني مكث الهدهد بعد رجوعه ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ عن موقف سليمان ، إذ لم يكن يخافه لغيابه وله حجته وهو عدل لا يجور ، وقد يعني بعدي الزمان والمكان ، وفي الثاني يخص مكث الهدهد والأول يعنيهما ، إذا فقد يعني من ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مثلت المعنى وهو غير بعيد .
﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ..﴾ مفاجأة . بداية لقاء سليمان . تطغي على موضوع غيابه ، وتكسر من حدة الغضب الملكي بغيابه ، حيث يترفع

عليه علما بما جهل وحيطة بما لم يحيط به.

وكيف تحيط الهدهد علما بما لم يحيط به سليمان وهو نبي معصوم؟ ذلك حيث العلم المحيط ككل مختص بمن يحيط بكل شيء ، ثم الحيلة بما لا صلة له لازمة للرسالة ليست لزام الرسول ، فله ان يعلمه مثل الهدهد دون الرسول ، وقد يروى انه «سئل علي (عليه السلام) وهو على منبر الكوفة عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال السائل ليس مكانك هذا مكان من يقول : لا أدري ، فقال (عليه السلام) : بلى والله هذا مكان من يقول : لا أدري ، واما من لا يقول ذلك فلا مكان له ، يعني به الله (١).

فقد كان المستول عنه بين ما يختص علمه بالله ، ام لا صلة له بالرسالة والإمامة.

﴿.. أَحْطَتْ .. وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وقد سميت سورة من القرآن بسبأ ، حيث اختصت بهم آيات سبع منها ، طبا لدورهم الحائر وكورهم البائر في دركاتهم السبع من نوازل البلاء بعد منازل الترح والخيلاء.

ونبأ سبأ اليقين هو خبر ذو فائدة عظيمة رسالية لسليمان لتصل دعوته إلى هؤلاء الضالين الساجدين للشمس من دون الله.

وتراه كيف يصدق في دعواه . وبين الشام واليمن مسيرة شهر أو أكثر . يصدق أنه طار في مكثه غير بعيد مسيرة شهرين في سفرته المرجعة إلى اليمن ومنه إلى الشام؟ إنه حري به ان يحتمل صدقه كما ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ ..﴾ حيث المجال مجال خوارق العادات ، فما قاله النملة الحكيمة العاقلة وتفهم سليمان بأقل عجا من هذه السفرة الطائلة ، ولا تجند الطير له والجن بأقل خارقة منها.

(١) تفسير روح المعاني ١٩ : ١٨٨ .

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٣.

«تملكهم» هي الملوكية المطلقة العنان وكأهم عبيدها ، وقد تعني «تملكهم» الملك والملك معا ، فإن عنى الملك أتى بلفظه الخاص «امرأة ملكة» فقد عنى الأمرين وذلك انحس استبداد واستعباد.

فالسطة المالكة للشعب هي الاستبدادية كما تؤيدها ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ مهما دلت ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ على لون من الشورى الملكية ، إلا أن «في أمري» هي امر السلطة المتأرجفة بما هدها سليمان ، فاضطرت الى استفتائهم ، ولا تدل ﴿حَتَّى تَشْهَدُون﴾ بعد ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ إلا على أنها كانت تقطع أمورها برأيها على مشهدهم ومرآهم ، وعلة دون شورهم وهواهم كما هو طبيعة الحال في الملكية ، وقد تعني «تشهدون» شهودهم لقطع أمرها كرئيسة للشورى ، ولكنها لها أمرها فيها إلا أن تقنع بعدم صلوحه لحقل الحكم ، كما في قصتها الحاضرة إذ لم تقبل آراءهم وخطأهم فيما رأوا.

﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هي بمناسبة «تملكهم» ليست إلا من كل الأشياء الملكية ، دون ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لداود وسليمان فانها بمناسبة الملكية الرسالية هي من لزامات السلطة الرسالية من خوارق العادات.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ما يدل على عظمها في سلطتها الملكية ، فهو عظيم في كونه ، عظيم في كيانه السلطوي على شعبها ، فما العرش إلا رمزا للسلطة الملكية ، وقد خص بالذكر بين الحزم الملكي وثرأه وسعته وجنوده المجددة ورعيته المطيعة المملوكة ، لأنه يكفي اشارة نموذجية إليها كلها.

ومملكة سبأ واقعة جنوبي الجزيرة باليمن ، وقد كانت في تلك الفترة

تملكها امرأة :

﴿وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ٢٤ .

وتراهم حين ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إذا
فهم قاصرون في ضلالهم حيث يخلي الله بينهم وبين الشيطان ليزين سوء اعمالهم فيحسبونها
حسنة ، فهم . إذا . مصدودون عن سبيل الله ولذلك لا يهتدون؟ .

ولكن الشيطان لا يقدر على ذلك التزيين والصد إلا لمن يطيعه تخلفا عن الهدى ،
وتجلبا الى الردى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ والشيطان يزيدهم ضلالا على ضلالهم ثم الله
لا يحول بينه وبينهم جزاء وفاقا لما ضلوا وهم مبصرون ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ
شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٤٣ : ٣٦)
﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ..﴾ (٤١ : ٢٥) .

ولقد كان الهدهد يعرف الله والشيطان والشمس والملكة وقومها ، ونظر إلى جو
المملكة فوجد ما وجد ، وأنبا سليمان كما وجد ، مما يدل على عقلية بارعة مؤمنة للهدهد ،
وسليمان يسمعه دونما مهانة له ولا استصغار ، على صغاره وعظم نباءه وخارقة سفره! مما
ينبّه السلطات الملكية أن الإصغاء إلى المنبئ أدب بارع مهما كان صغيرا وكان نبأ غريبا محيرا
وبعيدا عن التصديق ، وهو في نفس الوقت متخلف لغيابه دونما استئذان! . وهنا بعد عرض
النبا يلحق تلحيفا رساليا كأنه رسول أو مرسل من جانب الرسول :

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ ٢٥ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٢٦ .

فان كانت الشمس تخرج بعض الخبء إشراقا عليه من ظلمة ، فالله يخرج كل خبء في السماوات والأرض دون إبقاء ، والشمس ايضا من خبئهما حيث أخرجها من دخان السماء وأشرقها!.

ومهما نحتمل ان الآيتين هما من كلام الله دون نقل لكلام الهدهد ، حيث السجدة واجبة عند سماعه أو استماعه أو قراءته ، ولكنه يناسب وكونه كلام الهدهد ، لأنه على أية حال كلام الله ، نقلا أم سواه ، وظاهر السياق انه من كلام الهدهد تفسيرا لثالث الشيطانات : ﴿وَزَيْنَ .. فَصَدَّهُمْ .. فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وان كان ايضا كلامه تعالى في ذلك المسرح ام هو الذي يفسر الثالث بما فسر ، فاحتملان . إذا . معنيان ، وأعجب بعظة الهدهد في ذلك الموقف الحرج ، ما ينقلها الله في القرآن ويصدقها ، سبحانه الخلاق العظيم! و «ألا» هنا مشددة «أن لا» كعطف تفسير ل «أعمالهم» ف ﴿وَزَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ﴾ ايجابية إذ ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وسلبه ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ..﴾ و «أن» هنا تفسيرية ف «لا يسجدوا» نهي عن السجود لله بعد الأمر بالسجود لغير الله ، معاكسة المضادة ل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهما خطوتان رئيسيتان من خطوات الشيطان في صده عن سبيل الله.

فكلمة التوحيد بادئة بالسلب وخاتمة بالإيجاب تأكيداً للإيجاب الذي هو خالص التوحيد.

وكلمة الإشراك بادئة بإيجاب العبادة لغير الله ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وخاتمة بالسلب ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ لا توحيدا ولا اشراكا ، توحيدا في السجود لغير الله! و «الخبء» مصدر بمعنى المفعول مبالغة في معناه وهو الاستتار

الشديد ، إذا فهو المستور الأشد فلا تدركه الحواس الظاهرة ولا العقول الباطنة ، فما تدركه الحواس بآثاره قد يخرجها الإنسان في محاولات علمية ، وما تدركه العقول بآثاره قد تخرجه في محاولات عقلية ، واما «الخبء» المستور عن كل الإدراكات ، البعيد عن تناول العقل والعلم ، فالله هو الذي يخرجها في السماوات والأرض.

و «الخبء» هنا يعم كل خبء ، ١ . من المادة الأولية التي كانت خبأ في علم الله ٢ وقدرته ، فأخرجها الى الوجود ، ٣ . ثم زيد الأرضين ودخان السماوات المخرجان من تفجرة المادة الأولية ، ٤ . ثم كل منهما من أصله الثاني : دخان السماء وزيد الأرض فكانت السماوات وكانت الأرضون ، ٥ . ثم اخرج خبء الماء من السماء وخبء النبات من الأرض بماء السماء ، ٦ . ثم كل خلق من شيء في كل منهما وفي تبدلات كيميائية وفيزيائية ، مادة الى طاقة وطاقة الى مادة أماهيمه و ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، ٧ . ثم الخواطر المخبوءة لكل عن كل فقد يخرجها الله تعالى بعباد مخلصين ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ، ٨ . ثم النيات والعقائد والأقوال والأعمال المخبوءة يوم الدنيا بعد مضيها حيث يخرجها الله يوم الأخرى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ...﴾ ..

ولكن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تختلف ظرفا وسواه في هذه الثمانية ، ففي الأربعة الأولى ليست السماوات والأرض ظرفا لإخراج الخبء فإنهما هما الخبء فيهما على اختلاف مراحلهما ، فالمعنى إذا «يخرج الخبء الكائن في السماوات والأرض» لا انه يخرجها فيهما. ثم في الخامس والسادس هما ظرفان لإخراج الخبء حيث يخرج الله فيهما كل خبء من خلق جديد شيئا من شيء ، فيهما ، وفي السابع ظرف الإخراج خاص لعباد الله الخصوص ، وفي الثامن هو الآخرة ، ف ﴿يُخْرِجُ﴾

الْخَبَاءُ ﴿الكائن في السماوات والأرض﴾ يخرج به بعد انقطارها ، في يوم الجزاء.

ومن الخبء وأخبأه وحي النبوة ، فانه غيب عمن سوى الله ، يخرج به عن غيب علمه في أم الكتاب الى غيوب القلوب الرسالية ملائكية وبشرية ، مراحل تسع من الخبء الذي يختص إخراج به الله دون سواه ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ من سر أو أخفى ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فلا خبء لنا ولا غيب إلا وهو خارج عنده دون إخراج ، وإنما يخرج لنا الخبء في السماوات والأرض. وذلك هو «الله» دون سواه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما هو ، وهو لا سواه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ السلطة الشاملة على كل خبء بإخراجه وإدراجه في مختلف مدارج الكون ، دون عرش ملكة سبأ وسواها من ملوك لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

هذا العرش الضئيل الذليل الرذيل الذي يؤتى به قبل ارتداد طرف من مسافة شهر ، وتأتي صاحبته الى سليمان طائعة مستسلمة مسلمة ، فأين عرش من عرش ، واين صاحبة عرش من صاحب عرش ، فلا تشابه بينهما إلا في الاسم!

هنا وبعد ما تم العرض من الهدهد لسبب الغياب ، وان الله أخرج خبء سبأ لسليمان بما غاب جندي له عن حشره ، هنا لا يتسرع في تصديقه لزهوة الاتساع في ملكه ، ولا تكذيبه لاستصغاره وانه ادعى حيلة له علمية أحوط من سليمان الملك النبي ، وإنما يأخذ في التفتيش عن نباه تأكدا من صدقه او كذبه :

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٢٧ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ٢٨.

«سننظر» هنا هي نظرة الواقع انتظارا ، كما هي النظر في الواقع فلا

تحصل إلا نظرة نفس الواقع ، دون نبيا آخر من شاهد آخر ، ثم المحمل لذلك التحقيق هو الهدهد نفسه ، قطعاً لعذره ، وحملًا عليه ما ادعاه من سفرته البعيدة لوقت قريب غريب ، دون سائر الأمناء : عفريت من الجن آمن عنده علم من الكتاب ، فأحسن بنظر في أمر يحمله صاحب الدعوى فيه!.

﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا﴾ الذي كتبتة إليها وقومها ﴿فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بهاء السكت في كل القراءات دون كسر ، دون أعطه إياهم ، علّه كيلاً يأخذوك فيذبجوك أو ياسروك ، وانما «ألقه» وطبعاً من فوقهم جواً أو كوةً ، ولكي ينتبهوا من الإلقاء نفسه انه امر خارق للعادة ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الى مكان بعيد عن أخذك ، غير بعيد عن نظرك ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ «فانظر» إليهم نظر البصر والسمع ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ القول بعضهم الى بعض ، و «يرجعون» كلهم إلينا ، و ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ردة فعل بعضهم الى بعض ثم إلينا ، ثم خبرنا بما «يرجعون».

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٠ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ﴾ ٣١.

ذهب بكتابه المختوم غير المعلوم فألقاه إليهم ، وطبعاً إليها كأصل في خطابه كما النص ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ﴾ دون «إنا» مهما كان خطاب الكتاب الى الكلّ ، وقد تلمح «ألقي» المجهول انما لم تعلم من ألقاه وكيف ألقاه مهما عرفت متاه ، فلو كانت عارفة لأعلنت هذه العجيبة المنقطعة النظير ، عجباً على عجب الإلقاء ، بعجب ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ولتحرّز الملاء أكثر مما حرضتهم على إفتاءهم في أمرها.

«قالت» بعد ما قرأت الكتاب ، وهو طبعاً كان بلغتها لكي تفهمه ﴿يَا

أَيُّهَا الْمَلَأُ وهم ملأ الحاشية الملكية المساعدة للسياسة في المملكة **﴿إِنِّي أَقْيِي إِلَيْ﴾** إذ تلقته بإلقاء دون إيتاء ، فهو تلقّ خلاف المتعود من لقيا الكتاب ولكنه **﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾** وطبعا من كريم ، فكتاب الكريم كريم الى أيّ كان ، وكتاب اللّئيم لئيم الى أيّ كان ، وليدرس الدعاة الى الله كيف عليهم ان يكتبوا كتاباتهم الدعائية الى اضدادهم ، فضلا عن أعضادهم ، وكما نرى كتابات الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) الى الملوك والشيوخ وسائر الزعماء ، كيف تحوي كرامات وكرامات ، وقد أثرت في الأكثرية الساحقة منهم حسنا.

لقد كانت لغة الكتاب الكريم وصيغته تحمل كل حزم وجزم ، ابتداء بيسم الله وانتهاء إلى الإسلام لله ، ولم يكن ليخفى صيت سليمان وصوته عن الملكة وملئها ، وعلى أية حال فقد حق كرم الكتاب رغم دعوته المرة عندها ، لحد تصارح ملأها رغم ملكتها البارزة أمامهم ، انه **﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾**.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ مجردا عن كل مواصفة وتعريف به ، إذ كان معروفا لديها وسائر الملوك «وانه» فالتأكيد الأول يؤكد كونه من سليمان ، والثاني مضمونه في عرضها لمتنه الكامل ، وقد تلمح «إنه» هنا وهناك انهما تعليلان لبيان كرم الكتاب ، فكونه من سليمان من كرمه ، وافتتاحه بسم الله الرحمن الرحيم ، من أكرمه ، حيث المشركون كانوا يتعقدون في الله انه رب الأرباب ، فلا يتأنفون . بطبيعة الحال . عن ذكر اسمه ، بل ويؤصلونه في عبادتهم لأصنامهم : **﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾** . **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾** ! ف **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** افتتاحية بارعة ترعبها ، وهي أفضل آية في الوحي كله ، وعلّها تختص الرسالة القرآنية ، ومن قبل

لسليمان (عليه السلام) ، وكونها في النمل دليل قاطع لا مرد له انها آية من كتاب الله خلاف ما يزعمه البعض من إخواننا السنة إذ لا يتدعون بها في الفاتحة أم وسواها من السور.

فكيف يصح كونها آية في النمل وليست آية في سواها وليست هي إلا هيه؟! وهنا ندرس الأدب في مفتاح كل كتاب مهما كان الى المشركين ، وليعلموا شرعة الكاتب وعقيدته.

ثم ﴿أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ هو كل محتوى الكتاب ، مسنودا الى البسملة ، ف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ لا باسمي وبسمة الملك والقوة ، وإنما بسم الله ، فالعلو علي كرسول علو على الله ، وإتياني مسلمين إتيان في الإسلام لله ، فقد فسر متن الكتاب فرعا من فروع ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ و ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ف ﴿أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ هي «لا إله» ﴿وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فقد كان الكتاب «بسم الله . و . لا إله إلا الله»!.

ثم ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ ..﴾ كمتن الكتاب ، قد تلمح أن سليمان كتب اسمه آخر الكتاب وكما هو قضية الحال في أدب الكتاب الحاوي اسم الله ألا يقدم عليه اسم لسواه. وهنا ﴿أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ دون ﴿عَلَيَّ اللَّهُ﴾ تفسر ﴿وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ان ليس هو . فقط . الإسلام لله ، بل هو بالفعل إسلام لسليمان ، مهما كانت النتيجة الإسلام لله ، فكما قالت ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد تعني ﴿أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ كرسول ، علوا على رسالة الله ، إذا ﴿وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ لله ، ولكنه قد يكون تكليفا بالإسلام قبل وصول الحجة ، فليأتوا

مسلمين له حتى يجدوا مجالا لإسلامهم لله.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ ٣٢.

بطبيعة الحال هؤلاء كانوا ملأ الفتيا السياسية في البلاط ، لا كل الملأ العائشين تحت إمرتها ، والفتوى من الفتى : الطري من الشباب ، فهي النظرية الفتية فيما يطرح من هامة المسائل التي هي محط السئوال والقيـل والقال ، ف «افتوني» تعني ابدوا لي بالرأي الفتى الناضج «في أمري» الإمر بأشد المآزق السياسية الملكية ، حيث حار دونها لبها ، فليشر عليها المشاركون معها في صالح الملك ، لا سيما وانني لا أخبئ عنكم امرا أقطعه في سياسة البلاد ، وقد ابتليت بأمر هو المحور الأصيل فيها ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ كسرا : حتى تشهدوني كيف أقطعه ، استصوبا له بمشهدكم ، وقطع الأمر هو الرجوع بعد إجمالة الآراء ومخض الأقوال الى رأي واحد يصح العزم على فعله ، والعمل عليه دون غيره ، تشبيها بالإسداء والإلحام في الثوب النسيج ، ثم القطع له بعد الفراغ منه ، فكأنها أجمالت الرأي عند ورود ما ورد عليها من دعاء سليمان لها الى الايمان به والاتباع له فميلت بين الاجابة والامتناع والملاينة والمخاشنة ، فلما قوي في نفسها امر الملاطفة عزمت على أمرها ، وذلك هو قطع الأمر.

وحيث الكتاب الملقى إليها بمضمونه زلزل كيائها وكسر من سورتها فهي لا تضر حربا ضد سليمان ، وإلا فلما ذا المشورة ، إلا ان رجال الحاشية حسب عادتهم أبدوا قوة واستعدادا للحرب ، وخضوعا لأمرها على أية حال :

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ٣٣.

«نحن» بكامل استعدادنا للحرب ﴿أُولُوا قُوَّةً﴾ عدّة وعدّة ، لا فحسب بل و ﴿أُولُوا بِأْسٍ شَدِيدٍ﴾ تقدّما لكافة قواتنا واستعداداتنا للذب عن العدو ، وعلى أية حال «والأمر» الملكي امرا أو نهيا في كل مأزق «إليك» وليس إلينا ، مما يؤكد أن السلطة كانت فردية استبدادية ، مهما تشاورت الملكة في هذا الأمر الخاص ، ولكنهم عطفوه الى أمرها المتداول على سائل الأحوال «فانظري» أنت في نفسك ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ولكنها في موازنة القوة بين الجانبين مالت إلى سلاح الحيلة والملاينة ، قبل سلاح المخاشنة ، وبطبيعة الحال حين تنحل المشكلة بملاينة لا تصلح المخاشنة ، فتمهيدا للمصالحة تنذرهم بإفساد الملوك المتغلبين في الحروب حين تلمح ميل رجال الحاشية الى الحرب فزيفت هواهم وسفهت رأيهم في شوراها ، وأبانت لهم ان الصلح خير وإن أحضرت الأنفس الشح ، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة البداية بالتي هي أحوط واحسن ف :

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

.٣٤

هذه شيمة الملوك وطبيعتهم قضية زهوة الملك والتوسع فيه ، فإذا دخلوا قرية أفسدوها عن بكرتها ، إباحة لدمارها وانتهاكا لحرمتها ، وتحطيمًا للقوات المدافعة عنها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا﴾ المحافظين لمكتها «اذلة» تذليلا لعناصر المقاومة فيها «وكذلك» البعيد البعيد عن الكرامة «يفعلون» بطبيعة أحوالهم.

ومما يطفئ نائرتهم ، ويسكن نائرتهم وفائرتهم إعلان الحب وإعلام الود بذريعة

«هدية».

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ .٣٥

ولماذا «بهدية» ومرسلة متعددة بنفسها؟ لأن مفعولها محذوف هو المرسلون بها ، ولماذا «إليهم» دون «إليه»؟ علّه حفاظا على سؤددها وجبروتها ، كأنها لا تحسب هنا حساب الشخص ، ام انها تحسبه مثلها مشاورا ملأه في امره كما شاورت ملأها في أمرها ، أم لأن الهدية تهدء من ثورة الحاشية فيهدء الملك ..

هدية هي في الحق تجربة ، فان قبلت فما أمرهم إلا الدنيا وبالإمكان ان تعالج المشكلة بها ، حيث وسائل الدنيا تحدي في حل مشاكلها ، وان لم تقبل فهو . إذا . أمر العقيدة ، فلنبتعها إن صحّت بحججها ، فلما إذا المحاربة المفسدة المذلة المدمرة (١)؟.

إنما ترسل هديتها برسلها زعما منها ان سليمان ملك كسائر الملوك الذين لا يريدون بالقتال إلا فتح البلاد وغنم الأموال وأسر العباد ، فعملت وفق ما زعمت وأرسلت إلى سليمان ما أرسلت.

هنا يسدل الستار على واقع تصميمها في ذلك المشهد المتضارب الآراء ، وإلى مشهد الهدية الواصلة الى سليمان :

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ٣٦.

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٩ عن تفسير القمي في القصة : ثم قالت : ان كان نبيا من عند الله كما يدعي فلا طاقة لنا به فان الله عز وجل لا يغلب ولكن سأبعث اليه بهدية فان كان ملكا يميل إلى الدنيا قبلها وعلمت انه لا يقدر علينا فبعث حقة فيها جوهرة عظيمة وقالت للرسول قل له يثقب هذه الجوهرة بلا حديد ولا نار فأتاه الرسول بذلك فأمر سليمان ببعض جنوده من الديدان فأخذ خيطا في فمه ثم ثقبها وأخذ الخيط من الجانب الآخر ..

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرسول بالهدية مهما كان معه غيره ﴿سُلَيْمَانَ قَالَ﴾ : «أتمدوني» :
تجذبوني امدادا «بمال» ضئيل قليل وكل متاع الدنيا قليل ، أو تمهلوني لكي أمهلكم ، أو
أهلكم في دعوتي «بمال» أو تؤجلوني تأخيرا عن دعوتي «بمال» إمدادا ضد الدعوة الرسالية
«بمال»؟.

وهو بطبيعة الحال أقبل عليهم قبل إبراز المال بوجه طلق يرحب بقدمهم ويتهلل
للقائهم كما هو دأب الداعية الربانية بالنسبة لكل وارد أو شارد ، ثم استشف غرضهم من
وفودهم وتعرف رأيهم ، فتقدموا بما حملوه من مال يبتغون بها رضى وقبولا من النبي الكريم.
و «الهدية على ثلاثة أوجه هدية مكافأة وهدية مصانعة وهدية لله عز وجل» ^(١).

ولو كانت الهدية هدية التحية كان يقبلها ، كيف لا وقد قبل فخذ جرادة من نملة؟
ولكنها كانت هدية المصانعة والتعمية عن الدعوة ، رشاء لعينا بديلا عن تصميم الداعية ،
فاستنكر موقفهم استهزاء بالمال ، وانها هدية مضلة في مجال التعويض عن عامة الدعوة
الربانية ، أتقدمون هذا الرخيص التافه البخيس وعندى خير منه ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ﴾ كرسول
ملك ﴿خَيْرٌ بِمَا آتَاكُمْ﴾ على الإطلاق ، وحتى في كل المنال ، فضلا عن خير الحال والكمال
، فما عاد شيء من عرض الأرض التافه يسرني ، فكيف يرضى مثلي ان يمدد بمال يصانع به
دعوة ربه ، ولا يلهيني عن دعوتي ملء الأرض ذهباً ، ولا يحيطتها ملكا.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ في مقياس الملك بقسطاس الزهوات والشهوات
والمعطيات المادية ، وانا لست ممن يصانع الملكة بما لها أو جمالها ،

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٦ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام).

اللهم إلا بإيمانها وكما لها ﴿بَلْ أَنْتُمْ حَدِيثِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ونحن بقضيتنا فارحون ، وابن هدية ملكية من قضية رسالية؟.

أنتم تهشون بهذه القيم التي لا قيمة لها عندنا؟ ولا نحسبها في حساب ، إلا ما يرضي ربنا!.

هنا «آتاني» بين لا ريب فيه لسليمان فانه ككل عطية ربانية ، فكيف تقابله «ما آتاكم» وليست السلطة الجبارة الملكية مما آتاه الله؟.

الجواب ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ...﴾ فكل المحاولات للحصول على الملك فاشلة إلا ان يشاء الله ، ولكنها مشية الحنة والعذاب للملك الجابر : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا مُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٣ : ٥٦) فالملك الحق يحمل المشية التشريعية الربانية الى التكوينية ، والباطل يحمل الثانية وتخيرا دون تسيير ، ألا يحجز . أحيانا . بين طالب الملك وطلبه ، مهما حجزه تشريعا . وكيف يخاطبهم وهم رسل الملكة ﴿أَتَمْدُونَنِي .. مِمَّا آتَاكُم﴾ ولم يكن الإمداد إلا من الملكة ، ولا إيتاء الملك إلا لها؟.

«أتمدونني» تعنيها بحاشيتها الملكية ورسلاها الأعضاء ، حيث الهدية كانت بهم أجمع مهما كانت هي الأصل ، ثم في تعبير الجمع تصغير لشأنها ، قصدا الى دمجها في ملئها إذ لا يرى لها شأنًا تليق به ان تذكر باسمها أو رسمها وكما قالتها هي ﴿إِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ...﴾ إذ دجت سليمان في ملاءه ، وهكذا يعنى من «ما آتاكم» حيث العطية الملكية تشملهم مهما كانت هي الأصل ، فهم بأجمعهم يحملون أوزار الملك بأوضاره .

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

«ارجع» خطابا للرسول الأصل ، وكما قال من قبل ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرسول بالهدية «إليهم» الملكة بملئها ، وطبعا رجوعا بالهدية إذ لم يقبلها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ : لا طاقة لهم في قبالتها ومقابلتها في عدة أو قوة أو قوة^(١) تهديدا شديدا لهم ، حيث الهدية كانت ناطقة بأنهم غير آتية مسلمين ، وقد تطلب منهم في كتابه : ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَاتُّونِي مُسْلِمِينَ﴾. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ بعد ما كانوا أعزة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ، فقد يخرج المحارب من بلده ذليلا غير صاغر ، بل هو مكابر تذله القوة ، ولكنهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ حيث يلمسون الذل والصغار بكل كيانهم أمام جنود الله.

ولأن سليمان تلمح من حالة الملكة وقالتها وهويتها أنها لا تريد العدا ، بل ويدفعها ذلك التهديد الحديد أن تأتيه بملئها مستسلمين ، لذلك يعد لها عدة لإتيانها إياه صاغرة مستسلمة ، فحاول في إحضار عرشها قبل حضورها لتفاجأ برؤيته فتدفعها إلى إسلامها بعد استسلامها ، حيث إن في هكذا مفاجأة لرؤيتها عرشها حجة بارعة ربانية^(٢) بعد حجة الكتاب الملقى إليها.

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ٣٨.

وهنا «الملاء» بطبيعة الحال هم الملاء القيادي سياسيا وروحيا ، لأنهم من أعضاء الملك الرسالي ، فهم النخبة المنتخبة من كل الإنس والجن الذين

(١) البحار ١٤ : ١١٢ وقال الصادق (عليه السلام) ... ﴿لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ يقول : «لا طاقة لهم بها».

(٢) نور الثقلين ٤ : ٨٧ عن جوامع الجامع يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان فجعل عرشها في آخر سبعة أبواب ووكلت به حرسا يحفظونه فأراد سليمان ان يريها بعض .

هم في حيطته الرسالية الملكية ، وليعرف بالنخبة بينهم اقترح عليهم ﴿يَأْتِينِي بَعْرَشُهَا﴾ فتقدم في ذلك السباق ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ فتبين انه الشخصية الثانية بعد سليمان (عليه السلام).

وتراه متى «قال ..» أدون فصل عن رجوع المرسلين ولما يصلوا؟ وصيغته الفاصحة «وقال ..» عطفًا على «ارجع» ثم و ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي﴾ تلمح لما قبل وصولهم لا قبل شروعهم في سفرهم ، فهنا اقتراح للإتيان بعرشها عنده قبل إتيانهم إياه ، وليست خارقة العادة في الإتيان بعرشها إلا أن يكون بعد خروجها ثم وصوله قبل وصولها ، وحراك العرش بطبيعة الحال . أبطأ من حراكهم ، فليصل بعدهم ، فوصله قبلهم حجة إلهية ، إضافة إلى أنه لم يكن له التصرف في عرشها بعد ان يأتوه مسلمين ، ثم وأراد أن يختبر عقلها ﴿نَنْظُرُ أَهْتَدِي﴾ ولا يجوز تنكير عرشها بعد إسلامها ، ولا تستفيد منه حجة إذا أتى به بعدها! كما وأراد ألا يبقى لقلبها تعلق بما وراءها حين تأتبه مسلمة وقد كانت تحب عرشها هائمة فيه! ولكن يبقى مجال القول في ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ إنه قبل رحيلهم حالة إسلامهم ، كما تؤيده قولها بعد ما رأت عرشها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وليؤكد سليمان أحلامها أمر أن ينكروا عرشها اختبارا لفراسرتها ومدى إسلامها.

وهل عجز سليمان نفسه عن أن يأتي بعرشها قبل قيامه من مقامه أم قبل أن يردد إليه طرفه ، فتطلب إلى ملاه ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشُهَا﴾؟ طبعًا لا ، فانه كان إمامهم وأقوى منهم كلهم في كل ما لهم ومنهم ، ثم «ولم يعجز سليمان عن معرفة آصف لكنه أحب أن يعرف أمته من الإنس والجن أنه الحجة من بعده وذلك من علم

سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته كما فهم سليمان في حياة داود ليتعرف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق»^(١)

فقد امتاز من بين الملأ عفريت من الجن بين الجن ، والذي عنده علم من الكتاب بين الأنس ، وليعلم من هو أخرى بخلافته بين الجن وبين الإنس ، فامتاز آصف بن برخيا وزير سليمان ، انه هو خليفة بين الملأ كلهم.

﴿قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾

.٣٩

يقال : عفريت من الجن هو المارد الخبيث! وكيف مارد؟ وهو أول المستجيبين لسليمان في مهمة إلقاء الحجة الرسالية! وكيف خبيث؟ وهو ﴿عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾؟! وقضية القرآن البيان ان يرد على دعواه في قوته وأمنه لو كان خبيثا ماردا! والمارد الخبيث من الجن يعبر عنه بالشیطان كما ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾^(٢).

(١) البحار ١٤ : ١٢٧ روى العياشي في تفسيره بالإسناد قال التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى عليهم السلام ويحيى بن أكنم فسأله عن مسائل قال : فدخلت على اخي علي بن محمد عليهما السلام بعد ان دار بيني وبينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له جعلت فداك أن يحيى بن أكنم سألتني عن مسائل أفتيه فيها فضحك فقال فهل أفتيته؟ قلت : لا قال : ولم؟ قلت : لم اعرفها قال : وما هي؟ قلت : قال اخبرني عن سليمان أكان محتاجا إلى علم آصف بن برخيا؟ ثم ذكر المسائل الأخرى قال : اكتب يا أخي : بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان ..

(٢) البحار ١٤ : ١١٠ عن تفسير القمي في تفصيل القصة .. فلما اخبر الله سليمان بإقبالها نحوه قال للجن والشیاطين «أيكم يأتي بي بعرضها قبل ان يأتيوني مسلمين. قال .

ثم «عفريت» لغويا من عفره في التراب : مرَّغه ودسَّه فيه ، إشارة إلى قوته ، كما التعفير هو المس بالتراب ، ومن معاني العفريت النافذ في الأمر مع دهاء ، وقد يكون تفسيره بالخبيث المنكر تفسيرا لا لغويا ، دون سناد إلى أية حجة إلَّا تناقله بين المفسرين!.

وكما الذي عنده علم من الكتاب كان أفضل من سواه بين الإنس ، فليكن عفريت من الجن أفضل من سواه بين الجن ، وعله من مرسلهم ، وكيف يؤتى المارد الخبيث من الجن تلك القوة الخارقة ولا يؤتاها المؤمن التقي منهم وبينهم رسل الجن؟.

و ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قد تعني قيامه عن شغله المرسوم في سلطته ، وهو يناسب نصف النهار وإلى ساعة ودقيقة وقل منها ، إذ لم يعلم متى . هي . قالة عفريت .

أم قيامه من مقامه تحديد زمني قدر ما يعرف من الزمان لمجرد القيام عن الجلوس؟ كلَّ محتمل ، وعَلَّ الثاني اضبط وأفضل ، حيث الأوَّل لنا غير محدّد ، فلا يناسب كتاب البيان ، ولكن العبارة الصالحة عنه «قبل قيامك» لا ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾! وقد تكفي في ذلك المجال معرفة الحاضرين عنده بمدى قيامه من مقامه ، ولنا اجماله ، وكما في ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إذا فالأوَّل أولى ، وأبعد تقدير لذلك القيام وهو نصف نهار ، يكفي خارقة للعادة في الإتيان بعرشها فيه من مسيرة شهر للسفر العاديين فضلا عن عرشها ، ثم القادر على ان يأتي به في ساعة أم سويعات من مسيرة

. عفريت (من عفريت الجن) ﴿أَنَا آتِيكَ ..﴾ أقول لو كان العفريت شيطانا ماردا لما تحول عن الشيطان الى ﴿عَفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾. وفي الدر المنثور ٥ : ١٠٨ . اخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله : قال عفريت من الجن ، قال : عظيم كأنه جبل .

شهر ، قادر على الإتيان به في ثوان.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ٤٠.

أترى من ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هنا؟ وما هو الكتاب؟ وما هو علمه؟ وكيف أتى بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه وهو بحاجة إلى سرعة هائلة ودون موانع في الطريق لا تناسب وجسم العرش بثقله؟

هل ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هو من الجن ، عفريت أقوى من الأول؟ وتعبيره الصالح «عفريت آخر»! ثم تقابله لعفريت من الجن يحكم أنه من الإنس! وكيف يحرم مؤمنوا الإنس عما يقدر عليه عفاريت الجن ، والإنس أفضل من الجن . ككل . ولا سيما في المجال الرسالي أصالة ووصاية ..

أم هو سليمان نفسه مخاطبا عفريت الجن ، حيث «الذي» للإشارة إلى شخص معين معلوم ولا معلوم هنا إلا سليمان نفسه وقد مضى دور العفريت ولا ثالث هنا معروفا في السياق ، وان القدسية الخاصة المتميزة لسليمان تقتضي ان تكون الخارقة بيده لا سواه؟.

لكنه لا يلائم السياق الفاصح الواضح ، حيث ان سليمان هو المتطلب لإحضار العرش عنده ، فكما ﴿أَنَا آتِيكَ﴾ لعفريت الجن تعني إتيانه إلى سليمان ، كذلك ﴿أَنَا آتِيكَ﴾ للذي عنده علم من الكتاب ليس يعني إلا سليمان ، كما «مقامك» و «رآه» و «عنده» و «قال ..» كلها تعني سليمان المحضر عنده العرش! وحين يأتيه بعرشها أحد من حواشيه ، لم يكن

هذا ليدل على أنه أقوى منه وأحرى^(١) بل انما يدل على أن الآتي به بأمره يصلح أن ينوبه حيا وميتا! ثم «الذي» بوصفها تعرّف مكانة الآتي به مسنودا إلى لياقته ولباقته ، ومكانة سليمان عرفت من ذي قبل بأكثر من ذلك!

أم هو «خضر» (عليه السلام)؟ قد يجوز في نفسه ولكنه لا دليل عليه يتبع ، مهما كانت لخضر مكانته العالية ، ثم لا رجاحة له على من سواه في ذلك المسرح مهما كان أرجح منهم في سواه ، حيث النص : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ولم يكن خضر من ملئه وحواشيه وأعضاده الملكية.

إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه وخليفته كما في متظافر الأحاديث. ومنها ما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): ذاك وصي أخي سليمان بن داود^(٢).

وأما الكتاب! فهل هو كتاب التشريع؟ وكثير هؤلاء الذين يعلمونه تماما وفوق ﴿عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ اللاحقة إلى بعض العلم ، ولا يقدرّون على

(١) قد مضى رواية العياشي عن علي بن محمد الهادي عليهما السلام وفيه : وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته ..

(٢) نور الثقلين ٤ : ٨٨ في روضة الواعظين للمفيد قال ابو سعيد الخدري سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قول الله جل ثناءه ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ذاك ..

ومثله ما عن بصائر الدرجات عن جابر عن الباقر (عليه السلام) وعن عمر الحلال عن أبي عبد الله (عليه السلام) وعن عيون الأخبار عن عمر بن واقد عن موسى بن جعفر عليهما السلام ، وعن الكافي عن أبي الحسن صاحب العسكر علي الهادي (عليه السلام).

ذلك ولا ما دونه من خارقة ربانية! وليس الإتيان به من الوقائع الشرعية المكلف بها مدراء
الشرعة حتى يكفيهم علمهم بها لتحقيقها!.

أم هو كتاب التكوين . المعبر عنه في أحاديثنا بالاسم الأعظم وله ثلاثة وسبعون حرفا
، وقد أوتي الذي عنده علم من الكتاب حرفا منه وأوتي الرسول محمد (صلى الله عليه وآله
وسلم) وأهل بيته المعصومين ذلك الاسم إلا حرفا واحدا؟.

والتكوين والتشريع هما من مختصات الربوبية علما وقدرة ، وليست الآيات الرسالية مما
يعلمها أو يقدر عليها الرسل ، والرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أول العابدين
وأفضل العارفين لم يكن عنده هذه الآيات محولة : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ
آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦ : ١٠٩).

فإنما الرسل مجاري لتحقيق الآيات الرسالية بإذن الله على أيديهم ، لتدل على
اختصاصهم بالله ورسالتهم من الله ، فقد خاف موسى من حية تسعى محولة عن عصى
﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ فلو كانت آية بعلمه وقدرته لما خافها.

وفي عيسى ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ وهو القدرة الإلهية بعلمهما المصدر لآياته
وسائر أفعاله الخاصة به.

وما علم آصف بن برخيا بجنب علم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالكتاب إلا
كقطرة من يم (١) فهل هو بعد كان عنده علم من كتاب

(١) تفسير البرهان ٣ : ٢٠٤ عن الكافي عن إبراهيم بن هاشم عن سليمان عن سدير قال : كنت أنا وأبو بصير
وميسر وبحي البزاز وداود الرقي في مجلس أبي عبد الله (عليه السلام) إذ خرج إلينا وهو مغضب فلما أخذ مجلسه
قال عجباً لا قوام يزعمون أنا نعلم .

تكوين لم يكن عند محمد؟!

قد يعني «الكتاب» هنا كتاب المعرفة الربانية ، فكلما كانت معرفة الله أكمل فأيات الله الجارية بإذنه على ايدي العارفين به أكثر وأكمل.

فعلم الكتاب كله يختص بالله ، إذ لا يعرف الله حق المعرفة إلا هو ، ثم المعرفة القمة الممكنة لمن سوى الله هي التي كانت لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهليه المعصومين ، وهي تنقص حرفا واحدا من كتاب المعرفة الكاملة ، وهو حرف الذات القدسية ، ثم الاثنان والسبعون حرفا الباقية ^(١) من

. الغيب ما يعلم الغيب إلا الله لقد هممت بضرب خادمتي فلانة فذهبت عني فما عرفتني في أي البيوت هي من الدار فلما ان قام من مجلسه وصار إلى منزله دخلت انا وأبو بصير وميسر على أبي عبد الله (عليه السلام) فقلنا له جعلت فداك وسمعناك تقول في امر خادمك ونحن نعلم انك تعلم علما كثيرا لا ينسب إلى علم الغيب؟ فقال : يا سدير ما تقرأ القرآن؟ قلت : قد قرأناه جعلنا الله فداك فقال هل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قلت جعلت فداك قد قرأته قال فهل عرفت الرجل وعرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال قلت فأخبرني حتى أعلم ، قال : قدر قطرة من المطر الجود في البحر الأخضر ما يكون ذلك من علم الكتاب ، قلت : جعلت فداك ما اقل هذا؟ قال يا سدير ما أكثره لمن لم ينسبه إلى العلم الذي أخبرك به يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ والله عندنا ثلاثا.

(١) المصدر بصائر الدرجات محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن محمد بن الفضيل عن ضريس الوابشي عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام قال قلت : جعلت فداك قول العالم ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فقال : يا جابر ان الله جعل اسمه الأعظم ثلاثة وسبعين حرفا فكان عند العالم منها حرف فأخسفت الأرض ما بينه وبين السرير التفت القطعتان وحول من هذه على هذه وعندنا اسم الله الأعظم اثنان وسبعان حرفا وحرف في علم الغيب.

أقول : وبهذا المعنى استفاضت الأحاديث عنهم عليهم السلام.

ذلك الكتاب تعني معرفة الله القمة لهم عليهم السلام إلا معرفة الذات ، فهم مهما حرموا من حق معرفته الخاصة به «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادك» ولكنهم زودوا المعرفة الحققة الممكنة في حقهم ، فهم يعرفون الله بكل حروف المعرفة وجوانبها إلا حرف الذات وجانبها.

والحرف الواحد من هذا الاسم الأعظم المختص بالله ، هو جانب الذات وصفات الذات وحقيقة الصفات الفعلية ، وسائر الحروف وهي سائر الجوانب المعرفية ، مقسمة بين المخلصين من عباد الله ، وكلما ازدادت هذه الحروف المعرفية ، زاد الله صاحبها حملا لشرعته ، ومظهرا لآيات علمه وقدرته : «عبي اطمعني حتى أجعلك مثلي انا أقول للشيء كن فيكون ، وأجعلك تقول للشيء كن فيكون» مهما اختلفت «كن» التكوينية من الرب ، عنها في المربوبين ، فانها فيهم بأمر الله دون توكيل ولا تخويل ، ف ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ دون سواه ، ف ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المعرفي في الاسم الأعظم ، يأتي به قبل ان يرتد إليه طرفه ، فأوتي من فوق سليمان وآصفه ما فوقهما من الخوارق وكما يروى عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام ^(١).

(١) ومما ورد في علمهم عليهم السلام أفضل من آصف ما في عيون الأخبار باسناده إلى عمر بن واقد قال : إن هارون الرشيد لما ضاق صدره مما كان يظهر له من فضل موسى بن جعفر عليهما السلام وما كان يبلغه عنه من قول الشيعة بإمامته واختلافهم في السير اليه بالليل والنهار خشية على نفسه وملكه ففكر في قتله بالسم . الى ان قال . : ثم ان سيدنا موسى (عليه السلام) دعى بالمسيب وذلك قبل وفاته بثلاثة ايام وكان موكلا به فقال له يا مسيب! قال : لبيت يا مولاي ، قال : إني ظاعن في هذه الليلة إلى المدينة مدينة جددي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأعهد إلى ابني علي ما عهدت إلي أبي وأجعله وصيي وخليفتي وأمره أمري ، قال المسيب : فقلت : يا مولاي كيف تأمرني ان افتح لك الأبواب .

وهذه الحروف المعرفية من الاسم الأعظم يمنحها الله لمن يشاء ، فهي الكتاب المعني هنا ، فلا يعني الاسم الأعظم مقولة اللفظ ، إذ لا اسم لفظيا

. وأقفاها والحرس معي على الأبواب؟ فقال : يا مسيب ضعف يقينك بالله عز وجل وفينا؟ قلت : لا يا سيدي قال : فمه؟ قلت : يا سيدي ادع ان يثبتني فقال : اللهم ثبته ، ثم قال : إني ادعو الله عز وجل باسمه العظيم الذي دعا به آصف حتى جاء بسرير بلقيس ووضع بين يدي سليمان (عليه السلام) قبل ارتداد طرفه اليه حتى يجمع بيني وبين ابني علي بالمدينة ، قال المسيب فسمعتة (عليه السلام) يدعو ففقدته عن مصلاه فلم أزل قائما على قدمي حتى رأيته قد عاد إلى مكانه وأعاد الحديد إلى رجله فخررت له ساجدا لوجهي شكرا على ما أنعم به علي من معرفته ...

أقول : وما أهم السرعة الهائلة الخارقة لإنسان دون تحوّل إلى طاقة فإنها الموت . من السرعة في جماد لا حياة له فلذلك يقول ابو عبد الله (عليه السلام) في رواية سدير عنه يا سدير الم تقرء القرآن؟ قلت : بلى . قال : فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ قال قلت : جعلت فداك قد قرأته ، قال فهل عرفت الرجل وهل عرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال : قلت اخبرني به ، قال : قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر ، فما يكون ذلك من علم ، قال قلت جعلت فداك ما اقل هذا؟! .

وفيه في الخرائج والجرائح روي ان خارجيا اختصم مع آخر إلى علي (عليه السلام) فحكم بينهما بحكم الله ورسوله فقال الخارجي : لا عدلت في القضية ، فقال (عليه السلام) اخسأ يا عدو الله ، فاستحال كلبا وطار ثيابه في الهواء فجعل يبصص وقد دمت عيناه فرق له فدعا الله فأعاده إلى حال الإنسانية وتراجعت إليه ثيابه من الهواء ، فقال : آصف وصي سليمان قص الله عنه بقوله : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ أيهما اكبر على الله؟ نبيكم ام سليمان؟ فقليل : ما حاجتك إلى قتال معاوية إلى الأنصار؟ قال : إنما ادعو على هؤلاء بثبوت الحجة وكمال المحنة ولو أذن لي في الدعاء لما تأخر .

وفي البحار ١٤ : ١١٥ عن الاختصاص للمفيد بسند متصل عن ابان الأحمر ، قال قال الصادق (عليه السلام) يا ابان كيف تنكر الناس قول امير المؤمنين (عليه السلام) لما .

له ثلاثة وسبعون حرفاً! وحتى لو كان فلا أثر لما دون كل حروفه وان نقص حرفاً واحداً فضلاً عن حرف واحد منه! ثم ولا تأثير للعلم بالاسم اللفظي

. قال : لو شئت لرفعت رجلي هذه فضريت بها صدر ابن أبي سفيان بالشام فنكسته عن سريره ولا ينكرون تناول آصف وصي سليمان ، عرش بلقيس وإتيانه سليمان به قبل ان يرتد اليه طرفه؟ أليس نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل الأنبياء ووصيه أفضل الأوصياء؟ أفلا جعلوه كوصي سليمان (عليه السلام) حكم الله بيننا وبين من جحد حقنا وأنكر فضلنا.

أقول : وفي الأثر المستفيض ان من عنده علم الكتاب هو علي (عليه السلام) وبنوه المعصومون ومن أخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١ : ٣٣٦ عن عبد الله بن عطاء ما لفظه : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا ان الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : انا ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والدشتكي الشيرازي في روضة الأحياء والسيوطي في الإتقان ١ : ١٣ حيث قال : وقال سعيد بن منصور في سننه حدثنا ابو عوانة عن أبي بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ﴾ أهو عبد الله ابن سلام؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية ، ومنهم الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٤٩ نقله عن المحدث الحنبلي انه روى عن أبي حنيفة انه قال ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو علي (عليه السلام) لشهادة قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : انا مدينة العلم وعلي بها ونقل عن الثعلبي في تفسيره عن عبد الله بن سلام انه سئل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الآية؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : انما هو علي (عليه السلام) ، وسليمان القندوزي في ينابيع المودة ١٠٢ ، وروى الثعلبي وابن المغازلي بسنديهما عن عبد الله بن عطاء قال : كنت مع محمد الباقر رضي الله عنه في المسجد فرأيت عبد الله بن سلام فقلت هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال : إنما ذلك علي بن أبي طالب (عليه السلام) وروى الثعلبي وأبو نعيم بسنديهما عن زاذان عن محمد بن الحنفية قال ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ علي بن أبي طالب (عليه السلام) وروى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الآية ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ

أيا كان ، فاسم «الله» و «هو» هما أعظم الأسماء الإلهية على الإطلاق ، ولا تأثير لهما بمجرد العلم بهما ولقلقة اللسان فيهما فضلا عن اسماء سواهما وهي كلها دونهما!.

وفي الحق إن الاسم وهو الدال على مسمى ، هو واقعه بدلالة واقعية ، والاسم اللفظ هو المعرفة الكاملة بالله وهي الاسم الأعظم معنويا ، فالذي عنده علم من الكتاب منحه الله ما يأتي به العرش من مسافة شهر قبل ارتداد الطرف! وطبعا بدعائه ربه دونما استقلال ، فهل أتى به دون تغيير ولا تحوير فيه ولا في مسيره؟ وموانع الجدران والأنتال والأشجار تمنعه! وسرعة السير هكذا تحوّل ، فان لكل عنصر قابلية خاصة لسرعة ما ، لو تجاوزها لتجاوز عن كيانه إلى ما يقبلها!.

قد يقال ان ذلك كله بسيط بجنب القدرة الإلهية ، ما لم يكن محالا ذاتيا ، وكما في السرعة المعراجية فوق الضوئية بملايين الأضعاف لاجتياز تلك المسافة الهائلة مرجعا في سويحات؟ ولكن المركبة الفضائية المعدة للسفرة المعراجية كانت تحافظ على الحياة الروحية والبدنية لصاحب المعراج دونما تحويل (راجع تفسير سورة النجم من الفرقان).

. الكتاب» قال : ذلك اخي سليمان بن داود ، وسألته عن قول الله عز وجل : ﴿قُلْ كَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال : ذاك اخي علي بن أبي طالب (عليه السلام) وروى في المناقب عن احمد بن محمد عن موسى بن جعفر عليهما السلام وعن زيد بن علي (عليه السلام) ومحمد بن الحنفية وعن سلمان الفارسي وعن أبي سعيد الخدري وإسماعيل السدي أنهم قالوا في الآية : هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) (ملحقات احقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين الحسيني المرعشي ٣ : ٢٨٠ . ٢٨٢).

وعلى أية حال فلا بد لهذه السرعة الهائلة للعرش من خارقة هي مصدقة فلسفيا وعلميا ، وقد أثبت علم الفيزيا إمكانية تحول كل من المادة والطاقة إلى الأخرى ، وواقع التحويل معروف على ضوء المحاولات الجادة العلمية المتحضرة الحاضرة.

وقد اثبت العلم إمكانية تحويل المواد إلى طاقات وأمواج بالإمكان إرسالها سريعا لإرسال الصور التلفزيونية والأصوات الراديوية أماهيه ، مهما لم يقدر العلم حتى الآن على تحقيقه.

فقد يجوز أن عملية الإتيان بالعرش في هذه السرعة الهائلة كانت بتحويلها إلى طاقة وأمواج ثم استجلاهما بسرعة تناسب ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ثم رجعها إلى ما كانت عرشا كما هو ، إذا فهو مثلث من خوارق العادات دون محاولة علمية تجريبية ، وإنما بما أراد ابن برخيا بقدرة الله ، دون إرسالية للأمواج المحولة عن العرش في مكانه ، بل هو استرسال من مسافة شهر بارادة آصف مزودة بمشيئة الله!

وقد يعنيه المروي عن أئمتنا عليهم السلام «ان آصف بن برخيا قال لسليمان (عليه السلام) مد عينيك حتى ينتهي طرفك ، فمد عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله قبل ان يرد طرفه» (١)!

فلا يعنى غوره ذهابه في الأرض كما هو مثل الماء الغائر ، حيث نبع ولا ينبع العرش بحاله كما لا يغور ، بل يلمح غوره إلى تحوله إلى غيره من طاقة لطيفة ، فكما الماء يغور في جانب من الأرض ثم ينبع من جانب آخر ، كذلك

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٧ في جامع الجوامع وروى ان آصف بن برخيا ...

غار العرش في الجو غور الطاقات الموجية ، ثم نبع عند مجلس سليمان كما كان.
وقد يعنيه ايضا انخساف الأرض وانخراقها بينه وبين العرش تأويلا له بانخراق جو
الأرض ، إذ لا يكفي في تخطي هذه السرعة الهائلة . فقط . تحويل العرش إلى الأمواج ، فلا
بد لها من تعبيد المسيرة الجوية خرقا وخسفا حتى تتم الخارقة الربانية كما تمت وهذه خارقة
رابعة.

والظاهر من ارتداد الطرف هو التقاء الجفتين بعد افتراقهما ، فجفن العين هو دائم
الانطباق والافتتاح كعملية أوتوماتيكية دون ارادة ، كما تلمح لها «يرتد» دون «يرد» وذلك
أبلغ ما يوصف به في السرعة ، وقد يعنيه «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» بعد «كَلَمْحِ الْبَصَرِ» ف
«قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ» أقل من طرفه إلى أن يبلغ إلى واحد الزمان الأم^(١).

فليكن غور العرش تحولا له إلى ابسط طاقة موجية كأخفها وزنا وأسرعها قابلية للحركة
لكي تجتاز مسيرة شهر في واحد من الزمان أم يزيد لأقل من ارتداد الطرف.
ومهما استطاع العلم في مستقبل ان يحوّل . حسب المحاولات والمعادلات الفيزيائية .
مادة إلى طاقة موجية ولما ، فليس بمستطاعه . وإن بلغ القمة المستطاعة لمن سوى الله . ذلك
المريع البارع من خرق العادة بمجرد المشيئة ودون محاولة عملية إلاّ دعاء^(٢) فتلك . إذا . هي
من آيات الرسالة

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٨ بصائر الدرجات عن أبي عبد الله (عليه السلام) ... ثم عادت الأرض كما كانت اسرع
من طرفة عين ..

(٢) نور الثقلين ٤ : ٩٢ عن مهج الدعوات في دعاء العلوي المصري عن علي (عليه السلام): الهي واسألك
باسمك الذي دعاك به آصف بن برخيا على عرش ملكة .

الربانية ، وهي هنا كحجة ثانية لاهتداء الملكة إلى الله كما اهتدت فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

كلام حول تبدل المادة طاقة وموجة

فالذرة هي طاقة متكاثفة معقدة كما الطاقة هي ذرة منطلقة متحررة ، ولا اختلاف بينهما إلا بالتكاثف والانتشار ، والعلم الحديث بدء بمحاولة تبديل المادة إلى طاقة خالصة ، أي نزع الصفة المادية للعنصر بصورة نهائية ، وذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية لـ «البرت انيشتاين» إذ تقرر أن كتلة الجسم نسبية وليست ثابتة ، فهي تزيد بزيادة السرعة ، كما تؤكد التجارب التي أجراها علماء الفيزياء الذرية على الإلكترونات التي تتحرك في مجال كهربائي قوي ، ودقائق (بيتا) المنطلقة من نويات الأجسام المشعة^(١).

ولما كانت كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد حركته ، وليست الحركة إلا مظهرا من مظاهر الطاقة ، فالكتلة المتزايدة في الجسم هي إذن طاقته المتزايدة.
فلم يعد في الكون عنصران متمايزان أحدهما المادة التي يمكن مسّها ،

. سبأ فكان اقل من لحظ الطرف حتى كان مصورا بين يديه ..» وفيه (٩٠) عن الامام علي الهادي (عليه السلام) كان عند آصف حرف فتكلم به فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبأ .. ومثله في سائر روايات القصة انه دعا ، فلم تكن منه المشية دون دعاء ، أو عملية علمية تجريبية.
(١) يقال اولى الاستحالات التي حصلت لعنصر ثابت كانت في ١٩١٩ م بواسطة رادفورد بآلية ساذجة جدا وقد فصل في كتاب الطاقة الذرية من السلسلة العلمية : ماذا أدري ص ٦١.

وتتمثل لنا في كتلة ، والآخر الطاقة التي لا ترى وليست لها كتلة ، كما كان يعتقد العلماء سابقا ، بل أصبح العلم يعرف أن الكتلة ليست إلا طاقة مركزة.

ويقول انيشتاين في معادلته ان : «الطاقة كتلة المادة* مربع سرعة الضوء ، وسرعة الضوء ٨١٦٠٠٠ ميلا في الثانية» كما ان الكتلة الطاقة / مربع سرعة الضوء ، وبذلك ثبت ان الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ليست في الحقيقة إلا طاقة متكاثفة ، بالإمكان تحليلها وإرجاعها إلى حالتها الأولى.

فهذه الطاقة هي الأصل العميم للعالم في التحليل الحديث وهي التي تظهر في اشكال مختلفة وصور متعددة : صوتية ومغناطيسية وكهربائية وكيمائية وميكانيكية أمأهيه؟ ، وعلى هذا الضوء لم يعد الازدواج بين المادة والإشعاع بين الجسمانيات والموجات ، أو بين ظهور الكهرب على صورة مادة أحيانا ، وظهوره على صورة كهرباء أحيانا أخرى ، لم يعد ذلك غريبا ، بل أصبح مفهوما بمقدار ، ما دامت كل هذه المظاهر صورا لحقيقة واحدة هي الطاقة.

ولقد أثبتت التجارب علميا صحة هذه النظريات ، إذ أمكن للعلماء ان يحولوا المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة.

فالمادة تتحول إلى الطاقة عن طريق التوحيد بين نواة ذرة الهيدروجين ونواة ذرة ليشيوم ، فنتنتج عن ذلك نواتان من ذرات الهليوم ، وطاقة هي في الحقيقة الفارق بين الوزن الذري لنواتين من الهليوم ، والوزن الذري لنواة هيدروجين ونواة ليشيوم.

والطاقة تتحول إلى المادة عن طريق تحويل أشعة «جاما» وهي أشعة لها

طاقة دون وزن ، تتحول إلى دقائق مادية من الإلكترونات السالبة والإلكترونات الموجبة ، التي تتحول بدورها إلى طاقة ، إذا اصطدم الموجب منها بالسالب .
ومن أعظم التفجيرات للمادة الذي توصل إليها العلم ، هو التفجير الذي يمكن للقبلة الذرية والهيدروجينية أن تحققه ، إذ يتحول بسببها جزء من المادة إلى طاقة هائلة .
وتقوم الفكرة في القبلة الذرية على إمكانية تحطيم نواة ذرة ثقيلة بحيث تنقسم إلى نواتين أو أكثر من عناصر أخف ، وقد تحقق ذلك بتحطيم النواة في بعض أقسام عنصر اليورانيوم ، الذي يطلق عليه اسم اليورانيوم ٢٣٥ نتيجة لاصطدام النيوترون بها .
وتقوم الفكرة في القبلة الهيدروجينية على ضم نوى ذرات خفيفة إلى بعضها ، لتكون بعد اتحادها نوى ذرات أثقل منها ، بحيث تكون كتلة النواة الجديدة أقل من كتلة المكونات الأصلية .

وهذا الفرق في الكتلة هو الذي يظهر في صورة طاقة ، ومن أساليب ذلك دمج أربع ذرات هيدروجين بتأثير الضغط والحرارة الشديدين ، وإنتاج ذرة من عنصر الهليوم ، مع طاقة هي الفارق الوزني بين الذرة الناتجة والذرات المندمجة وهو كسر ضئيل جدا في حساب الوزن الذري .

رجوع إلى الآية بتكاملتها :

﴿فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾ استقرارا عن تلك السرعة الهائلة ، واستقرارا إلى أصله عن الموجة المحول إليها ، فقد تمت في ذلك الاستقراء خوارق أربع تكفي كل واحدة حجة بارعة .
﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ ليس من فضلي أنا ولا آصف ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾
بلوى حسنة تبرز شكرانا أم كفرانا بهذه

النعمة السابغة الفائقة وسواها مما أنعم به عليّ ، ولقد استشعر أن النعمة كهذه الخارقة البارقة ابتلاء مخيف ضخّم ، أمامها مسئولية هامة خطيرة ، فالمنعم بحاجة إلى يقظة ليجتازها سليما مسلما شاكرا ، فان زهرة الحياة وزهوة النعمة قد تدفع الإنسان إلى الكفران ، بل هو طبيعة الحال إلّا لمن اعتصم بالله فعصمه الله.

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ دون ربه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رِيَّ غَنِيٍّ كَرِيمٍ﴾ غني عن ان يشكر ، وغني عن ألا يكفر ، فإنما الشكران والكفران راجعان إلى الشاكر والكافر.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ٤١.

﴿نَكِّرُوا لَهَا﴾ غيروا معالمه المميزة له بحيث لا يعرف لأوّل وهلة ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ إلى عرشها المستأنس لها طيلة ملكتها ، وكان من حقها في نظرها البدائية ألا تعرفه لتنكره واستبعادها الإتيان به بهذه السرعة.

ومن خلال ذلك الهدي «تهتدي» إلى ربها حيث تجوزّ خارقة السرعة ، اهتداء ذا بعدين في ذلك المضمار ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ كملاها الذين كانوا معها ، إذ لم يهتدوا لا إلى معرفة العرش ، ولا بمعرفته إلى معرفة الله ، وهنا تعرّف سليمان إلى ذكائها وإسلامها بذلك الاختبار والاعتبار.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ٤٢.

هنا ينكر السؤال ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ دون «أهذا» كما نكر عرشها ، فهو بين مثلث من التنكير ثالثه بعد المسافة وسرعة السير ، وانها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال ، فأين عرشها في سبيل وعليها أقفالها

وحرّاسها ، وابن بيت المقدس بمسيرة شهر ، وكيف جيء به ومن ذا الذي جاء به؟ ولكن العرش رغم كل ذلك التكبر هو عرشها ، وهي تعرفه ، فانتهدت إلى جواب محتاط أريب أديب : ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فروسية بارعة في مواجهة هذه الظاهرة المريبة العجيبة ، وما قوله «كأنه هو» في هذه المجالة المريبة إلا تصديقا لأنه هو وكما يؤيده ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فانه في ظاهر السياق من قولها تثبيتا ل «كأنه هو» وانها بعد ليست بحاجة إلى آية للإسلام.

وقد يعني الضمير المؤنث في «قبلها» آية العرش ، فقد علمنا من إلقاء الكتاب إلينا ومن مضمونها أنك على حق ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وما قصة الهدية إلا تأكّدة لما علمنا أنك لست من أهل المتع الدنيوية ، ويا للعرش آية مؤكدة لآيات سبقته ، وقد كان من قبل عرشا للسلطة المشتركة ، وهكذا يبدل الله آية الضلال آية الهدى.

وقد يعني ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ أن عرشها أتى به قبل ارتداد طرف وهي بعد في قصرها ، حيث فقدته بأسره دون ان تفتح الأبواب أو ترى حملة يحملونه ، وصالح الآية البينة يقتضيه حتى تعزم على الرحيل إلى سليمان مسلمة عارفة بالقضية ، مهما كان إسلام التسليم أم إسلام الاستسلام ، ولكنها أسلمت بعد مع سليمان لله رب العالمين.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ٤٣ .

الصد ، بمعنى الفصل المانع ، يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد وهو هنا «ها» الملكة ، و ﴿مَا كَانَتْ ..﴾ فاعله . بطبيعة الحال . فالواو . إذا . حالية ، والمصدود عنه هو سبيل الله ، فهي تقول هنا ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ حال انها قبل استسلامها وإسلامها صدها ما كانت تعبد من دون الله عن عبادة

الله ، فانها كانت من قوم كافرين ، وقد زال ذلك الصد . منذ بلوغها كتاب سليمان إلقاء إليها ، ورجوع المرسلين بهديتها بما حملوه من تهديد . زال لحد الاستسلام ، ثم هنا الإسلام «وأسلمت ..» ، واحتمال ان فاعل الصد هو سليمان بما فعل ، أو العرش بما تحول وارد ، مهما لا يحتمل كل بمفرده إذ يقتضي تقدير «عن» ل «ما» تعدية إلى ثاني المفعولين ، والجمع بينهما أحلى وأحرى ، فكما صدها ما كانت تعبد من دون الله ، عن الله ، كذلك وبالمآل صدها سليمان والعرش عما كانت تعبد من دون الله ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ إذا ف «ما كانت» فاعل ومفعول ، ويصح الثاني ضمن الأول حذفاً للجار فيه ودون حذف في فاعله.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٤ .

«الصرح» هو القصر العالي ، ثم ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ و ﴿مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ ترفعانه على أرضية قارورية فوق الماء ، لذلك حسبته في تلك المفاجأة البديعة لجة الماء ، و ﴿كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ دليل على عمق طفيف للماء خفيف ، لا يخاف منه الغرق.

فقد ﴿كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ كيلا تبتلّ ، وبعد خوض المفاجئة كشف لها سليمان عن سرّ الصرح ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ وهو المملّس منها ، لا فقط تملّسا أرضيا إذ ليس إلّا أرضه ، والنص «صرح» فليكن كله مملسا من قوارير ، ومنه أرضه القائمة قواريرها على الماء ، لحد يحسبه غير العارف بحاله أنه لجة.

وهنا تقف الملكة مفجوة مندهشة أمام هذه العظمة المنقطعة النظير

للملك النبي^(١) فترجع عقليتها متصاغرة أمام العظمة الرسالية ، معترفة أنها كانت ظالمة نفسها ف ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في سابق حالي لحد الآن ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دون أرباب مختلفة مختلفة سواء ، والتعويض عن «رب» ب ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ للإفصاح الصريح عن رفضها لسائر الأرباب شمساً وسواها.

ومعية الإسلام هنا تصريح أخرى بخالص الإسلام ، فليس إسلامي لسليمان لأنه وسيط ، وإنما ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ تذرعا برسالته الربانية ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك بعد إسلامها له بمعنى التسليم والاستسلام قبل بلوغ الحجة واتضاح المحجة.

اجل وان رسل الله لا يدعون إلى أنفسهم ، وإنما إلى الله ، فكل من أسلم لله كان معهم كإخوة في الله ، فأين سليمان النبي بأعلى درجات التوحيد ، وملكة سبأ بأسفل دركات الشرك ، بون بعيد لا صلة فيه بينهما ، ولكنما الإسلام لله يرفعها إلى درجة الأخوة مع سليمان ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾!

وتراه تزوج بها؟ قد يلمح له ﴿وَكَشَفْتُ عَنْ سَاقِيهَا﴾ فما أمرها بدخول الصرح وهو يعلم انها تكشف عن ساقها ، إلا قاصدا زواجها فلينظر إلى ساقها كما نظر إليها ، ولو كان القصد مجرد اظهار العزة لكان يكفي البيان

(١) ومن طريف ما يروى في ذلك المضممار ما في الدر المنثور ٥ : ١١٢ . اخرج ابو نعيم في الحلية عن مجاهد قال لما قدمت ملكة سبأ على سليمان رأته حطبا جزلا فقالت لغلام سليمان هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان؟ فقال : أنا اعلم فكيف مولاي؟ قالت : فكم وزنه؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق ثم يوزن الرماد فما نقص منه فهو دخانه!.

قبل كشفها ، وطبيعة الحال في هذه الحالة العجيبة من تحولها إلى الإسلام ، أن يتزوجها سليمان إكراما لها لكي تملك مؤمنة بعد ما ملكت كافرة ، فلا يحسب إسلامها خسارا لها حتى في ملكها ^(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)
قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا
اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا

(١) الدر المنثور ٥ : ١١٢ . اخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدحجة كان اعطافها طي الطوامير ، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعا مكتوب على طرف العمامة بالذهب : بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود ملكت الدنيا كافرة ومؤمنة ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي صار مصيري إلى الموت فاقصروا يا طلاب الدنيا ، وفيه اخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبد الله بن ربيعي قال : لما أسلمت بلقيس تزوجها سليمان وأمهرها باعلبك أقول كأنها بعلبك في لبنان.

وفي نور الثقلين ٤ : ٩٢ عن تفسير القمي وكان سليمان (عليه السلام) قد أمر أن يتخذ لها بيتا من قوارير وضعه على الماء . إلى قوله . : فتزوجها سليمان وهي بلقيس بنت الشرخ الحميرية ...

يُضِلُّهُمْ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَبَلَكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٥ .

تلخيصه لهذه الدعوة الرسالية ككل . مثل سائر الدعاة إلى الله . في توحيد العبادة لله ، و «أخاهم» مما يشدد عليهم الحجة أنه كان يعاشرهم طيلة حياته ، معروفا لديهم غير منكر ، دون أن تسبق منه سابقة سوء وضلال ، فلم يكن غريبا عنهم مجهولا لديهم حتى يشتبه أمره ، «فإذا هم» إثر الدعوة «فريقان» بعد وحدتهم في الضلال «يختصمون» مع بعض تصديقا لصالح وتكديما ، والجمع هنا اعتبارا بالجمعين في فريقين ، فرقة مستكبرة كافرة ، وأخرى مستضعفة مؤمنة ، ومن اختصامهم : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ﴾

مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ : (٧٦).

و ﴿لَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ هنا دليل ان آخرين منهم ظلوا ضالين تحت نير المستكبرين ، فالمختصمون ضد الرسالة كانوا هم الأكثرية الساحقة ، والاختصاص هنا ذو بعدين ، اختصا ما لهم مع الفرقة المؤمنة ، وآخر مع صاحب الرسالة ، مهما كانت فجوته متروكة لآية أخرى لا تذكر هنا ان ﴿إِنَّا بَعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٩ : ٢٩) . :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٤٦ .

فالعاقل اللبيب يستعجل الحسنة دون السيئة ، والمتنازل عن عقله كعادة للطائشين يستعجل الحسنة قبل السيئة ، خلطا بينهما ، والنازل إلى أسفل الدركات يستعجل السيئة قبل الحسنة ، فبدلا من الايمان ولو تجرية ، يكفر ويجرب العذاب المهلك حتى لا يبقى ظرف لحسنة الإيمان ، إذ لا إيمان بعد نزول العذاب ، والمؤمن اللبيب يعيش حياة الاستعجال للحنسة ابتعادا عن أية سيئة ، مستغفرا ربه عما أساء لعله يرحم.

فحتى لو كان الايمان بالله ضلالا فهو خير من عذاب الله القاضي على أصل الحياة ، فيا لهم ضلالا ما أبعد ان يستعجلوا السيئة : العذاب قبل الحسنة : الايمان الصواب فالثواب ، كفرقة أمثالهم من كفار قريش القائلة : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٨ : ٣٢) ويا للهول من هؤلاء الأوغاد الأنكاد حيث يحملون الجحيم في أنفسهم نفسها ولما يدخلوها! .

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

التطير هو التشاءم ، وهو من عادات المجاهيل المتبعين الخرافات الجارفة والأوهام الخارقة ، حين يهمل أحدهم بأمر يجهل صالحه من طاحله يلجأ إلى طائر يزجره فان مرّ سانحا عن يمينه استبشر ماضيا في أمره ، وإن مر بارحا عن يساره تشاءم تاركا امرا حيث يتوقع ضره ، وما يدري الطير غيب الخير أو الشر وهو حيوان ، فهذا الإنسان هو أحون من الحيوان وأضل سبيلا.

هذا أصل التطير ، ثم غلب استعماله في التشاءم ، ولأن الخير والشر راجعان إلى الإنسان بعمله ، وأن عمله معه لا يفارقه : أن يطير عنه إلى غيره أم إلى الفناء ، يسميه القرآن طائرا كما : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٧ : ١٣).

فطائر الإنسان . أيا كان . من خير أو شر ، هو معه كما هنا ، وهو عند الله كما في آيتنا : ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ حيث الأعمال راجعة طائرة إلى الله ، محفوظة لدى الله حيث يستنسخها الله : ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٥ : ٢٩) إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فكيف ﴿أَطِيرْنَا بِكَ وَمِنْ مَعَكَ﴾ حين لا تصدر اعمالكم خيرة أو شريرة إلا منكم ف ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ ولا يصدر الجزاء الوفاق خيرا أو شرا إلا من عند الله ف ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فما منا في هذا الميدان سلب ولا إيجاب ، اللهم إلا دلالة إلى الحق المبين بإذن الله! وليس طائركم معنا على أية حال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بجنة الأوهام وظنه الأحلام ، فإن تعليق الخير والشر بغير العامل نفسه ، إفضاء لكل عامل عن استقلالية الأعمال بآثارها ، وذلك أنزل دركا وانذل من المكائن الأتوماتيكية ، فإن نتائجها ترجع إليها دون اختيار منها ،

وهذا الإنسان الغيبي يحول خيره وشره بآثارهما إلى غيره وهو مختار ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾! وتراهم اطيروا به وبمن معه بمجرد الدعوة دون أمر سواها؟ ومن مواد طيرتهم الاختلاف الناشب بينهم اثر الدعوة! وعل منها إصابة الجوع كما يروى (١).

هؤلاء المفتنون الهاربون عن الايمان بالغيب الحق ، الناسبين اليه الخرافة الحمقاء ، نراهم يؤمنون بالغيب الباطل الموهوم ، من تطير وسواه من الخرافات الجارفة ، فنراهم يعلقون همامة ضخمة على العدد (١٣) بنحوسته أيا كان ، فالبيت المرقم به يكتب عليه ١٢ + ١ ، بديلا عن ١٣ ، ويعلقون على مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى كثير من الغيب الموهوم الذي لا سند له ، مستبدلين الغيب اللامعقول بالغيب المعقول ، مبتهجين متبجحين بما عندهم من الحضارات المادية ، والخرافات الروحية ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾!.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ امتحانا بفتنة الله ونعمته ، وامتهانا بفتنة الشيطان ونعمته ، فاليقظة الدائبة ومتابعة السنن وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وبلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية ، لا التطير بخلق الله.

فلا صدفه عمياء فيما يحدث من خير أو شر ، وإنما اصابة قاصدة هي من خلفيات الأعمال الفاسدة ، ف ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ و «طائركم

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية .. «فإنهم أصابهم جوع شديد قالوا : هذا من شؤمك وشؤم من معك أصابنا هذا القحط ، قال طائركم عند الله» يقول : خيركم وشركم من عند الله ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ يقول : تبتلون بالاختبار.

معكم» ولا ثالث يحمل طائرا لكم أو عليكم.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ٤٨ .

﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ من المستكبرين ، والمستضعفين الضالين تحت نيرهم ، احزاب عدة مترابطة واحدة في أصول الإفساد ، تسعة في مختلف محاولاته وشكلياته ، والرهط هو العصاة دون العشرة أم دون الأربعين ، فهم العصابات المتعصبة ضد الحق ، الصارمة في الإفساد الخالص حيث ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وإن في مجالة أو حالة واحدة ، مكرسين كل طاقاتهم وإمكاناتهم في مختلف حقول الإفساد ، عقيدا وخلقيا أمّا هو من الإفساد النواميس الخمسة ، التي هي محطات الإصلاحات الرسالية ، ومن إفساد هؤلاء التسعة أن :

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّهٗ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَنفُوَنَّ لَوْلَیْهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكُ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ٤٩ .

«قالوا» في تشاور بينهم على عديد رهطهم ، حيث الكفر ملة واحدة مهما اختلفت حقوله وعقوله ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ : تشاركوا في القسم بالله ، امرا هو حصيلة الشورى اللعينة بينهم ، وتكفي «قالوا» أن تكون «تقاسموا» أمرا ، وكيف التقاسم التشارك بالله وهم مشركون بالله؟ لأنهم يؤمنون بالله كرب الأرباب مهما أشركوا به سواه ، فما التقاسم بالله عندهم بأدنى من التقاسم بأرباب سواه ، بل وهو أخرى وأقوى!

وعجبا من هؤلاء الحماقى الأنكاد يتقاسمون بالله لیبیتوا داعي الله ، ويكأن الدعوة إلى عبادة الله وحده هتك لساحة الله حتى يقسم بالله في قتل الداعية بأهله! وهكذا كان یخیل إلى جماعة من المشركين أن عبادة الله هتك له

فليعبد سواه ليقربهم إلى الله زلفى!

«لنبيته» وهو قصد العدو ليلا لقتله «وأهله» هم زوجته وولده وكل من هو تحت عيلولته ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بعد تبينه «لوليه» وهو بطبيعة الحال من غير اهله ، أو غير الآهلين معه في بيته ، وهو ولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ دون مهلكه وأهله ، لأن غير الشاهد لمهلك أهله بأحرى ألا يشهد مهلكه نفسه؟ ولا أولوية في هذا البين ، وقد يكون عكس الأمر أولى أننا ما شهدنا مهلكه ، فبأولى مهلك أهله ، فإنهم معه بطبيعة الحال ليلا! والنص ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾!

ضمير المفرد الغائب في «أهله» الثاني راجع إلى وليه فإنه أقرب مرجعا وأصح معنى ، فصالح وأهله هم أهل لوليه ، ف ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي القتلى الذين هم أهله ، وله المطالبة بدمائهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في ﴿مَا شَهِدْنَا﴾.

ثم «مهلك» قد تعني هنا مثلث المعاني ، مصدرا وزمانا ومكانا للهلاك ، اجتثا لكل بنود الاتهام ، فلا خبر لنا إطلاقا عن زمان الهلاك ولا مكانه ولا أصله.

احتيال ساذج غير ناضح يطمئنهم فيما اعتزموه ، تخلصا عن صالح ووليه و ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ :

﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا مكرهم ولا مكرنا ، شعورا بضالة مكرهم ، وشعورا بعاقبته في مكرنا ، وأين مكر من مكر؟ مكر جاهل قاحل ، ومكر عالم كافل ، مكر عن عجز تبين ، ومكر عن قدرة في تبين.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥١.

حيث العاقبة الموافقة للمكر مكر مثله إلا في دناءته وضئولته ، فقد فاجأهم عذاب الله : ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ﴾ وهم تسعة رهط المتقاسمون الماكرون «وقومهم» المشاركين معهم في كفرهم وتكذيبهم بالرسالة «أجمعين» .

وكم ذا وحتى متى يخطئ المستكبرون؟ منخدعين بما يملكون من أموال وبنين ونعمة هم كانوا فيها فاكهين ، غافلين عن العين الرقيبة عليهم التي لا تنام ، والقوة القاهرة فوق كل قوة ، حيث تباغتهم جيئة فجیعة تدمرهم عن بكرتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ! :

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢ وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ٥٣ .

«خاوية» : خالية عن كيانها كبيوت ، وعن كائنين فيها كأصحاب البيوت ، تدميرا لها بأسرها وأسرها «بما ظلموا» وفروا عن الحق المرام ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التدمير ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ثم في ذلك التدمير الخواء ﴿وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ منهم ، فقد خرجوا بايمانهم وتقواهم عن طغواهم ، فخارجون . إذا . عن قومهم الهالكين أجمعين .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا
فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾

عرض خاطف عن لوط وقومه بدء ختم في معارض الغابرين : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ
أَخَاهُمْ صَالِحًا .. وَلُوطًا إِذْ قَالَ ..﴾ فصالح يدعوا في مفتتح دعوته إلى عبادة الله حيث
التخلف البارز فيهم كان هو الإشارك بالله ، ولوط ينهى عن الفاحشة ، لأنها كانت هي
التخلف البارز فيهم مهما كانوا من المشركين.

فإتيان الرجال شهوة من دون النساء ظاهرة غريبة في تأريخ الشهوات الجنسية ، أن
يصبح كقاعدة مطردة بين قوم ، بدلا عن إتيان النساء المفطور عليه كل من القليلين ، فقد
يشذ الإنسان غير الملتزم بالشرعة الإلهية في حالات استثنائية كثكنات الجيش التي ليس فيها
نساء ، أو السجون الطائلة ، أم لأمراض نفسية أو ملابسات أخرى وقتية ، فيميل الذكور
لإتيان الذكور ، وأما ان يشيع ذلك الشذوذ دون أية أسباب أو ملابسات رغم توفر النساء ،
فهذا هو الحادث الجلل في تأريخ الإنسان ، البارز بأبشع صورته في قوم لوط المجرمين.

﴿.. أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ العملية المنكرة المتجاوزة عن حدها ، متجاوزة عن الشهوة
الفطرية المتعود إلى المتخلفة عنها ، المنحرفة المنجرفة إلى هواتها البعيدة المدى ، العميقة الردى
، ومتجاوزة عن التستر المتعود في عمل الجنس مهما كانت حالا ، إلى أوساط النوادي جهارا
بكل إصرار ودون أي إسرار ،

وهذه كلها معنية من هذه «الفاحشة» لأنها المتجاوزة في العصيان المتعود حدّه.

﴿أَتَأْتُونَ .. وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة خلاف الفطرة وخلاف الشرعة الإلهية ،
 ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ خلفياتها البغيضة الحضيضة خلقيا وجماعيا وإهلاكا للنسل والعائلة ﴿وَأَنْتُمْ
 تُبْصِرُونَ﴾ أن أهل نوادي الفاحشة ينظرون إليكم وأنتم تفعلون ما تفعلون ﴿أَلَنْتُمْ لَتَأْتُونَ
 الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ..﴾ (٢٩ : ٢٩) ؟ ، وإتيان الفاحشة
 بمختلف الإبصار هكذا ، وبمسرحة الأبصار ، مما يجعلها أفحش الفواحش النكيرة.

فهنا في اللواط المتعود هكذا بين قوم لوط جنابات عدة من الفاحشة ، التجاوز عن
 النساء إلى الرجال ، والتعود في ذلك التجاوز كقاعدة مطردة ، وإبرازها في ملائ النوادي ، مما
 يجعله فاحشة منقطعة النظير ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ مهما لحقهم من لحقهم
 من انجلترا وسواها الذين سنوا حلّها في مجالسهم النيابية!

﴿... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ﴾ أمن الجهل بمدى الفحشاء؟ ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تطارد
 جهلهم! بل هو الجهالة أنهم يأتون الفاحشة وهم مبصرون تجاهلا عنها بنزوة الشهوة الطائشة
 العمياء ، ومن جهالتهم الجهلاء الخواء ، كخلفية لدعوة صالحة مصلحة من لوط :
 ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

.٥٦

و «آل لوط» هنا هم لوط نفسه بالرساليين المؤمنين معه ، لا فقط آل النسب أو
 السبب حيث الأقرب منهم سببا وهي زوجته ﴿قَدَرْنَا مِنْ الْغَابِرِينَ﴾ فلم تكن هي من آله
 فيما ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ..﴾ إذ لم تكن

من ﴿أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ إذا فهم الأناس المتطهرون ، ف «آل لوط» هنا هم أهل بيت الرسالة الذين يعيشون جوها ، أنسباء كانوا وأقرباء أم بعداء وأغرباء.

ولماذا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾؟ ل ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تحكما ساخرا بالتطهر من ذلك الرجس البخيس النحيس ، فهم يتطلبون جو الحرية الطليقة لهذه الفاحشة المبصرة ، دونما أي رادع ولا مانع ، فمجرد وجود المتطهرين . وإن لم ينهوا عن هذه العملية . إنه ينغص عيشتهم المتخلفة.

والتطهر تكلف في الطهارة ، فقد يكون صادقا فليكن ، أو قد يكون كاذبا ف «اخرجوا ..» إذ هم كانوا يرونهم يتكلفون الطهارة عن فاحشة اللواط كاذبين ، حيث أصبحت لهم أولاء طبيعة ثانية كأنها هي القاعدة في حظوة الجنس ، إذا فال لوط هم أناس يتطهرون ، لا يصلحون للمقام بيننا تكديرا لجو الشهوة الرائجة المائجة فينا.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ لا آله فإنهم أخص . كما بيناه . من أهله ، حيث يشمل امرأته دون آله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا﴾ على قدر تخلفها عن بيت الرسالة ﴿مِّنَ الْغَابِرِينَ﴾ : الماكثين بعد مضي ما هو معهم من دعوة الحق وشقوة الباطل ، دون ان يهتدوا إلى هداهم ، فحق عليهم أن يقدروا ﴿مِّنَ الْغَابِرِينَ﴾ الماكثين في عواقب اعمالهم ، ومنها هنا ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ وكما أمطروا في حياتهم الجهنمية أمطار السوء والبلاء ، فقد بدلوا مياه النطف لإحياء النسل ، ذريعة لإماتة النسل وإمادة حق العائلة ، وكذلك الله بدل مطر الإحياء إلى مطر الإماتة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾!.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ

فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي
الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا
إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ
سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ
مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ
لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

جولة ختامية للسورة بآيات تذكيرية في استجابات في أغوار النعم وأطوار النقم ،
فللمؤمنين النعم وللكافرين النقم ، مما يتطلب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أولا وأخيرا ، فانها مفتاح كل أمر
بعد البسملة وختامه :

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٩.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على العاقبة الصالحة للصالحين والطالحة للطالحين ، فكل ﴿الْحَمْدُ
لِلَّهِ﴾ دون سواه ، فانه هو الموفق لهداه على أية حال ، والمجازي لمن عاداه على أية حال
﴿قُلِ .. سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ وهم كل الدعاة الله على مدار الزمن الرسالي
«سلام» عليهم من الله و «سلام» عليهم منك ومن معك من المصطفين والصالحين ، و
«سلام» من الله عليهم أحياء إذ كانوا يحملون رسالات الله ، و «سلام» من الله عليهم أمواتا
ليستمرروا في الحياة الروحية القمة ، ثم «سلام» مني عليهم إذ لا أقول لهم إلا سلاما وتصديقا
، و «سلام» مني إليهم فاني مسلم معهم مقتد بهداهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ
اِقْتَدِهِ﴾ (٦ : ٩٠) فإن هداهم هداي مهما كانت درجات ، وخط الهدى واحد مهما كان
له مقامات ، فليس اقتداء الرسول بهداهم إلا المشي على خطهم مهما سبقهم ، كما اقتداء
غير الرسول به وبهم مهما كانوا ادنى منهم ، فخط الرسالة الإلهية وهداها واحدة والطرق إلى
الله بعدد أنفاس الخلائق.

إذا ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ومقابل الخير هنا . وهو الخير
المطلق . ليس إلا الشر المطلق ، وحتى إذا كان «خير» صيغة تفضيل فانه تهكم ، ام تنازل :
أن لو كان ما يشركون فيه خير فهل ان الله أكثر خيرا أمّا يشركون؟.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ
بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ٦٠ .

سلهم هل شارك الله سواه في ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ من المادة الأم ، وخلق
المادة الأم لا من شيء ، ثم ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ولم يكن في الأرض ماء «فأنبتنا»
انتقالة لطيفة خفيفة من الغياب إلى الحضور تدليلا ضمنا انه هو الذي خلق ما خلق وأنزل
ما أنزل وأنبت ما أنبت ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ من غابات ام بساتين صناعية فان الإنبات
ككل هو من صنيع الله و ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ بحولكم وقوتكم ، وإنما لكم
تهيئة الوسائل والظروف لنبتها ثم المنبت هو الله ، وكما الخالق لكم ولهذه الوسائل واختيارها
والتوسل بها هو الله «ء إله» إذا «مع الله» يشاركه في الخلق والتدبير؟ لا ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ﴾ شركائهم بالله «كذب العادلون بالله وضلوا ضلالا بعيدا و ﴿خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾
فيعدلون بالمآل عن الله إلى سواه تأليها له دون الله ، ان يعبدونه دون الله ، ويستشفعونهم دون
الله ، تنزلا عن توحيده إلى الإشراف به وإلى توحيد غيره ، وكأن الله لا دور له في خلق ولا
تدبير .

فالفطرة تصرخ ، والبداهة العقلية تصرخ ، والكائنات تصرخ أن لا إله إلا الله في خلق
ولا تدبير ، فليعبد هولاء سواه ، ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾! .

انظروا إلى ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حيث تبهج الفطر والعقول والحواس ، وان تلوين
زهرة واحدة من أزهارها يعجز عنه كل رجال الفنون ، بل والحيطة بأسرارها في تموج ألوانها
وتداخل خطوطها وتنظيم وريقاتها ، مما تتقاصر وتتضاءل دونه العباقة في الفيزيولوجية النباتية
، فضلا عن الحياة النامية في

النباتات وهو سر الأسرار. فضلا عن حياة الحيوان والإنسان والملائكة والجان ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ وهو العدل التسوية بالله حين يعني العدل بالله ، وهو العدول عن الله حين يعدلون عن الله فالعدل بالله ما سواه هو ظلم وخلاف العدل وضلال مبين في كافة الحقول ولدي كل العقول : ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦ : ٩٨) والعدول عن الله . ككل . إلى ما سواه ، توحيدا له دون الله هو من أظلم الظلم ، وهذا هو الملموس في المشركين بالله في أحوالهم وأعمالهم أن لا إله إلا غير الله ، إذ لا يحسبون في كل الحياة دورا لله ، ويكأن الله انخلع عن ربوبيته ككل ، محولا لها إلى شركاءه!.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦١.

«ام» وبعد خلق الأرض «من ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ ولم تكن قرارا ، حيث جعل هنا مركب يتطلب مفعولين كما هما ﴿الْأَرْضَ قَرَارًا ، اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٠ : ٦٤).

ولقد بحثنا حول قرار الأرض في الغافر مشبعا ، وانه من القرّ : البرد والصد ، دون السكون المطلق ، فالسكون المطلق في المادة عن أي حراك انعدام عن أصل الكيان ، فانما هو سكون نسبي ، حيث كانت الأرض حارة ذائبة ، فسريرة الحركات بكل شماس ، فجعلها الله ذلولا بعد شماس ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ (٦٧ : ١٥) وقرارا في برد نسبي حسب تعديلها في حرارتها وحركاتها ، فقرارا مستقرا لساكنيها ، ويا لقرار الأرض من أسرار بالآفات الملابس والمرافقات ، لو اختلت واحدة منها أو كلّت أو قلت

لما كانت الأرض قرارا ، وقد تبقى أسرار قرار الأرض مفتوحة للأجيال ، كلما اتسع العلم وارتفع أدركوا طرفا منها طريفا لم يكونوا يدركونه من ذي قبل!.

ومن خلفيات قرار الأرض ﴿وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَهْأَارًا﴾ فانها قبل قرارها ما كانت تحن لماء ولا كلاء لشماس الحرارة البالغة الذروة ، وفي الحق أهأار الأرض هي شرايين حياتها بمن عليها ، منتشرة إلى أكنانها ومناكبها ، ريًا لأطفالها النبات والحيوان والإنسان من تلکم الشدي الدائبة الإرضاع.

كما ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾ على اثر البرودة فالأمواج المائية من موادها الثقيلة الداخلية والخارجية الممتدة في حركاتها المعدلة الدورانية حسب قانون الفرار عن المركز ، والرواسي هي في الأغلب منابع الأهأار حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ حلوا ومالحا «حاجزا» وحجرا محجورا لا يرى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٥٥ : ١٩)^(١) ﴿... هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ (٣٥ : ١٢).

﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ﴾ في هذه الأفاعيل المحيرة العقول؟ لا! ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيقولون قولتهم المشركة جهلا حالقا قاحلا في تقليد أعمى ، ثم وأقلهم وهم المستكبرون يعلمون لكنهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (٢٧ : ١٤).

إلى هنا استجواب في مشاهد الكون المشهودة لكل كائن عاقل آمن دونه ، ثم إلى خاصة الأنفس في كل شارد ووارد :

﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

(١) راجع تفسير الآية في ج ٢٧ : ٢٦ الفرقان ففيه تفضيل حاجز البحرين فلا نعيده هنا.

الْأَرْضِ أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

هنا «المضطر»: الذي هو في ضرر أو أصابه ضرر، ما يضر بحياته الراضية المرضية ماديا ومعنويا، دنيويا وأخرويا، فرديا وجماعيا سياسيا أو عقيديا أو ثقافيا أو اقتصاديا أم أيا كان مما يضره من سوء، والإضرار هنا أعم من التكويني والتشريعي، وما اختاره هو ام حصل له باضطراب، فاعلم النص «المضطر» وهو الذي يضطر أيا كان، ولكنه اضطراب سوء لقوله ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

يجد نفسه في ضرر خالق خائف يلمسه، حين تضيق عليه كل الحلقات، وتشتد الحنقات والخنقات، وتتضاءل كل القوى الظاهرة وتتخاذل، وتهاوى الأسناد والمستندات، فيجد المضطر نفسه منقطعة الصلاة عن كافة الأسباب، حين تكلّ فيكلّ هو في ضره، فيجد نفسه في هوة، دون ناصر ولا قوة إلا الله وهنا «فالاضطرار عين الدين»^(١) والاطمئنان اليقين.

﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ هو لا سواه، وبطبيعة الحال، وقضية الفطرة يدعوه لا سواه، دعوة في عمق، دون لقلق اللسان، ام تجربة الجنان، وانما دعوة منقطعة عن سواه، متجهة إياه، وكما هو متعلق الكون بالله، يصبح متعلق الكيان بالله، لا يهوى سواه، ولا يهوي إلى سواه، آمن يجيبه. إذا. إلا الله، وليس ليتركه في دعوته الفطرية المنطلقة، المطلقة عن الحواجز، وهو الذي فطره عليها، فلسانها لسان الله حيث فطره الله، وسؤال الله نفسه. طبعاً. لا يرد!

(١) تفسير بيان السعادة ٣ : ١٧٧. واليه أشار الصادق (عليه السلام) بقوله : ...

هم تو بودی اوّل آرنده دعا هم تو باش آخر اجابت را رجا
چون خدا از خود سؤال وکدّ کند پس سؤال خویش را کی رد کند
هم دعا از تو اجابت هم ز تو ایمنی از تو مهابت هم ز تو
وهنا کتاب التكوين : الفطرة ، وكتاب التشريع الأمر بالدعاء ، يتعانقان في ذلك
الدعاء ويتجاذبان تعاملًا عشيقًا رفيقًا. فلسان الدعاء للمضطر وسواه هو لسان الله ، وطبعا
لسان الفعل دون الذات والصفات ، حيث كَوّن ودَوّن ما يقتضي ذلك الدعاء!

فهنا الدعاء المستجاب دون ردّ له ركنان ، حالة الاضطرار التام ، وانه ضرّ السوء ، لا
الذي يحيل إليه ضرا وهو في الحق ليس به ف ﴿عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣ : ٣١٦) وليس الله بمجيب
دعاء من يدعوا على نفسه تحسبا انه يدعوا خيرا أو زوال شر ، وهو في الحق ليس في
اضطرار شرّ ، فمن اركان الدعوة المستجابة في آياتها أن تكون صالحة للداعي شخصا أم
جماعيا ، ف ﴿إِذَا دَعَا﴾ دعوة حق وفي حق بصادق النية ولائق الطوية وصالح القضية ،
فالإجابة . إذا . حاضرة عاجلة ام آجلة دوغما استثناء.

ف «المضطر» وهو الذي يضطر في حالة سوء ، تستغرق كل مضطر دون إبقاء.
فالدعوات غير المستجابة إنما تنقص من أركانها ، سوء ، أو اضطرارا ، ام دعاء خالصا
﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ﴾ (٤٠ : ٦٠) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. (٣ : ١٨٦) ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ هنا و ﴿إِذَا
دَعَا﴾ في آية المضطر ، تشمّلان دعاء القال والحال والأفعال ، دون دعاء الذات ، فكل

الذوات هي متعلقة الكون والكيان بالله ، شعرت أصحابها أم لم تشعر ، أرادت أم لم ترد ، اعتقدت أم لم تعتقد ، فهي إذا دائبة الدعاء ذاتيا و «إذا» هي دعاء أحياني باختيار.

والمهم في مثلث الدعاء هو دعاء الحال علما واعتقادا ، ثم الدعاء بالأعمال التي تبرز ان صاحبها يدعو الله ، ثم بالقال ، كإذاعة عن الحال والأعمال ، فالداعي بقاله دون حاله وأعماله خاو في دعائه مستهزء ، والداعي بقاله وأعماله دون حاله منافق ، والداعي بحاله دون اعماله قليل الايمان ، والتارك لذلك المثلث كله لا ايمان له ، والجامع بين الثلاثة هو كامل الايمان ، والتارك قاله زائدا في حاله واعماله هو أحيانا في قمة الدعاء ، ولكن الضابطة العامة في الدعاء ضم القول إلى الأفعال والأحوال ليصبح الداعي كله دعاء دون إبقاء ، والمضطر بطبيعة الحال يدعو بحاله ، ام وبأفعاله وقاله ، ولكنه قد لا يستجيب لأنه خاطئ في ضره ، فكم من مضطر في غير سوء وهو يحسبه سوء ، يدعو فلا يستجيب رحمة عليه ، وكم من سيء الحال في واقع الحال ولكنه ليس في حالة الاضطرار إذ يحسبه حسنا فلا يدعو فهل يستجيب دون دعوة؟ وكم من مضطر في أسوأ الحال ولكنه لا يدعو الله دعوة صالحة وخالصة فلا يستجيب حيث ينقص **﴿إِذَا دَعَاهُ﴾** واما الداعي ربه مضطرا في سوء ، دعوة صالحة خالصة ، منقطعة الصلة عما سوى الله ، مطمئنا إليه لا سواه ، راجيا إياه ، فهو المستجيب كما وعد الله : «يجيب المضطر . ويكشف السوء . ويجعلكم خلفاء الأرض»

إجابة عن حالة الاضطرار ، وكشفا للسوء الذي اضطره فرديا ، بل وجماعيا حيث **﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾** قضاء على ضر الحكم والسلطة غير الصالحة عن بكرتها ، فلا تعني خلافة الأرض هنا ما قد تعنيه **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾** (٦ : ١٦٥) وهي خلافة السكن الحيوية بعد الذين ضلوا ، فانها حاصلة

للمضطّر في سوء أيا كان ، فالدعوة لها والاستجابة فيها تحصيله للحاصل ، بل هي الخلافة عن السلطات الجبارة المكثّرة جو الحياة السليمة الإسلامية ، الخانقة الخانقة جو الاضطّار بسوئها والتقية ، الدافعة إلى سنة الاستتار والخفية.

فالإمام المنتظر المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو من أفضل المضطّرين في سوء يجيبه الله بدعائه ودعاء المنتظرين قدومه ، آجلاً أم عاجلاً وكما يراه الله ويرضاه ، شرط أن يكون دعاء المضطّرين سواء ، كاملة الدعائم ، شاهرة المعالم ، مزودة بالجهاد الدائب ، والصبر الصائب ، اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أعوانه وأنصاره ، آمين يا مجيب دعوة المضطّرين!

هنا «يجعلكم» تحلّق على كل خلافة أرضية صالحة ، جانبية نسبية غير شاملة كما حصلت أياً ما أو تحصل على ضوء الدعوات الصالحة والجهادات المتواصلة ، أم شاملة محلقة على كافة السلطات الأرضية كما في دولة القائم (عج) المظفرة العالمية فهو . إذا . خليفة الله في الأرض كلها ، دون خلافة أخرى فيها إلّا لأصحاب ألويته الذين يديرون أمور السلطة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، فهؤلاء الأكارم مع صاحب الأمر هم أصدق المصاديق للمعنيين بـ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ جمعاً بين الجعلين التكويني والتشريعي ، وكما سبق في داود وسليمان فلا «المضطّر» هنا يختص بالمشرّكين! أم فرقة خاصة من المضطّرين المسلمين! ، ولا أن خلافة الأرض هي الحياة الخلفية لكل قوم عن آخرين ، مهما كان الإمام المنتظر المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، بمن معه من المضطّرين الصالحين ، هم أصدق المضطّرين الداعين ، وأصلح خلفاء الأرض^(١).

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٤ عن تفسير القمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : نزلت .

وهذه الخلافة المرموقة هي التي تشعر المسؤولية الهامة لحدّ ينتفض منها أول الخلفاء وأعد لهم بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يقرء رسول الله ﷺ **﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾** فانتفض علي (عليه السلام) انتفاض العصفور ، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما شأنك تجزع؟ فقال : وما لي لا أجزع والله يقول انه يجعلنا خلفاء الأرض؟! فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تجزع والله لا يحبك إلا مؤمن ولا ييغضك إلا منافق»^(١).

. في القائم من آل محمد عليهم السلام هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عز وجل فأجابه ويكشف سوء ويجعله خليفة في الأرض وفيه حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال قال ابو جعفر (عليه السلام): والله لكأني انظر إلى القائم (عليه السلام) وقد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه . الى ان قال . : هو والله المضطر في كتاب الله في قوله : **﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ..﴾** فيكون أول من يبايعه جبرئيل (عليه السلام) ثم الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلا فمن كان ابتلي بالمسير وافي ومن لم يتل بالمسير فقد عن فراشه وهو قول امير المؤمنين (عليه السلام) : هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله : **﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾** قال : الخيرات الولاية.

(١) المصدر ٩٥ عن امالي الطوسي باسناده الى عمران بن الحصين قال : كنت انا وعمر بن الخطاب جالسين عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي جالس إلى جنبه إذ قرء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : **﴿أَمَّنْ يُجِيبُ ..﴾** ومثله محمد بن عباس عن عمران عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والمفيد في الأمالي عنه وانس بن مالك قال لما نزلت الآيات الخمس في طس «أمن جعل الأرض قرارا الآيات انتفض علي انتفاض العصفور فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مالك يا علي! قال : عجب يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كفرهم وحلم الله عنهم فمسحه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيده ثم قال : أبشر فانه لا ييغضك مؤمن ولا .

هذا ، وأما ما يروى عن رسول الهدي من واجب الطاعة لأية خلافة خيرة وشريرة ، يطارده فرض مطاردة السلطة الجائرة ودفع الفساد أيا كان ، ولا سيما الخلافة الفاسدة المفسدة التي تظلم الجو على الشعوب ، فما الرواية إلا مختلفة مصلحة الحفاظ على كيان الخلفاء المتخلفين عن شرعة الله ، المستضعفين عباد الله ^(١).

. يجبك منافق ولو لا أنت لم يعرف حزب الله (غاية المرام ٤٠٢).

أقول : هذه التلحيق إنما طمأنت الامام (عليه السلام) حيث ضمنت عدله في الحكم لحد «لا يبغيضك مؤمن ولا يجبك منافق» فان الحاكم غير العادل يبغيضه المؤمن ويحببه المنافق.

(١) الدر المنثور ٥ : ١١٣ اخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأن الله تعالى يقول : «... وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ» فالخلافة من الله عز وجل فان كان خيرا فهو يذهب به وان كان شرا فهو يؤخذ به عليك أنت بالطاعة فيما امر الله تعالى به.

أقول : مفارقة الجماعة المؤيدة لخلافة الزور واجبة في شرعة الحق التي تطارد هذه الخلافة ، فمن فارقها نقضا لهذه الخلافة وتركها لتأييدها فهو في الجنة ، ومن وافقها وقارفها فهو في النار واما ان الخلافة خيرا وشرا هي من الله ، فمن الناحية التكوينية صحيح ولكنها لا توجب الطاعة وليس شرها تشريعا من الله حتى يرضاها الله ويأمر بطاعتها ، ثم ماذا يعني «فهو يذهب به إذا كان خيرا؟ فهل ان الله يذهب بالخلافة الخيرة ويأتي بديلها بالشريرة؟ ثم ماذا يعني : «وان كان شرا يؤخذ به» فهلا يؤخذ بخير الخلافة كما الله يذهب بها ، ثم يؤخذ بشر الخلافة لأن الله يأتي بها ، فما افضحها اختلاقا في مطاردة الخلافة الحق الإلهية ، وما أقبحها افتراء على رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم)! وان كان قد يعني «فهو يذهب به» ان خير الخلافة لصاحبه ، و «يؤخذ به» يعني ان شر الخلافة لصاحبه ، فما عليكم إلا الاتباع في كلتا الخلافتين ولكن الخلافة بشرها وخيرها نعم الخليفة والرعية ، فهم مستفيدون من خيرها ويضرهم شرها ، وهو يؤخذون . كما .

وكيف يستند إلى آية الخلافة الكاشفة للسوء بدعاء المضطرين ، في فرض الطاعة للخلافة الخلاعة السوء ، التي هي سوء على سوء للمضطرين؟! كلا! وإنها دعوة خير استئصالا لضر وشر وكما يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله حين يسأل يا رسول الله الام ندعو؟ قال : أدعو لي الله وحده الذي إن نزل بك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن ضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذي إن أصابك سنة فدعوته أنزل لك»^(١).

وهذه مصاديق متعودة فردية للضر والشر ، ثم أضر منها وأقفر ما المضطرون إلى كشفه عنهم أفقر وهو السلطة الصالحة في خلافة الأرض ، وقمتها العالية المنتظرة لكافة المستضعفين المؤمنين الخلافة المهدوية العالمية عليه كل سلام وتحيية ، ف «يجعلكم» هنا ليست لتعني فقط الجعل التشريعي دون تكوين ولا التكويني دون تشريع ، لأن كلاً دون الآخر لا يكشف به السوء الجماهيري المترقب من الخلافة الصالحة ، فانما واقع الخلافة الشرعية هو الذي يكشف به ذلك السوء ، وللمخاطبين في «يجعلكم» درجات حسب القابليات والفاعليات ثم و «يجعلكم» هذا هو نتيجة أدعية المضطرين بمن فيهم المستأهل لهذه الخلافة ، دعوات مقرونة بمحاولات صالحة لاجتثاث الخلافة عن الطالحين واختصاصها بالصالحين بمراتبهم ودرجاتها.

فالله هو المجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وبالمآل

. هو . بشرها لماذا استسلموا له دون معارضة ممكنة؟.

(١) المصدر اخرج احمد وابو داود والطبراني عن رجل من بلجم قال قلت يا رسول الله إلى م ...

﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ دون سواه ف «الله الذي ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ ... جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً...﴾ هو الذي يجيبكم حال اضطراكم .. وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ..﴾ ففي الخلافة الأخيرة ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ حيث الحياة جديدة جادة نحو الحق ، وينزل عليكم من سماء الوحي والرحمة غزيرة ناصعة تروي العطاش ، وينبت حدائق بهيجة في حقول المعرفة الربانية ، لكم فيها من كل الثمرات ، ويجعل الأرض المتأرجفة بمفسديها قراراً بذلك المصلح الكبير ، ويجعل خلالها أنهاراً تروى العالمين من المعرفة برب العالمين ، ويجعل فيها رواسي هي أصحاب الألوية الثلاثة عشر رجلاً من أصحابه الخصوص ، أعضاء الدولة العالمية ، ويجعل بين بحري المالح والعذب حاجزاً فلا خلط . إذا . بين الحق والباطل أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ !.

فما دامت السلطات الجائرة مسيطرة على الشعوب فهم مضطرون ، وعليهم الدعاء الدائب بشروطاته الصالحة ليجعل الله لهم بالمآل خلافة الأرض صالحة مصلحة محلقة على العالمين أجمعين وكما وعد الله هنا و ﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ و ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢٤ : ٥٥).

ولعمر إلهي الحق ان المضطر بالحق زمن الغيبة هو الامام المنتظر حيث

يرى المستضعفين تحت أنيار الظلم والضغط من المستكبرين الذين لا يدينون دين الحق.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْهَ مَعَ
اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٣.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ هدي الحياة الدنيوية والروحية ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ظاهرية أو
باطنية ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ روحانية بريح الوحي وسواها بسائر الرياح
﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ﴾ يهديكم في أي هدي ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في حقول الهدى.
وهنا ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ تعني فيما عنت باطن البر وخضم البحر غورا وغوصا
فيها ، و «يهديكم» تشمل كل الوسائل المستقبلية لخوض الأعماق في البر والبحر.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٦٤.

استجابات خمس تتجاوب أخراها وأولها ، فهناك «أمن خلق ..» وهنا ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويبدأ الخلق قد يعم خلق المادة الأولية لا من شيء ، ثم خلق دخان السماء
وزيد الأرض ، ثم سائر الخلق ومنه الإنسان ، و «ثم يعيده» تخص الإعادة إلى الحالة الأولى
فيما سوى الأولى لأنها لا شيء ولا إعادة لشيء إلى اللا شيء!

والإعادة إلى البدء عملية مكرورة على طول الخط في الجماد والنبات والحيوان
والإنسان يوم الدنيا ، أفيعجز المبدء عن الإعادة في الأخرى وهي أخرى قضية العدل
الحساب ثم الثواب والعقاب ، وليس شيء من الإعادة المعنية هنا وهناك إعادة للمعدوم حتى
تدخل في نطاق تفلسف الاستحالة ،

وانما هي إعادة مواد الأشياء إلى أمثال صورها السابقة الباءة ، ومنها إعادة اجزاء الإنسان إلى مثل ما كان في الصورة ، فالمعاد في المعاد ليس بإيجاد عن لا شيء ولا إعادة المعدوم ، بل هو ذرات البدن الأصلية حيث تعاد إلى مثل الصورة الأولى ، وهو الروح حيث يعاد إلى نفس البدن الممثل كالأول فأين هنا إعادة المعدوم؟

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ في هذه الحلقات الخمس ، ابطالا لما أثبتت ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في تكذيبكم ، وأتى لهم برهان ، وأنى لهم أن يعلموا هذه الحقائق المعلومة لدى ذوي العقول ، بل هم في جهالتهم طائشون ، جهلا عن تقصير ، وهم يطالبون الغيب وأنى يبعثون!

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

.٦٥

هذه آيات اختصاصه تعالى بعلم الغيب ، بعد ما خصت به الآيات السالفة غيب القدرة ، وهل الله هو ممن في السماوات والأرض حتى يستثنى عنهم بعلم الغيب؟ قد يكون الاستثناء متصلا ، والله قدرته النافذة وعلمه النافذة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دون ذاته لأنه خلقهما و «كان إذ لا كان»! كما ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ اي ألوهيته نافذة فيها ، لا ذاته سبحانه!.

أم هو منفصل تأكيداً لاستئصال علم الغيب عما سوى الله ككل ، والله هو الذي يعلم الغيب ، وطبعاً هو الغيب المطلق الذي ليس لينقلب إلى شهود ، لا مطلق الغيب ومنه ما يعلمه الله من ارتضاه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ .. (٢٦ : ٢٦).

ونموذجاً بارزاً للغيب المطلق وقت الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

كل ما سوى الله عابدين ومعبودين ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ، وذلك نفى للعلم عنهم في أدنى مراحل وأغمضها وهو الشعور ، وهو من العلم الذي يستحيل لمن سوى الله وكما يقول الله عن رسول الله ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ..﴾ (٧) : (١٨٨).

وكما سئل علي (عليه السلام) : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين (عليه السلام) علم الغيب؟ فضحك وقال : ليس هو بعلم غيب ، وإنما هو تعلم من ذي علم ، وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣١ : ٣٤) .

فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ، وقبيح أو جميل ، وسخي أو بخيل ، وشقي أو سعيد ، ومن يكون للنار حطباً ، أو في الجنان للنبين مرافقاً ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، وما سوى ذلك . يعني به المعداد في آية الساعة . فعلم علمه الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) فعلمنيه ودعا لي أن يعيه صدري وتضطم عليه جوارحي»^(١).

فلقد منح الله الإنسان طاقات يستكشف بها الخبء في السماوات

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٥ عن نهج البلاغة كلام يؤمى به (عليه السلام) الى وصف الأتراك : كأني أراهم قوما كأن وجوههم المجان المطرقة يلبسون السرق والديباج ويعتقبون الخيل العتاق ويكون هناك استمرار قتل حتى يمشي الجروح على المقتول ويكون المفلت اقل من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟ فضحك ..

والأرض ، على قدر حاجته روحيا وماديا ، وانكشاف سرّ الغيب . المخصوص علمه بالله ، أو الممكن تعليمه لمن سواه . ليس مما يبغيه في مهمة الحياة ، إلاّ الوحي الرسالي الذي يدار به حياته في مدار الحق ، إبعادا له عن الأخطاء ، وأما ان يتطلع إلى كل أسرار الغيب كما الله فمستحيل ذلك على كل من سوى الله حيث يصبح كأنه الله ، أو يتطلع إلى أسرار ليست من هامة الحياة ، مهما أمكن تطلعه عليها بتعليم الله ، إذ لا دافع فيه ، وكان فيه ارتفاع الابتلاء في الحياة أن يعلم كل ما في قلب الآخر ، أو كان فيه تعطيل الاستعدادات عن التحرك نحو الكمال.

﴿بَلِ ادَّارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ ٦٦.

إنهم مبلغهم من العلم في الأولى هو العلم الأعمى ، المنحصر فيها ، المنحسر عن الأخرى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ..﴾ (٥٣ : ٣٠) ، فشكهم فيها وعماهم منها امتناع للعلم باختيار ، فقد صرفوا كل علمهم في الأولى فلم يبق لهم علم بالأخرى ﴿بَلِ ادَّارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ تداركا لما فوتوه على أنفسهم في الأولى ، للأخرى ، ولات حين مناص وقد فات يوم خلاص ! ولأن «ادّارك» هي من باب الافعال ، مبالغة في التدارك والدرك ، فقد تعني كمال الدرك والتدارك بعد نقص قصورا وتقصيرا.

وتدارك علمهم ، المقصرون فيه أو القاصرون ، يشمل علم الساعة حيث يتدارك عند الساعة بواقعها ، فالمؤمن بالساعة يعلمها علم الايمان دون متاها ، فيتدارك علمه بها بواقعها ، ثم والعلم بواقع اعمالهم السيئة التي كانوا يرونها حسنة : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ﴾

حَدِيدٌ والعلم ان الله هو الحق المبين ، وسائر ما بالإمكان ان يعلموه ثم للمؤمن يضم إلى علم اليقين عين اليقين حيث يعاين حقايق الأعمال بعد إيمانه بها.

إذا فالآخرة هي مجاله العلم ، الميسور لغير الله ، ما قصروا عنه ام قصّروا فيه ، واما السابقون والمقربون فلا تدارك لعلمهم إلا مزيد المعرفة الربانية بما قدموه إلى الأخرى ، وما هم فاعلون فيها ، وسائر العلم فهم حاصلون عليه يوم الدنيا كما يروى عن الامام علي (عليه السلام) قوله : «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا».

ثم «علمهم» قد تعني علم كل مكلف على قدره حيث يتدارك تتيما وتطيما ، إلا العلم غير الممكن تداركه كالعلم بالله ، و «هم» هنا لا تختص بالكافرين.

وترى كيف «علمهم» وهم يجهلون المبدء والمعاد ، فليختص بالمؤمنين؟ ولكن يطارده **﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾**.

«علمهم» في الناكين هو الفطري والعقلي والعلمي من سواهما ، فقد يتجاهلونه فيجهلون ، فيتدارك علمهم المغطى في الآخرة **﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾** هنا في تغافل علمهم **﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾** هنا وهو أنزل من الشك ، فكل ذلك الثالث يتدارك في الآخرة.

ثم «علمهم» في وجه أشمل يشمل كل علم ناقص قصورا أو تقصيرا ، ولكن «بل هم ..» ليس اضرابا إلا عن علم الناكين.

ثم وليست العمى هنا هي فقد الجارحة المبصرة ، بل هي فقد الجانحة البصيرة ، تعاميا عن الحق المبين ، والذهاب على رسل صفحا عن النظر

الموصل إلى اليقين ، إما قصدا وتعمدا ، أو تساهلا وتجاهلا ، ثم ﴿إِذْ أَرَكْ عَلَّمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾
إذ «علموا ما جهلوا في الدنيا»^(١).

وكيف «منها عمون» دون «عنها»؟ حيث القصد شكهم فيها ، والامتراء في صحتها ، فهم في عمى منها ، إذ لا يعني . فقط . عماهم عن النظر إليها ، بل القصد ذكر عماهم بالشك فيها :

فقد عموا شاكين عن النظر فيها حتى عموا منها ، وهذا إضراب ثالث عن حالتهم الرديئة وجاه الآخرة فهم على علم ما تجاهلوا فيه : ﴿بَلْ إِذْ أَرَكْ عَلَّمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ وعنه إلى شك ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ ومنه إلى نكران ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ تنزلا عن قضية العلم بها إلى نكرانها!

وقد تعني «من» السببية فان عماهم عنها . دون الأولى . مسببة منها ، فانها دار حساب فتواب او عقاب ، وهم يبتغون زهرة الأولى وزهوهم ، والايمان بالآخرة والإبصار إليها يصددهم عما يهوون ، فهم . إذا . «منها» فقط ، لا الدنيا «عمون» وهكذا يصف الدنيا مطلقها الامام امير المؤمنين (عليه السلام) قائلا : «من ابصر بها بصرته ومن ابصر إليها عمته»!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أِنَّا لَمُخْرَجُونَ ٦٧ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ اِنْ هَذَا اِلَّا اَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٦٨﴾.

وكيف يتحول التراب إنسانا كما كان؟ وقد تحول لأول مرة ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ : ١٥) ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٣٠ : ٢٧) بل هم أحون من الحيوان وأضل سبيلا!

وهي كأنهم يحيلون تحوّل التراب إنسانا للمرة الآخرة ، وهم يرون

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ في تفسير القمي في الآية قال قال ...

مختلف التحولات الغامضة مدى الحياة ، فمن اين كانت الخلايا التي كوّنت منها هياكلهم الأولى ، فقد كانت مفرقة في أطواء الأرض وأجواء الفضاء وأجواز البحر ، ومنها ما انبعث من جسد رم ... ثم تمثلت ما تمثلت هذه الخلايا في مختلف الطعام والشراب والهواء والشعاع ، ثم تجمعت هيكلا إنسانيا ينمو من بويضة عالقة في رحم حتى يطلع إنسانا فإذا هو خصيم مبین : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٣٦ : ٧٧)!

كيف أصبح الوعد بالبعث من أساطير الأولين وخرافاتهم المودوعة في مسطوراتهم ، المتنتقلة فيما بينهم خلفا عن سلف ، وهو حقيقة تصدقها الفطرة والعقل والحس ، ويفرضها العدل؟!!

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي صَبَاقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ٧٠.

وذلك السير المأمور به نبهة للغافلين يعم السير التاريخي الجغرافي ، والجغرافي التاريخي ، سيرا حثيثا مسيسا في كتاب التكوين آفاقيا وأنفسيا ، أم تدوينيا ، وأفضل السير فيه وأكملة دوغما دجل ولا دخل أو دغل نجده في أكمل نسخة تدوينية عن نسخة التكوين وهو القرآن العظيم ^(١) حيث يسير بنا إلى مسرح الحياة الغابرة للأرض ومن عليها ، تبصرة وذكرى للذاكرين.

وليس السير في القرآن للمشركين حملا لهم على تقليد دون برهان حيث القرآن هو بنفسه قاطع البرهان على صدقه نفسه وانه كلام الله ، فصدق أنباءه

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ في كتاب الخصال وسئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال : معناه : أولم ينظروا في القرآن؟.

الغيبية تصديقا عن تحقيق ، والكون بكل جنباته حسيا وعقليا وعلميا وفطريا وفكريا
يجابوب نسخته التدوينية : القرآن العظيم.

﴿قُلْ سِيرُوا .. فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ : القاطعين ثمرات الحياة قبل
إيناعها ونضجها ، الجاعلين لطاقتها . وجنى الثمرات غير الناضجة فيها . هباء منشورا ،
فأصبحوا خواء بالعراء ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ إلا باقية دائرة غامرة ، ضامرة هامة .
وإذا هم لا يرحمون أنفسهم ولا ينعون ف ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لماذا أجرموا وفنوا ﴿وَلَا
تَكُنْ فِي صَبَقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ إذ ﴿مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦ : ١٢٣) فلا
تضيق . إذا . إلا أنفسهم بما يعمرون .

وإذا كانت عاقبة الإجماع هنا . وليست هي دار الجزاء . هكذا ، فباحرى العاقبة
الأخرى وهي دار الجزاء الأوفى ، فقد تلمح عاقبة العاجل لكونها أخرى وأتم في الآجل ! .
وهنا نلمس حساسية مرهفة لذلك القلب الكبير الكبير كيف كان يحزن على مسير
قومه الناكرين ومصيرهم كالسابقين ، وهم الماكرون به والمؤلّبون عليه ، ثم الله يطمئنه عن
مكرهم ويخلصه عن الحزن عليهم ، ليدوم في دعوته الصالحة دونما فشل ولا عطل .
﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٧١ .

ويكأن صدق الوعد لزامه العلم بمتاه ومداه ، فهل إنّ جهلهم بمتى الولادة والوفاة
لأنفسهم يحملهم هذا على نكران الولائد من ذي قبل ووفاتهم لوقت ما؟ فكيف اختص
التصديق ب ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ دون سواه ، بموقف العلم بمتاه ، فلولا فكلذب هو من أساطير
الأولين!

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ٧٣.

وإذا أنتم تستعجلون ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ العذاب بكامله ، ف «قل» لهؤلاء الحماقى الأنكاد ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ وقرب منكم «بعض» الوعد ﴿الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فهو . عساه . في آثاركم لاحقا بكم دون إهمال ولا إهمال .
وطالما عذاب الناصر لهذا الوعد ردفه وهو معه لا يفارقه فانه عمله اللازم معه في عنقه ، ولكنه لا يردف له يوم الدنيا تأجيلا إلى الآجل في الأخرى .

وعلى اللام في «لكم» كما تختص ذلك العذاب بهم دون سواهم من المستحقين ، كذلك سخريه بهم كأنه لصالحهم وهم يتطلبون حاضر وعدهم ، ف ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ لصالحكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ رغم انه عليكم وليس لكم!
ف «ردفكم» لا يخصهم في واقع العذاب الذي هو معهم ، و «ردف عليكم» لا يحمل ذلك الهزء بهم ، إذا ف ﴿رَدِفَ لَكُمْ ..﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث لا يستعجل لهم عذابهم في الأولى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك التأجيل ، عقيديا كما الناكرون ، أو عمليا كما العاصون ، ايعالا في المعاصي ، وادغالا في المآسي ! : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ فخيرات كل نفس وشروها هي ردفها هنا وردف لها هناك ، اللهم إلا ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فقد يردف لهم هنا عذاب الاستئصال كيوم بدر قتلا لهم ، وسواه صيبا من السماء أو الأرض ، وهو بعض الذي به يستعجلون ، ثم عذابهم يوم الرجعة إذ يرجع من محض الكفر محضا كمن

مَحْضُ الْإِيمَانِ مُحْضًا ، ثُمَّ كَامِلُ الْعَذَابِ يَوْمَ الْبَرْزَخِ ، وَإِلَى أَكْمَلِهِ فِي الْآخِرَى ، وَ «عَسَى» هِيَ بِأَحْرَى لِلأَوَّلِ ، دُونَ الثَّلَاثَةِ الْآخَرَى فَانْهَازًا مَحْتَمَلَةً.

وَكَيْفَ «عَسَى أَنْ يَكُونَ ..» وَاللَّهُ لَا يَرْجِي شَكَا وَمَنْ يَرْجِي؟ «قُلْ» هُنَا يَحُولُ تَرْجِي «عَسَى» إِلَى سَاحَةِ الرِّسَالَةِ ، أَنَّهُ يَرْجُوا رَدْفَهُ لَهُمْ هُنَا بِمَا يَتَطَلَّبُونَ وَيَسْتَحِقُّونَ ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَالْمَوْقِفُ الرِّسَالِيُّ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ هُوَ مَوْقِفُ الرَّجَاءِ ، وَلَيْسَ اللَّهُ لِيَرْجِي! .
ثُمَّ مِنْ وَاجِهَةٍ أُخْرَى قَدْ تَعْنِي «عَسَى» هُنَا تَنَازُلًا أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ النَّاكِرِينَ الْوَعْدَ وَتَحْقِيقَهُ بِحَقِّ الْكَافِرِينَ ، حَيْثُ الرَّسُولُ مَوْقِنٌ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَعْذَّبُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَوْقِنٍ بِعَذَابٍ قَبْلَ الْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَعِدَهُ رَبُّهُ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۖ ۗ ٧٤ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۖ ٧٥﴾.

عَلَّيْهِمْ خَيْلٌ إِلَيْهِمْ أَنْ اللَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا تَكْنُهُ صُدُورُهُمْ ، إِظْهَارًا لِخِلَافِ الْمَكْنُونِ فِيهَا ، فَلَا يَعْجَلُ لَهُمُ الْعَذَابُ رَدْفًا لَهُمْ لَوَعْدِهِ قَبْلَ الْآخِرَةِ ، إِذْ لَا يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ إِمْهَالٌ وَإِمْلَالٌ عَنْ عِلْمٍ ، فَضْلًا لِمَنْ يَتَنَبَّهُ امْتِحَانًا ، وَتَأْجِيلًا لِسَوَاءِ امْتِحَانِنَا ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْجَزَاءِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ فَضْلًا عَمَّا يَعْْلَنُونَ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ..﴾.

وَلَيْسَ فَحَسَبَ ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أَوْلَاءُ ، بَلْ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ .. إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وَهُوَ الْعِلْمُ الْمَكْنُونُ لَدَى اللَّهِ.

وَعَلَّ «غَائِبَةٍ» هِيَ الْمُبَالَغَةُ بِتَأْثِيرِهَا كَالْبَصِيرَةِ وَالْعَلَامَةِ ، فَأَغْيَبَ الْغَيْبَ فِي الْكُونِ كُلِّهِ هُوَ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ عِلْمًا وَقُدْرَةً ، فَضْلًا عَنْ سَائِرِ الْغَيْبِ ، أَمْ

هي صفة ل «أشياء . امور . حالات . طويات» أما هيه من صالحة لهذه الصفة ، وعلّ المبالغة أولى وهي تشملها بالأولى ، ام لكليهما مبالغة وتأنيثا.

وقد تعني «مبين» انه تعالى يبين كل غائبة لمن ارتضاه ^(١) ، إلّا ما اختص الله بعلمه.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)﴾

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ عن اصول الكافي عن أبي الحسن الأول (عليه السلام) انه قال : وقد أورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان وبه يحى الموتى ونحن نعرف الماء تحت الهواء وان في الكتاب لآيات ما يراد بها امر إلا أن يأذن الله به ما قد يأذن مما كتبه الماضون جعله الله لنا في ام الكتاب ان الله يقول : ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ثم قال : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فنحن الذين اصطفانا الله عز وجل ، وأورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كل شيء.

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ
 (٨٢) وَيَوْمَ نَخَشُّرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُ قَالَ
 أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ
 لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ
 وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي
 أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
 آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ

فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا
وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا
رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ٧٦.
﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦ : ٦٤).

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ دون سواه من قرائن الوحي السابقة عليه «يقص» قصا من
الأنباء المذكورة في كتب الوحي الإسرائيلية ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم المحور الأصيل في
شرعتهم مهما كانت نعم كافة المكلفين ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك الأكثر هو
بطبيعة الحال يحمل أهم الخلافات في أصول الشريعة وفروعها وما تحمل كتاباتها من قصص
النبیین وسواهم ، ثم الأقل الذي هم فيه يختلفون قد يلوح من طيات الأكثر.
و ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يشمل كافة الاختلافات الإسرائيلية التي

تخلّفها اختلافاًهم وتحريفاتهم كتابات الوحي التوراتي عن جهات أشرعها طول الزمن ما داموا هم موجودين لمكان «يختلفون» الدالة على الاستمرارية في بشارات بحق هذا الرسول الإسماعيلي لأنه ليس من إسرائيل ، وقصص رسالية ، وأحكام كتابية أمّا هيّه ، كما هي بينة في سرد القصص القرآنية عن افتعالاتهم في مختلف حقولها.

وذلك القص الساحق هو قضية الهيمنة القرآنية على كتابات الوحي السالفة ، وليدل أهل الكتاب على مدى ضلالهم ، دفعنا لهم إلى الهدى القرآنية الصادقة ، كما :
﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٧٧.

منهم ومن سواهم ممن يقرع آذانهم صارم الوحي القرآني السامي ، «هدى» تقيهم من خلافتهم العارمة ، توحيداً للنهج وتوصيلاً إلى المبلج ، وذلك الاهتداء بهدي القرآن هو قضية الايمان بقضيته ، والمنهج القرآني هو الوحيد المنقطع النظر في استعادة النفوس عن ورطاتها ، وتركيبها وفق الفطرة الساذجة والعقلية الناضجة دون تكلف ولا تخلّف عن السنن الكونية ، تجاوبا رائعا بين كتابي التكوين والتدوين.

والمصدران يشيان لمحدد القرآن انه مصدر الهداية والرحمة ، فانه خالصهما دون شوب ، وكأن هو الهدى والرحمة!.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ٧٨.

«إن ربك» الذي رباك بهذه التربية القمة القرآنية ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ هنا في القرآن قضاء صارما يفصل بينهم بالحق ، وهنا يوم الجزاء قضاء عمليا جزاء وفاقا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ تغلبا على المتخلفين المختلفين «الحكيم» في عزته بقضائه وحكمه.

ثم وبعد ما أوحى إليك يا رسول الهدى هذا الكتاب المهيمن في هداه دون نقص ولا ركس :

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ٧٩.

إنه ليس التوكل على الله اتكالية دون سعي ، وإنما هو زاد الطريق الشاق الطويل المليء بالأشواك والدماء والأشلاء ، بعد التزود بكل الطاقات والإمكانات المحولة والمحوّلة ، فقد حوّل إلى الرسول ذلك الحق المبين ، وحول اليه تحقيق هذا الحق المتين ، إذا ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في تحقيق هذه الرسالة الشاقة ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ﴾ المطلق «المبين» لكل حق وكما يبين ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ﴾.

وهذه تسليّة لخاطر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الجريح القريح ، وتأسيّة على جموع المشركين والكتابين ولجأهم وإصرارهم على النكران بعد الجهد الشاق في النصح والبيان ، و :

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ٨٠.

«إنك» على محتدك الرسالي ﴿لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ إذ لا سمع لهم ، وترى كيف الموتى لا يسمعون الأحياء وهم في حياة برزخية قد يسمعون أكثر منا وأقوى ، ولا سيما ان المسمع هو رسول الهدى؟ إن الموتى ليسوا في حياة التكليف حتى ينفعهم سمعهم هكذا ، والمقصود هنا السمع في حياة التكليف لتكاليف الشرعة ، فهؤلاء الموتى عن الروحية الانسانية وسمع الإنسان اذنا وقلبا «إنك لا تسمعهم ، حيث الإسماع بحاجة إلى سمع ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ وقد يسمع الصّم الدعاء إذا تسمّعوا أم لم يولوا مدبرين ، ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ كما و ﴿لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ... إِذَا وَلَّوْا

مدبرين» عن الحياة الدنيوية ، إسماعا ينفعهم هناك.

فظرف السمع للدعاء الرسالي هو القلوب الحية والآذان الصاغية ، للمؤمنين بآيات الله ، دون ميتات القلوب والصم الأسماع هنا ، ودون الأموات حيث لا يدعون للشرعة :

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

.٨١

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢٢ : ٤٦) ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ﴾ عن أبصار القلوب «عن ضلالتهم» فلا إسماع للموتى والصم العمى ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ آفاقية وانفسية هي لهم مرئية فهم مبصرون ، ومسموعة فهم سامعون ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إسلاما لله بما يرون ويسمعون ويعقلون من آياتنا.

وقد تكون «الصم والعمى» بيانا للموتى فلا قصور فيك كرسول ، ولا في آياتنا إبصارا بها وإسماعا ، وانما القصور التقصير في الموتى والصم الذين لا يسمعون ، والعمى الذين لا يبصرون فلا يستجيبون ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٦ : ٣٦) ، ومن الموتى المستعدون للحياة من يسمع فيحيى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦ : ١٢٢).

فما دامت آيات الله بينات ، وهناك أموات يتحرون عن الحياة ، وهنا رسول يسمعهم تلکم الآيات ، فالإسلام لله حاضر دون تلكؤ ولا تحميل ، حيث الإسلام هو نداء الفطرة ، ما إن وجدت نداء الحق أقبلت إليها وقبلت ، فليس نكران الموتى عن الحيوية الانسانية ، بالذي يدل على قصور

في تلكم الآيات ام تقصير في إسماعها ، ف ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .
 وإلى تهديد شديد حديد في الأولى قبل الأخرى يوم القائم المهدي من آل محمد عليهم
 السلام :

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا
 يُوقِنُونَ﴾ ٨٢ .

هذه والثلاث اللاتي بعدها عرض لعذابهم الأدنى دون العذاب الأكبر وكما وعد الله :
 ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣٢ : ٢١) ثم الرابعة
 ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ..﴾ تصريحه أخرى . بعد تلميحته من الأربع . ان وقوع القول عليهم
 وحشرهم قبل القيامة الكبرى ، وليس يعني اصل القول في وعد العذاب إذ صدر قبل ، ولا
 واقع القول في اصل العذاب فان فيه موتهم فكيف تكلمهم دابة من الأرض ، إذا فهو وقوع
 أوانه ولما يقع حتى يسمعوا قالة الدابة المنذرة بهم ثم يقع ، وتكلم الدابة المخرجة من الأرض
 قبل الرجعة هو من أشراتها وكما للساعة أشرط ، وانما تكلمهم الدابة منذرة مهينة إياهم ،
 فقد اندرهم الرسل فعموا وصموا فلم يك ينفعهم تواتر الإنذار ، فلتنذرهم دابة الأرض تناسقا
 بين المنذر والمنذر وهم شر منها : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾
 (٨ : ٢٢) .

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ هؤلاء الموتى الصم العمى ، لا فقط خصوص الموجودين
 زمن نزول القرآن ، بل هم كل أولئك الذين يحملون ثلوث النكبات على مدار الزمن طول
 التاريخ الرسالي ، ومن «القول» هو

كلمة العذاب وكما تأتي بهذه الصيغة في آيات عدة ، أيا كان العذاب في الأولى كما هنا وفي الأخرى كما في سواها ، ومنه سائر القول كوعد الرجعة إلى الحياة الدنيا ليدوقوا فيها عذابا قبل الأخرى ، وهو المقصود هنا إذ لو كان واقع العذاب فلا مستمع منهم لقالة دابة الأرض. ﴿أَخْرَجْنَا هُمْ﴾ أولاء ككل ودون إبقاء ﴿دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تَكَلِّمُهُمْ...﴾ تكلمهم أولاء الموجودين زمن إخراج الدابة ولما يرجع الراجعون يوم الرجعة ، لأنها يوم حشرهم عن بكرتهم في مثلث الزمان ولما يأت ، فانه يوم آخر للقول هو يوم واقع العذاب بعد رجوعهم كلهم : ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا...﴾.

فالحملة الأولى لخطاب الإنذار التنديد من الدابة هم الأحياء زمن إخراجها ، والموجه إليهم ذلك الخطاب . وهؤلاء الأولون يحملونه . هم كل المكذبين بآيات الله الراجعون يوم الرجعة.

وما هي دابة الأرض هذه التي تكلمهم بلغة الإنسان؟ هي ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أيا كان من الحيوان الدابة ، فليس من ملائكة الله ولا الطير ، ولا من أولياء الله ، حيث الدابة ليست تعبيرا لا ثقا بهم في أدب القرآن الذين يخاطب أدني المؤمنين بالذين آمنوا فكيف يعبر عن أكبر أولياء الله بعد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بـ ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾؟ كما في مختلقات مروية عندنا أنها الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام) ^(١)!!!

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٨ في تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : انتهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى امير المؤمنين (عليه السلام) وهو قائم في المسجد فد جمع رملا ووضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال : قم يا دابة الأرض ، فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله .

ولا ما تصفها روايات في كتب إخواننا ان طولها ستون ذراعا ، ذات زغب وريش وحافر ، لها لحية ، رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن

. (صلى الله عليه وآله وسلم) أيسمي بعضنا بهذا الاسم؟ فقال : لا والله ما هو إلا له خاصة وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال عز وجل : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ..﴾ ثم قال : يا علي ! إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعدائك .. ، وفيه قال ابو عبد الله (عليه السلام) قال رجل لعمار بن ياسر يا أبا اليقظان ان آية في كتاب الله أفسدت قلبي وشككتني؟ قال : وأية آية هي؟ قال : قوله عز وجل ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ..﴾ فأية دابة هذه؟ قال عمار : والله ما اجلس ولا أكل ولا أشرب حتى أريتها فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يأكل تمرًا وزيدًا فقال : يا أبا اليقظان هلم ، فاقبل عمار وجلس يأكل معه فتعجب الرجل منه فلما قام الرجل قال : سبحان الله انك حلفت ان لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس حتى تريني الدابة؟ قال : أريتكمها إن كنت تعقل ، وفيه عن المجمع عن العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر أيضا وروى محمد بن كعب القرظي قال سئل علي (عليه السلام) عن الدابة؟ فقال : اما والله ما لها ذنب وان لها للحية ، وفي تفسير البرهان ٣ : ٣١٠ محمد بن العباس بسند عن أبي عبد الله الجدي قال دخلت على علي (عليه السلام) فقال : أنا دابة الأرض ، وفيه عنه بسند عن الأصمغ بن نباتة قال دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يأكل خبزًا وخلا وزيتًا فقلت يا أمير المؤمنين قال الله ... فما هذه الدابة؟ قال : هي دابة تأكل خبزًا وخلا وزيتًا ، وفيه عنه عن الأصمغ بن نباتة قال : قال لي معاوية يا معاشر الشيعة تزعمون ان عليا دابة الأرض؟ فقلت : نحن نقوله واليهود يقولون ، قال : فأرسل إلى رأس الجالوت فقال له : ويحك تجدون دابة الأرض عندكم مكتوبة؟ فقال : نعم ، فقال : ما هي أتدري ما اسمها؟ قال : نعم اسمها إيليا ، قال : فالتفت الي فقال : ويحك يا أصمغ ما اقرب إيليا من علي ! ، وفيه سعد بن عبد الله عن عبد الله بن يسار قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : في حديث قدسي يا محمد عليّ أول من أخذ ميثاقه من الأئمة عليهم السلام يا محمد علي آخر من قبض روحه من الأئمة عليهم السلام وهو الدابة التي تكلم الناس.

فيل وقرنها قرن إبل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة
هرّ وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير^(١)!!!

فهذه تجمع لهذه الدابة مختلف هيئات لمختلف الدابة ، وتلك تقول انها مجمع فضائل
الانسانية القمة ، فهي بين مفرطة ومفرطة ، والنص ﴿دَابَّةٌ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ لا هكذا إنسان ولا
هكذا حيوان ، وبينهما أحاديث عن الفريقين عوان نصدق منها ما صادق القرآن^(٢).

. أقول : هذه مختلقات زور على الله وعلى رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى علي (عليه السلام) وعلى
بعض المعصومين من ذريته. إن عليا (عليه السلام) هو دابة الأرض ، والله والرسول والأئمة منه براء!.

(١) الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الزبير انه وصف الدابة فقال : رأسها ...
(٢) الدر المنثور ٥ : ١١٤ . اخرج نعيم بن حماد وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه
وآله وسلم): إذا كان الوعد الذي قال الله : أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ... فيكون خروجها من الصفا
ليلة مني فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يخرج خارج حتى إذا فرغت مما أمرها الله فهلك من
هلك ونجا من نجا كان أول خطوة تضعها بانطاكية ، وفيه ١١٥ . اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) قال : تخرج الدابة يوم تخرج وهي ذات عصب وريش .. وفيه ١١٦ . اخرج ابن جرير
عن حذيفة بن اليمان قال ذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الدابة فقال حذيفة يا رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) من اين تخرج؟ قال : من أعظم المساجد حرمة على الله بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه
المسلمون إذ تضطرب الأرض من تحتهم تحرك القنديل وتشق الصفا مما يلي المسعى وتخرج الدابة من الصفا أول ما
يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب ...

وفي نور الثقلين ٤ : ٩٧ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى النزال بن .

وقول القائل تبريرا لكون المعني منها الإمام علي (عليه السلام). ولا سمح الله . : إِنَّ الدابة جنس تشمل كل حيوان وإنسان أيا كان ، مردود إليه بان ذكر الجنس الشامل لسائر الحيوان قصدا إلى أفضل انسان ، هو من أسوء التعبير وأشنعه ، بل والتعريف له بمطلق الإنسان أن عليا (عليه السلام) كان إنسانا ، وصالح التعريف أيا كان هو التعريف بالفصل الخاص والصفة المتميزة الخاصة كما المؤمن . العادل . الامام . ولي الله أماذا من أخص الفصول القريبة المميّزة له عن سواه.

وفي هذا المجال المختلق ضد الامام علي (عليه السلام) قيل له ان ناسا يزعمون انك دابة الأرض؟ فقال : والله ان لدابة الأرض ريشا وزغبا

. سيرة عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل قال فيه . بعد ان ذكر الدجال . ومن يقتله واين يقتل؟ ألا ان بعد ذلك الطامة الكبرى ، قلنا : وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان وعصى موسى عليهما السلام تضع الخاتم على وجه كل مؤمن فينطبع فيه هذا مؤمن حقا وتضعه على وجه كل كافر فيكتب هذا كافر حقا حتى ان المؤمن لينادي الويل لك حقا يا كافر وان الكافر ينادي : طوبى لك يا مؤمن وددت اني كنت مثلك فأفوز فوزا عظيما ، ترفع الدابة رأسها من بين الخافقين بإذن الله جل جلاله وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة ولا عمل يرفع ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ ثم قال : لا تسألوني عما يكون بعد هذا فانه عهد إليّ حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألا أخبر به غير عترتي.

أقول : من جملة ما يرد على هذه الرواية . اضافة الى قصة من هو الدابة . خروجها بعد الدجال ، والدجال يكون في زمن المهدي وبعد الرجعة وخروج الدابة هو قبلها فانه من أشراتها!.

ومالي ريش ولا زغب وان لها لحافرا ومالي من حافر»^(١) وهنا أصبحت رواية إخواننا السنّة بحق الإمام (عليه السلام) أرحم من رواية أصحابنا الشيعة! وهنا ندرك أبعاد الشكيمة اللثيمة على الإمام (عليه السلام) بلسان أشياعه المجاهيل دفعا لهم إليها من أعادييه ، فهم أولاء الحماقى يذيعون عليه (عليه السلام) هذه الواصفة النكدة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، رغم أنهم من الأخسرين اعمالا!

ولماذا يفسر ﴿دَابَّةٌ مِّنَ الْأَرْضِ تَكَلِّمُ هُمْ﴾ بعلي (عليه السلام)؟ لأن تكلم الدابة خارقة ربانية فلتكن له (عليه السلام)؟ وليس تكلم الإمام بخارقة ، بل الخارقة هي تكلم الدابة؟

ومن المظنون ان دابة ناصبة معاندة للإمام استغفل دابة ممن يدعي انه من أشياع الإمام فحملته على ذلك التأويل العليل ، إذ خيل إليه انه غنيمة من التأويل حيث يختص الإمام بهذه الكرامة الغالية! وليس تكلم الإنسان كرامة لأي إنسان فضلا عن الإمام! فما حديث دابة الأرض تفسيرا لها بالإمام إلّا تلقينا لعينا من دابة ناصبة إلى دابة راسبة في شعورها تدعى أنها من الشيعة ، مهما تظافر نقله في كتابات شيعية والامام علي (عليه السلام) براء من هكذا هتك وفرية.

وانها حسب الآية وروايات من الفريقين حيوان وليس أي إنسان ، ﴿دَابَّةٌ مِّنَ الْأَرْضِ تَكَلِّمُ هُمْ﴾ هؤلاء الكفرة الأنكاد : «ان الناس» : وهم هؤلاء وأضرابهم ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

إخراج دابة من الأرض تكلمهم هو من أشرط الساعة وليس فيها

(١) الدر المنثور ٥ : ١١٧ . اخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال قيل لعلي بن أبي طالب ...

كانوا بآياتنا لا يوقنون؟ والعبارة الصالحة له «أنهم كانوا» لأنهم هنا الناس! علّهم هم الحاضرون في ذلك المسرح ، و «الناس» هم كل الكافرين على مدار الزمن الرسالي ، فهي . إذا . تكلمهم هؤلاء الحضور ، «أن الناس» وهو يعمهم وكل اضراهم ولما يحشروا «كانوا» على طول الخط الرسالي ﴿بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وهم المحشورون ككل بعد يوم الدابة ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ۖ﴾ . فقد تكون هذه الدابة إذاعة معلنه للذين كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل حشرهم ، ولكي يعرفوا في مسرح الحشر أمام أنفسهم والذين هم كانوا بآياتنا يوقنون.

وترى ما هو كلامها؟ هل هو كلمها ووسمها إيّاهم دون تكلم بلفظة؟ وهذا كلم وذلك تكليم ، والنص يرفض رواية الكلم مهما كثرت روايته ، ويرجح روايات التكليم مهما قلت روايته ^(١) ورواية الكلم تكلم

(١) في الدر المنثور يروي الرواية الأولى عن رسول الله (صلى الله عليه عن ابن عمران : ليس ذلك حديثا ولا كلما ولكنه سمعته من أمرها الله به ، وعن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .. فتتقسط في وجه المؤمن نقطة يضاء فيبيض وجهه وتنقط في وجه الكافر نقطة سوداء فيسود وجهه ، وعن حذيفة بن يمان عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) تسم الناس مؤمن وكافر .. وعن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) فتجلو وجه المؤمن بالخاتم وتحطم أنف الكافر بالعصا.

وفيه يروي الرواية الثانية عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تخرج دابة الأرض .. وتنادي بأعلى صوتها ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .. وعن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من بين الخافقين ، وفي نور الثقلين ٤ : ٩٨ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) : ... فقال رجل له (عليه السلام) ان العامة يقولون ان هذه الآية انما تكلمهم؟ فقال : كلمهم الله في نار جهنم انما هو تكلمهم من الكلام ، وفيه جوامع الجامع عن الباقر (عليه السلام) :

القرآن كلم الله راويها ومختلفها خلاف نص القرآن!.

والمكذبون هنا قد تعنيهم آية الأنبياء فيمن تعنيهم ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ. حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ (٢١ : ٩٧).

﴿وَيَوْمَ نُحْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بَايَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ٨٣ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨٤ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْتَقِفُونَ﴾ ٨٥.

﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ تعني كل الأمم الرسالية الموجهة إليهم الرسالات الخمس الإلهية ، وهذا الحشر لا يعمهم هنا كلهم ، وانما ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بَايَاتِنَا﴾ ف «من» الأولى للتبويض ، والثانية للتبيين ، إذا فكل المكذبين بآياتنا من كل أمة يحشرون في ذلك اليوم. وكما ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ تعني الأمم الخمس بكل أنبياءها ورسُلها ، كذلك «آياتنا» تعني كل الرسل أصولا وفروعا ، بآياتهم الرسالية معجزات وكتابات ، ف «آياتنا» إذا هي مثلث الآيات رسوليا ورساليا.

والحشر هو الجمع ، إن أحياء فأحياء وإن أمواتا فأموات ، وهنا الجمع بينهما فإيهم المكذبون . ككل . من كل امة ، من الأحياء الحضور في ذلك اليوم والأموات قبله. فهل إن ذلك اليوم بعد هو القيامة الكبرى ، حشرا خاصا لخصوص العذاب وكما في نظيرتها : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ

. كلم الله من قرأ يكلمهم ولكن تكلمه بالتشديد.

(٤١ : ٢٠)؟

وهذه في الحشر إلى النار فطبعاً هو خاص بأعداء الله بعد الحشر العام ليوم القيام ، وتلك حشر للاستجواب وهو يعم كل المحشورين مؤمنين وكافرين ، اللهم إلا السابقين وأصحاب اليمين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٧٤ : ٣٩) !
 ذلك حشر خاص في يوم خاص لحياة التكليف ، فقد جاء بعد شرط من أشرط الساعة وهو خروج الدابة ، وقبل الساعة نفسها : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ..﴾ وهو خاص بمن ﴿يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا﴾ وهو من محض الكفر محضاً وكما آية النور والوعد في الزبور ^(١) تحتصان الحشر بمن محض الإيمان محضاً ، فالمستفيضة المروية عن أئمتنا عليهم السلام «لا يرجع إلا من محض الإيمان محضاً ومن محض الكفر محضاً» ^(٢) مستضيئة من هذه الثلاث الدالة على الحشر الخاص.

فكما الذين آمنوا وعملوا الصالحات في النور ، وعبادي الصالحون في وعد الزبور محلّقان على كافة المؤمنين الصالحين لورثة الأرض ، فهم محشورون لها في مستقبل منير ، كذلك ﴿مَنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا فَهَمْ يُوزَعُونَ﴾

(١) آية النور هي «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..» والثانية «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٠٠ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ما يقول الناس في هذه الآية ﴿يَوْمَ نُخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ ؟ قلت يقولون انها في القيامة ؟ قال : ليس كما يقولون ، انها في الرجعة ، أيحشر الله في القيامة من كل فوجا ويدع الباقيين ؟ انما آية القيامة ﴿وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

منعنا عن التفرق في موقف حشرهم ، فريقان متفارقان يحشران قبل ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧) لا فحسب ﴿مَنْ يُكَذِّبُ بَيَاتِنَا﴾ ولا فحسب المؤمنون الصالحون ، بل ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (١٨ : ٤٧)^(١).

فقد يرجعون لما يدعون ويستجابون ، وروايات الرجعة . ككل . هي فوق حد التواتر ، وهي معنويا اجماليا تدل على رجعة أموات قبل القيامة الكبرى^(٢).

(١) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن المفضل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : ليس احد من المؤمنين قتل إلا ويرجع حتى يموت ولا يرجع إلا ... وفي البحار ٥٣ : ٣٩ عن أبي عبد الله (عليه السلام) .. وان الرجعة ليست بعامة وهي خاصة لا يرجع إلا من محض الايمان محضا أو محض الشرك محضا فهم يرجعون».

(٢) إليكم اسماء البعض من روات الرجعة عن المعصومين عليهم السلام :

بريد الأسلمي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكافة الأئمة الاثني عشر . عباية الأسدي . مسعدة . الثمالي عن علي امير المؤمنين (عليه السلام) . ابو خالد الكاهلي عن علي بن الحسين عليهما السلام . بكير بن أعين . ابو بصير . جابر بن يزيد الجعفي . ابن المغيرة . حمران . داود بن راشد . عاصم بن حميد . صالح بن ميثم . ابو حمزة الثمالي . ابن عيسى . عامر بن معقل . محمد بن مسلم . عبد الله بن عطا . سدير . زرارة . أبو الصباح . عبد الرحيم القصير عن الامام الباقر (عليه السلام) .

حمران بن أعين . ابو الخطاب . زرارة . محمد بن مسلم . محمد بن الطيار . ابن بكير . فيض بن أبي شيبه . عبد الكريم بن عمرو الخثعمي . سليمان الديلمي عن أبيه . معلي بن خنيس . ابن مسكان . معاوية بن عمار . موسى الحنات . زيد الشحام . جميل بن دراج . سالم بن المستنير . صالح بن سهل . مفضل بن عمر . صفوان بن مهران . عبد الله بن القسم . عمار بن مروان . احمد بن عقبة عن الامام الصادق (عليه السلام) .

القسم . محمد بن عبد الله الحسيني عن الامام الكاظم (عليه السلام) .

موسى بن عبد الله الخثعمي عن الامام علي النقي (عليه السلام) .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُ﴾ الى حشر الرجعة الموزعة أحياء وأمواتا «قال» الله لهؤلاء المحشورين
﴿أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ والحال انكم ﴿لَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ تكذبا جاهلا قاحلا عن تقصير «إمّا
ذا» من اعمال في مسرح الآيات ﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم بعدئذ :

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ عن بكرتهم بأسرهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ من ذي قبل ﴿فَهُمْ لَا
يَنْطِقُونَ﴾ إذ أصبحوا سكوتا بعد وقوع القول عليهم خامدين ، وكما كانوا سكوتا حين
وقوع القول إذ لا يؤذن لهم في كلام ، لا اعتذارا ولا اعتراضا! ، وكما يوم القيامة ﴿هَذَا يَوْمُ
لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٧٧ : ٣٩) وقد تتعلق ب ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ ب ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ كما يتعلق
ب ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ . ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ بما وقع القول عليهم وبما ظلموا.

فلقد نطقت الدابة بما ظلموا «فهم لا ينطقون بما ظلموا» فهم ساكتون واجمون ، من
وطأة الموقف الرهيب ، والعذاب العسير ، والله من ورائهم رقيب ، فكيف ينطقون؟!
ثم وبطبيعة الحال ليس لسؤال التهكم التأنيب «أكذبتم...» جواب إلا ﴿فَهُمْ لَا
يَنْطِقُونَ﴾.

ولقد صرحت كتابات من العهدين بهذه الرجعة وراجعها في الدولة المظفرة المهدوية
عليه آلاف سلام وتحية وكما في دانيال ١٢ : ١٦ . ١ «وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل
الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت امة إلى ذلك الزمان
١ ، وفي ذلك الزمان ينجو شعبك

أبو القاسم بن العلاء عن الامام الحسن بن علي العسكري (عليه السلام).

الحسين بن روح عن الامام محمد بن الحسن المهدي (عج).

هذا شطر ممن روى حديث الرجعة من أصحابنا الإمامية ، وكذلك الرواة من إخواننا السنة كثير وأقل

التقدير في رواية الرجعة من أصحابنا قرابة ٦٠٠ شخصا (المصدر البحار ج ١٣ القديم).

كل من يوجد مكتوبا في الكتاب ٢ وكثيرون من الراقيدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والردل الأبدى ٣ ... سمعت ولم أفهم فقلت يا سيدي ما آخر هذه ٩ فقال اذهب يا دانيال فان الأقوال مغلقة ومختومة إلى وقت الانقضاء ١٠ إن كثيرين يتنعمون ويتبعضون وبمحسون والمنافقون ينافقون ولا أحد من المنافقين يفهم اما العقلاء فيفهمون ١٢ طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى الف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يوما ١٣ وأنت اذهب إلى الانقضاء وستستريح وتقوم في قرعتك إلى انقضاء الأيام» ١٤!.

وقد يرجو زرد شت ان يكون ممن يحيى حياة جديدة في ذلك الزمان كما في «كاتها». يسناها ٣٠ : ٩» ترجمة حرفية عن الأصل الأوستائي البهلوي : «فحينئذ أي مزدا! يقيم بھمن ملكك في خاتمة الأيام لهؤلاء الذين يستبدلون الصدق بالكذب ٨ ونرجو ان نكون ممن يحيى حياة جديدة اي مزدا! ...» ٩ .. اجل وفي ذلك الزمان ينكسر عالم الكذب بفلاح الصدق وكذلك في عالم الخير (القيامة) ..» ١٠ «بھمن» هنا حسب اللغة الأوستائية هو الممثل العظيم للقدرة والمعرفة الربانية ، فهو زعيم الدولة ^(١) الأخيرة الامام المهدي عليه آلاف سلام وتحية!.

وقد يؤمر داود (عليه السلام) بعد آيات من الزبور بتبشيريه بما بشرت آية الأنبياء : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يؤمر في ختامها : «انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض. عند استئصال المنافقين تنظر» (مزمو ر ٣٧ : ١٣٤) فهو من الراجعين

(١) يراجع للتفصيل إلى كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ٢١١ . ٢١٤ .

في رجعة أخص الخاص.

والرجعة ايام المهدي (عج) تخلق على أخص الخواص وهم المرسلون والأئمة المعصومون ، ثم الخواص وهم من محض الايمان محضا . احتراماً . ومن محض الكفر محضا . اختراماً . وهما رجعة بالاستعداد ، وثالثة هي الرجعة بالاستدعاء للمتوسطين في الإيمان .
وهنا نقلة من مشهد واقع القول على المكذبين الحائرين المائرين في حشر الرجعة ، إلى مشهدهم قبل حشرهم :

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

.٨٦

فهذان المشهدان المتواتران طول الحياة حقيقان خليقان لإيقاظ الإنسان ان هناك يد الرحيم الرحمان تقلب الليل والنهار ﴿فَبَآئِيَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٨ : ٧٣).

ففي سكن الليل وإبصار النهار ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ من عدة جهات ، منها الرحمة المتعالية باختلاف الليل والنهار ، والتدليل على أن وراءهما قدرة عالمة قاصدة ، لا ذات نسق واحد لمكان اختلاف الخلق ، ولا فوضى الشتات حيث الحكمة فيه باهرة ، كما ومنها إمكانية الحياة بعد الموت ، كما يقظة النهار حياة نسبية بعد نومة الليل.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ ٨٧.

الصور هو الناقور حيث ينفخ فيه مرة للإماتة واخرى للإحياء ، وليس جمع الصورة لمكان ضميره المفرد في آية الزمر : ﴿ثُمَّ نُفِخْ فِيهِ أُخْرَى﴾.

وتراها هنا الأولى؟ ﴿وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ لا تلائمها! أم هي الثانية؟ وقد لا تناسبها ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾! وكذلك ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الظاهرة في حياتهم دنيويا أو برزخيا ، ثم في الأولى الصعقة وليست فقط الفرعة : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٩ : ٦٨).

قد تعني النفخة هنا المرتين لمكان الإشارتين ، فالفرعة في الأولى تشملها والصعقة والموتة ، وفي الثانية فرعة الإحياء لأحكما بعد فزعة الموت ، ثم الفرعة يوم القيامة شاملة حيث يحشرون إلا ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (٨٩).

ف ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ في الصعقة للنفخة الأولى ، هم أخص «مَنْ شَاءَ اللَّهُ» في الفرعة للنفخة الثانية ، فالسابقون والمقربون أو وجمع من اصحاب اليمين لا يصعقون في الأولى لا موتا عن الحياة البرزخية ولا دون الموت من صعقة ، وكما لا يفرعون ، والباقون يصعقون موتا ام دونه ، ثم وفي الثانية يفرع المحشورون إلا من جاء بالحسنة وهم أعم منهم بكثير حيث تشمل كل الصالحين على درجاتهم ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾.

ثم في الثانية ﴿وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ، مهما اختلف صغار الآمنين عن غير الآمنين ، فالآمنون صاغرون هناك كما هنا أمام العظمة الربانية بذل العبودية وصغارها امام المعبود ، وغيرهم صاغرون أذلاء مهتكون

بذل الاستكبار عن عبادته : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾
(٤٠ : ٦٠) واين داخرين من داخرين؟.

و «أتوه» هنا تعني الرجوع إلى الله دون أن يملكوا لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله حسب الأعمال صالحة وطالحة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(١).
﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ٨٨.

الرؤية قد تكون بصرية مجردة ، ام ببصيرة حاصلة أم محصلة علمية ، أم ببصيرة الوحي ، أترى «وترى» هنا تعني الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ام وكل راء سواه؟ إنها تعني الرسول كمخاطب أول بوحى القرآن ، ثم سائر المكلفين بما يحمله الرسول إليهم ، اللهم إلا بقرينة قاطعة تخص الخطاب به وليست هنا فليس.

ثم وحقل الرؤية من أي كان هل هو يوم الدنيا تدليلا على حركة الأرض غير المرئية بدائية بالبصر ، والوحي يرى أنها ﴿تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ كما العلم أرى في العصور المتأخرة عن وحي القرآن زاوية من مرها.

فكل راء إلى الجبال كقواعد للأرض يحسبها بقواعدها جامدة لا حراك لها ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ خارجا عن الإحساس ، والرسول هنا كسائر الناس إلا أن يوحى إليه بما يتجاوز الإحساس ، وقد اوحى إليه ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ وما أجمله تعبيرا وأمثله مثالا حيث السحاب المارة لا ترى بداية الرؤية أنها تمر ، إلا بعد

(١) راجع آية الزمر تجد على ضوءها فصل القول حول النفخة والصعقة.

رجوع البصر وقياس بعضها إلى بعض ، فهي متحركة يحسب انها جامدة كما كانت الأرض محسوبة على جمود ، ومن حراك الجبال ان قسما منها تنتقل من قواعدها إلى اخرى خلال ربح بعيد من الزمن كما كشف عنها علم معرفة الأرض.

وقد يقرب عناية الحركة الأرضية من الآية ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فمرور الجبال مرّ السحاب من الصنع المتقن للأرض في حركاتها المعتدلة المتعدّلة.

أم تعني الرؤية يوم قيامة الإمامة : ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ إذ حقّت الآية بآيات القيامة؟ وترى كيف يراها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . فيمن يرى . جامدة ، وكل ناظر يرى حراكها؟

قد يحسبها حينذاك جامدة لأن حراكها لا تزعجه فإنه ممن شاء الله فلا ينصعق بالصعقة ولا ينفزع بالفرجة ، مشغولا بنفسه في ضيافة ربه ، ام ان «ترى» هنا تختص بغيره حيث ﴿تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢٢ : ٢) فلا يشعرون حركات الجبال المسيرة يوم القيامة لأنهم في شغل عنها إلى ما هو أفزع منها كزلزال الأرض.

أترى كيف تناسبها القيامة وهي يوم التدمير ، وتلك ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؟ إن التدمير كما التعمير من الله إتقان من صنع الله ، لا سيما وان بعده تعمير الدار الآخرة ، فليس التدمير منه خلاف صنعه المتقن.

وقد تجمع الرؤية الناشأتين ، في الأولى وفي الأخرى أيا كان الرائي ، ولكل كما يناسبه ، فالأرض هي راجفة على طول الخط ، قبل ذلها وبعده ، في قيامة الإمامة والإحياء و ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ (٦٧ : ١٥) تدل على حركتها المضطربة قبل ذلها ، ثم المعتدلة بذلها : «وعدل حركاتها

بالراسيات من جلاميدها .. فسكنت على حركتها من ان تميد باهلها أو ان تسيخ بحملها
..».

ثم و ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ تثبت لها . على ضوء آية الذلول . أربع رجفات أولاها رجفة شماشها قبل ذلها ، والثانية رجفة ذلها بعد شماسها وهي بهما سميت «الراجفة» ، ثم و ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ هي الرجفة الثالثة : الإمامة ، و «الرادفة» هي الرابعة : رجفة الإحياء ، فقد تمت لها اربع رجفات اثنتان في الأولى والأخريان في الأخرى ، وآية الرؤية قد تعني مرّ الأرض مر السحاب في النشاطين ، وكل ذلك ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وقد تعني «جامدة» . فيما عنت . الوقوف عن كل حركة داخلية وخارجية ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ مرا داخليا وآخر خارجيا ، فالحركة الداخلية تعني الجوهرية الشاملة كل شيء ، حيث الوقوف عن مطلق الحراك في اي كائن هو وقوف له عن كونه ، لا فحسب عن كيانه الحركي.

ام وتعني تتابع الإيجاد لكل كائن ، وهو تجدد الأمثال بنحو الاتصال ، حيث يراه الرائي استمرارا للكون الأول ، كالشعلة الجواله التي تحيل انها دائرة نارية وليست هيه . فالأشياء . وقد مثل بالجبال لظهورها لكل راء . كلها متجددة الأمثال في كونها وكيانها ، ام . وباحرى . هي متجددة الحراك في أخذ الكون والكيان من الرب المنان ، ف ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. فَبَآئٍ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

وذلك كل آن كأصغر أبعاد الزمان ، هو تبارك وتعالى في شأن من إبقاء ما أحدث ، وإحداث ما لم يحدث ، حركة دائبة في الخلق والتدبير دونما غفلة ولا فتور!

فقد تعني الآية كل هذه المعاني ما صلحت لفظيا ومعنويا تحليقا على النشاطين!

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ٨٩.

«الحسنة» هنا هي الحياة الحسنة ^(١) وكما تستدعيها قضية الايمان : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وخير الحسنات في الحياة ولاية الله وعلى ضوئها ولاية أولياء الله ^(٢) ، ولأن ولاية علي (عليه السلام) هي خاتمة الولايات فقد تفسر الحسنة انها ولاية علي ^(٣) كمصدق مختلف فيه يصدق حق الولاية لله والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) و ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ هو الصورة الوضاعة من الولاية . كيفما كانت . في الأخرى ، فانها تبرز بحقها وحقيقتها ما لم تكن تبرز يوم الدنيا .

فمن جاء ربه بالحياة الحسنة وهي الإيمانية الصالحة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ حياة حسنة حيث ان ﴿لِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ . ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ﴾ يعم اهل الحشر ويطم ﴿يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ . ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ﴾

(١) نور الثقلين ٤ : ١٠٣ معاني الأخبار عن أبي أيوب الخزاز قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اللهم زدني فانزل الله عز وجل ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضاً حَسَناً...﴾ فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٠٣ في كتاب سعد السعود لابن طائوس وقد نقل عن الفرار في قوله «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» لا إله إلا الله . والسيئة الشرك أقول ، تعني الحياة التوحيدية والشركة وهما الحياة الحسنة والسيئة .

(٣) نور الثقلين ٤ : ١٠٢ في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) فالحسنة والله ولاية علي (عليه السلام) .

الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢١ : ١٠٣﴾.

و «فزع» المنفي هنا عن ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يخص نفخة الإحياء وفي الحياة الأخرى ، وأما النفخة الأولى فهي مصعقة ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وهم الخصوص من عباد الله ، من السابقين والمقربين ، فلا يعم كل من جاء بالحسنة ، فلهم فزع الصعقة موتا وسواها لأقل تقدير ، ثم إن زلزلة الساعة تفزع الكل دون إبقاء ، وتصعق ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

و «فزع» منكر قد تعني الفزع الأكبر ، لا أي فزع كان ، حيث الحياة الإيمانية ليس لزامها العصمة ، فهناك معاص كبيرة قد يجزون بها حين لا تشملها شفاعة ، فلا يأمنون كل الأفزع إلا ﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو دخول النار أم خلودها.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٩٠.

«ومن جاء» بالحياة «السيئة» وهم الكافرون واضراهم ﴿فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ويقال لهم هناك كما هنا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فما الجزاء النار إلا نفس العمل حيث يظهر بملكوته ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

فالحياة الحسنة الإيمانية مصيرها إلى الجنة مهما كانت درجات ، والحياة السيئة اللإيمانية مصيرها إلى النار مهما كانت دركات : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .. وَفِي عَذَابِ النَّارِ﴾.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٩١.

لقد كانت العرب تدين بجرمة ﴿هَذِهِ الْبَلَدَةَ﴾ وهي مكة المكرمة ^(١) ، وكانت تستمد سيادتها على من سواها منها ، وتعلق آمالها وأصنامها على كعبتها تقربا إلى الله زلفى ، ف ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ تعريضة عريضة على هؤلاء الذين يعظمون البلدة والبيت ويحترمون ، ثم لا يعظمون صاحب البيت بل ويحترمون ، إذ يعبدون أصناما يظنون عليها عاكفين ، وما أظلمهم عبادة وأضلهم!

و «حرمها» لحرمتها سلبيا وإيجابيا فوق كل بلدة حيث يحج بيتها ويصلى إلى قبلتها ، وهو الملجأ للخائفين ، وقد حرمت فيها . لا سيما حالة الإحرام . من الشهوات المباحة في غيرها.

ثم وليس فقط : رب هذه البلدة ، بل ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ سواها ، وانما لها نصيب زائد على غيرها من كائنات العالم فانها أم القرى تكوينيا حيث دحيت الأرض من تحتها ، وتشريعيا إذ بعثت فيها أم الرسالات بخاتم المرسلين وسيد الخلق أجمعين (صلى الله عليه وآله وسلم).

إنه تعالى ﴿رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ لا سواه فلم تعبدون سواه ، ﴿وَلَهُ كُلُّ

(١) نور الثقلين ٤ : ١٠٥ في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) كما قال : ان قريشا لما هدموا الكعبة وجدوا في قواعده حجرا فيه كتاب لم يحسنوا قراءته حتى دعوا رجلا فقرأه فإذا فيه : أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السماوات والأرض ووضعتها بين هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك.

وفيه عن زرارة قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول : حرم الله حرمه ان يختلى خلاله ويعضه شجره إلا الأذخر أو يصاد طيره.

وفيه عن معاوية بن عمار قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم فتح مكة : إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض وهي حرام إلى ان تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي الا ساعة من نهار.

﴿شَيْءٍ﴾ لا فحسب هذه البلدة كالأصنام التي تختص كل جانبها من الكون بزعمكم ، فلم تعبدون سواه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ له لا سواه ، امرا بوحى كما أمرت فطريا وعقليا ، فما أمر توحيد العبادة والتسليم لله . فقط . امرا تعبديا ، بل والآيات الآفاقية والأنفسية متجاوبة في إيجاب هذه الفريضة الربانية ، والإسلام هنا هو فوق الإيمان خالصا لرب العالمين ، وهو أول من أسلم كما هو أول العابدين.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ٩٢.

التلاوة بجامع معناها هي الإتمام ، وقد اختصرت وانحصرت رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه التلاوة المباركة طول حياته الرسالية في بعدين : ان يأتى بالقرآن وقد فعل لحد أصبح نفسه القرآن وأفضل منه وكما سمي به في يس **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾** فقد أصبح تجسيدا لواقع القرآن وتفسيرا وتأويلا ككل دونما إبقاء ، وتطبيقا له في نفسه ورساليا ، فهو . إذا . أفضل من القرآن.

وبعد ثان أن يتلوه عليهم كما يتلوا نفسه عليهم ليتأتم به الناس في كل أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم ، فما لم تكمل تلاوته في نفسه لم ي أهل أن يكون تاليا له عليهم ، فهو . إذا . **﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**.

وان سنته السننية قولية وعملية وتقريرية هي تلاوة للقرآن ، فانه الإمام في كل حلقات رسالته **﴿فَمَنْ اهْتَدَى﴾** بتلك التلاوة المباركة **﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾** لا لربه ولا لمن سواه **﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾** فلست

احمل أحدا على الهدى إذ ما علي إلا البلاغ إنذارا وتبشيرا.

وحين تنحصر الرسالة الإسلامية . بعد توحيد العبادة والإسلام لله . ب ﴿أَنْ أَتْلُوا

الْقُرْآنَ﴾ فما دور السنة أمام القرآن ، إلا دورا هامشيا لتلاوة القرآن إيضاحا له وتبيينا.

وملا تلاوة سنته الموحاة اليه عليهم إلا تلاوة القرآن القائل ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ

هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ و ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ أما شأهما من آيات.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٩٣ .

«وقل» : أظهر قالا وحالا واعمالا ان «الحمد» كله «لله» لا سواه ، حيث النعم

كلها من الله لا سواه ، وكما أراكم آياته من ذي قبل ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ من بعد ، كآية

الدابة التي تكلمهم يوم الرجعة ، وسواها من آيات يوم الدنيا وما بعدها ، «فتعرفونها» شئتم

أم أبيتم ، ولم يك ينفعكم إيمانكم عند آيات العذاب لا في الأولى ولا الأخرى : ﴿سَنُرِيهِمْ

آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ؟﴾ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ . ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا

يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ..﴾ .

سورة القصص مكية

وآياتها ثمان وثمانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ

أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْبَيْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَٰبِطُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

هذه من الطواسين الثلاث في حروفها الثلاثة المقطعة ، وتمائل القصص مع الشعراء في ﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يجعل السورتين متشابهتي الأهداف ، ومنها قصص موسى المسرودة هنا بصورة مفصلة أكثر مما في الشعراء ، وعلّها لذلك تتسمى بالقصص حيث الجوّ الغالب عليها القصص وكأنها سورة موسى إذ تأتي بصورة ووضاءة لموسى منذ الولادة حتى الرسالة وإلى نهاية أمره ، وهي تقدمات وطمأنينات للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كأصل تتمحوره السورة في قصصها ، انتقالا حثيثا من الرسالة الموسوية بآياتها إلى الرسالة المحمدية بآياتها الخالدة القرآنية.

تنزل القصص في مكة والمسلمون قلة مستضعفة والمشركون ثلة قوية مستكبرة ، ولكي يطمئن المؤمنون القلة يأتي بسرد شامل لقصص موسى وفرعون وقارون ، ليعرفوا أن ليست القوة مع الجاه والمال والمنال ، بل إنما القوة لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وآية الوعد لرده (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى معاد آية أنها نزلت في أخرج المواقف لرسول الهدى ، فلم تنته السورة إلا وقد أخرجوه فأخرجوه عن أم القرى ، فكما الله رد موسى إلى أمه : ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ كذلك نردك إلى أم القرى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥) واين رد من رد؟.

﴿طسم ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٣.

الأوليان من هذه الثلاث مفسرتان في الشعراء ، و «نتلوا» في الثالثة من التلاوة القراءة لتتلوا متابعة ككل ومنها القراءة على الكل ، والنبأ خبر ذو

فائدة عظيمة ، و «من» تبعّضه عناية إلى أهم الحلقات من ذلك النبا كما هو اللائق بالذكر الحكيم ، وهنا المتلو عليه هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لكي يتلوه على كل المرسل إليهم ، ولكنه بالمآل ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فمن آمن من قبل يزداد به إيماناً واطمئناناً ، ومن يتحرّى عن إيمان ولما يؤمن . إذ فيه مادة الإيمان وقابليته . فهو يكسب إيماناً ، و «يؤمنون» يشملهما .

أجل وإن هذه التلاوة لذلك النبا تلقي ظلال العناية والاهتمام التام ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ، دون الذين ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه تكرمة ربانية ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أن الله يتلوا الأنباء الرسالية على رسوله لأجلهم لأنهم هم المستفيدون ، وكما القرآن ككل ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ مهما كان القصد منه هدايتهم أجمعين كحجة على كافة المكلفين ، كذلك أنباء الرسولية والرسالية هي ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ والآخرين هم الخاسرون ، و «بالحق» هنا قد تتعلق ب ﴿تَتْلُوا .. نَبَا .. يُؤْمِنُونَ﴾ تتلوا بالحق . نبأ موسى وفرعون بالحق . لقوم يؤمنون بالحق ، والباء هنا تعم السببية والمصاحبة ، تلاوة النبا لقوم يؤمنون في مثلث الحق . نبأ موسى يبدأ في الأغلب من حلقة الرسالة ، وهنا يبدأ من الولادة إلى الرسالة وإلى النهاية ، فانه عرض كامل كافل شامل كل الحلقات الحيوية لموسى ، والعمليات المضادة من فرعون ، لتصبح درساً حافلاً ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

وليعلموا أن الشرّحين يتمخض ويتمخض يحمل هلاكه ودماره في نفس ذاته ، إذ تتدخل القدرة الرحيمة الربانية لتأخذ بأيدي المستضعفين فتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين ، وهنا حلقات خمس من عرض النبا بين قصيرة وطويلة كلها قاصدة راشدة ، حلقة المولد وما أحاط به من قاسية راسية فرعونية ،

وعناية ربانية ، ثم حلقة الفتوة وملابساتها في الجو الفرعوني ، ثم حلقة النداء الرسالية ، ومن ثم مواجهة فرعون الطاغية ، ثم العقابة للمتقين غرقا لفرعون بجنوده واستخلافا لموسى بحشوده ، ولكل حلقة مشاهدتها العدة : خمسة ثم تسعة ثم اربعة ، بينها فجوات وحلقات ومشاهد ، ما يثير العجب من دقة الأداء الفني للقصة.

والأوليان هما الجديدتان في هذا العرض العريض ، إذ تكشفان عن مدى تحدي القدرة الفرعونية ، إخفاقا لصوت الحق وإخمادا لثأرتة في زنده ، ثم مدى القدرة الإلهية حيث تربى قاصم ظهر فرعون في حجره :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٤.

إن الإفساد الفرعوني هنا مبني على قواعد خمس مهما اختلفت دركاتهما : العلو في الأرض . جعل أهلها شيعة . استضعاف طائفة منهم . تذيبح الأبناء . استحياء النساء ، مهما كانت الأربعة الأخيرة من خلفيات الأولى.

إن العلو في الأرض وجعل أهلها شيعة ، واستضعاف الشعوب ، هي من شيمة الطغاة الشنيعة على مدار الزمن ، فلما ذا بعد تذيبح الأبناء واستحياء النساء : إبقاءهن أحياء للخدمة ، وإزالة حيائهن؟

لا بد وأن تكون هناك خوفة هارعة من الأبناء الاسرائيليين في ذلك التصميم العميم لإبادتهم ، استبقاء للسلطة الفرعونية وكما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الكرام عليهم السلام : «.. فان فرعون لما وقف على ان زوال ملكه على يده (موسى) امر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه وانه يكون من بني إسرائيل ولم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفا وعشرين ألف مولود

وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ الله تبارك وتعالى إياه ..»^(١).
 إن العلو في الأرض باستعلاء غاشم ظالم ، واستبداء خانق جاشم ،

(١) بحار الأنوار ٥١ : ٢١٩ . حديث حافل لمولد الامام المهدي (عج) وطول غيبته وان فيه سنن الأنبياء وحذو النعل بالنعل والقذة بالقذة عن الكافي بسند متصل عن سدير الصيرفي قال دخلت انا والمفضل بن عمر وابو بصير وابان بن تغلب على مولانا أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام فرأيناه جالسا على التراب وعليه مسيح خيري مطوق بلا جيب مقصر الكمين وهو يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحزينة قد نال الحزن من وجنتيه وشاع التغير عارضيه وابلى الدموع محجريه وهو يقول :

سيدي! غيبتك نفت رقادي وضيقك عليّ مهادي وأسرت مني راحة فؤادي ، سيدي! غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد يفني الجمع والعدد ، فما أحسن بدمعة ترقى من عيني ، وأنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوالف البلايا إلا مثّل لعيني عن عوارير أعظمها وأفظعها وترقي أشدها وأنكرها ونوائب مخلوطة بغضبك ، ونوازل معجونة بسخطك؟.

قال سدير : فاستطارت عقولنا ولها وتصدعت قلوبنا جزعا من ذلك الخطب الهائل والحدث الغائل وطننا انه سمة مكروهة قارعة أوصلت به من الدهر بائقة فقلنا لا أبكي الله يا ابن خير الورى عينيك من اي حادثة تستنزف دمعتك وتستمطر عبرتك واية حالة حتمت عليك هذا المأثم؟

قال : فزفر الصادق (عليه السلام) زفرة انتفخ منها جوفه واشتد منها خوفه وقال : ويلكم إني نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الذي خص الله تقدس اسمه محمدا والأئمة من بعده عليه وعليهم السلام وتأملت فيه مولد قائمنا وغيبته وإبطاءه وطول عمره وبلوى المؤمنين به من بعده في ذلك الزمان وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته وارتداد أكثرهم عن دينهم وخلعهم ربة الإسلام من أعناقهم التي قال الله تقدس ذكره ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ يعني الولاية ، فأخذتني الرقة واستولت عليّ الأحزان فقلنا : يا ابن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كرمنا وشرفنا بإشراكك إيانا في .

يَخْلَفُ نفس العلو فيها لأنه فساد فيفساد فيها ، ويالات وويلات في دويلات مستعلية وسلطات متخلفة عن الحق ، وليس فاسد العلو في الأرض يختص بالفرعوني وأضرابه ، بل والدّينون ايضا لا يحق لهم أيّ علو ، فذلك علو أمام الله ، وهذا علو أمام خلق الله وكلاهما مرفوضان في شرعة الله : «تلك الدار

. بعض ما أنت تعلمه من علم . قال : إن الله تبارك وتعالى أدار في القائم منا ثلاثة أدارها في ثلاثة من الرسل ، قدر مولده تقدير مولد موسى (عليه السلام) وقدر غيبته تقدير غيبة عيسى (عليه السلام) وقدر إبطاء تقدير إبطاء نوح (عليه السلام) وجعل من ذلك عمر العبد الصالح اعني الخضر (عليه السلام) دليلا على عمره . فقلت : اكشف لنا يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن وجوه هذه المعاني . قال : اما مولد موسى (عليه السلام) فإن الله لما وقف ... كذلك بنو امية وبنو العباس لما وقفوا على ان زوال ملكهم والأمرء والجبابة منهم على يد القائم منا ناصبونا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وابادة نسله طمعا منهم في الوصول إلى قتل القائم (عليه السلام) وبأي الله ان يكشف امره لواحد من الظلمة إلا ان يتم نوره ولو كره المشركون . واما غيبة عيسى (عليه السلام) ...

وفي نور الثقلين ٤ : ١١٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان يوسف بن يعقوب عليهما السلام حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب وهم ثمانون رجلا فقال : ان هؤلاء سيظهرون عليكم ويسومونكم سوء العذاب وانما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران غلام طوال جعد آدم فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران ويسمى عمران ابنه موسى ، فذكر ابان بن عثمان أبي الحصين عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) انه قال : ما خرج موسى حتى قبله خمسون كذابا من بني إسرائيل كلهم يدعي انه موسى بن عمران فبلغ فرعون انهم يرجفون به ويطلبون هذا الغلام فقال له كهنته وسحرته ان هلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام يولد من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء وقال : لا يولد العام ولد إلا ذبح ووضع على ام موسى قابلة ..».

الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٨ : ٨٣﴾
 فإذا كانت ارادة العلو في الأرض تمنع الدار الآخرة ، فبأحرى نفس العلو فيها لأنه فساد
 فإفساد فيها ، فبمجرد ان الطاغية أحس . ولما يلمس . أن هناك خطرا يحرق بملكه من
 إسرائيل ، وهم مئات الألوف لا يمكن نفيهم عن البلاد ، ولا القضاء عليهم أجمع ، ابتكر
 حينذاك طريقة همجية جهنمية للقضاء على الخطر المحسوس من هذه الطائفة المنسجمة ، غير
 المعتقدة في ربوبيته الأعلى من نواحي أربع : أن ﴿١ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا﴾ ﴿٢ يَسْتَضَعِفُ
 طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ ﴿٣ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ﴿٤ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ : ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾
 ومن خلفيات العلو النحسة جعل الأهلين في أرض شيعا متفرقين ليزوق بعضهم بأس بعض
 ، فهم ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ (٣٠ : ٣٢) وبئس اللباس لباس الشيع
 للمجتمع : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (٦ : ٦٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ
 قَبْلِكَ فِي شِيعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٥ : ١٠) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (٥٤ :
 ٥١) ، فالشيع والأشيع في الدين والدينين ما يزيغه الدين الحق ، اللهم إلا شيعة الحق بلا
 أشيع متخلفين عنه أو مختلفين فيه ، وهذه شيطنة مدروسة من الطاغية في علوه ان ﴿جَعَلَ
 أَهْلَهَا شِيعًا﴾ متفرقين وهو من باب فرق تسد ، وبالإمكان حينئذ أن يستضعف كل الشيع ،
 مهما كان استضعافهم دركات ، وقد كان من أسفلها استضعاف بني إسرائيل ، وكما
 «استخف ﴿قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾» .

فلقد فرق . فيمن فرق بينهم من القاطنين في مصر . شعب إسرائيل ، حيث استقدم
 يوسف من قبل أبويه وإخوته وأهله أجمعين من كنعان إلى مصر فتكاثروا وأصبحوا شعبا كبيرا
 ، فأخذت النعرة القومية والطائفية الفرعونية

يجعلهم شيعا كما جعل الآخرين كذلك شيعا ، وكان أشد الاستضعاف على هؤلاء الذين كان يخافهم على عرشه ، ففرقت كلمة بني إسرائيل أيادي سبا واستفاد الطاغية بشيعهم أن أخذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

تذبيح الأبناء كان يعم شق بطون الحوامل من بني إسرائيل أم ذبح الولائد بعد الولادة حيث ما ثقفوا ، واستحياء النساء من الحياة إبقاء لهن بشأن الخدمات الإجبارية منزلية وسواها ، ومن الحياء إزالة لحيائهن في الدعارات ، فقد كانت هذه لهن استحياء أشر من تذيبهن ، ثم الرجال الذين فقدوا أبناءهم ونساءهم أمرهم أمرٌ وأنكى ، وذلك ثلوث العذاب بحق الشعب الإسرائيلي بعد عذاب الشيع فيهم والعداء الشائع بينهم.

هذه هي خماسية المخططات الفرعونية الجهنمية تدميرا لهذا الشعب عن بكرته ولكيلا يطلع موسى من وسطهم ، كما أرادها فرعون بخيله ورجله تجنيدا لكل حيله ، ولكن الله يريد غير ما يريده الطاغية ولا يكون إلا ما أراد الله مهما قويت الداهية الدهياء ، من الطاغية اللعناء :

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ٦.

هؤلاء المستضعفون المضغوطون تحت أنيار الظلم وأنياب العضّ الفرعوني ، المرذلون المعذبون بألوان العذاب ^(١) يريد الله أن يمن عليهم

(١) الدر المنثور اخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الآية : قال : يوسف وولده.

ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم في الأرض ويرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون من السلطة الموسوية ، أياد جليّة من فرعون وملاه ، ويد خفية من رب العالمين تتصارعان ، وبطبيعة الحال لا تصرع إلا أيادي فرعون بجنوده حيث ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٥١ : ٤٠).

وهذه الإرادة المستمرة «ونريد» ليست لتختص مستضعفي بني إسرائيل ، بل هي متواصلة . قضية العدل والرحمة الربانية . على مدار الزمن غابرا وحاضرا وإلى يوم النشور ، مهما اختلفت درجاتها حسب مختلف الفاعليات والقابليات والظروف المقتضية لتحقيق إرادة الله ، فكما أن «نريد» هنا حكاية لحال ماضية ، كذلك هي إخبار للحال والأحوال المستقبلية بعد الماضية.

وأفضل المستضعفين هم أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم آلاف سلام وتحية ، وكما يروى عن الامام علي (عليه السلام): «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها»^(١) ، ف «هم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويذل عدوهم»^(٢).

(١) نهج البلاغة .. وتلا عقيب ذلك «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» ورواه مثله السيد الرضي في الخصائص عن الصادق (عليه السلام) عنه (عليه السلام) ..
 (٢) نور الثقلين ٤ : ١١٠ كتاب الغيبة للشيخ الطوسي بإسناده الى محمد بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) في الآية قال : ... وفيه عن اصول الكافي عن أبي الصباح الكناني قال : نظر ابو جعفر إلى أبي عبد الله عليهما السلام يمشي فقال : ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله عز وجل : ونريد ..

اجل والقائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين هو آخر هؤلاء المستضعفين^(١) وله المن الأوفر من الإمامة وخلافة الأرض اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه ..

(١) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى حكيمة قالت : لما كان اليوم السابع من مولد القائم (عليه السلام) جئت إلى أبي محمد (عليه السلام) فسلمت عليه وجلست فقال : هلمي إليّ ابني فجئت بسيدي وهو في الخرقه ففعل به كفعله الأول ثم ادلى لسانه في فيه كأنما يغذيه لبناً وعسلاً ثم قال : تكلم يا بني قال : اشهد ان لا إله إلا الله وثني بالصلوة على محمد وعلي وعلى الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين حيث وقف على أبيه (عليه السلام) ثم تلا هذه : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . و ﴿نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ...﴾. وفي تفسير البرهان ٣ : ٢١٩ روى العياشي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال والذي بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق بشيراً ونذيراً إن الأبرار من أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته وان عدونا وأشياعه بمنزلة فرعون وأشياعه. وفيه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري في مسند فاطمة عليها السلام بسند متصل عن زاذان عن سلمان قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . وفيه تفصيل اسماء الأئمة الاثني عشر الى ان قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق الله ثم يا سلمان انك مدركه ومن كان مثلك ومن توالاه بحقيقة المعرفة ، قال سلمان فشكرت الله كثيراً ثم قلت يا رسول الله واني مؤجل الى عهده؟ قال يا سلمان اقرء : فإذا جاء وعد أولاهما ... قال سلمان فاشتد بكائي وشوقي ثم قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعهد منك؟ فقال : اي والله الذي أرسل محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق مني ومن علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة عليهم السلام وكل من هو منا ومضام فينا اي والله يا سلمان وليحضرن إبليس وجنوده وكل من محض الايمان محضاً ومحض الكفر محضاً حتى يؤخذ بالقصاص والأوتار والأثوار ﴿وَلَا يَطْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وتحقق تأويل هذه الآية ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ... يَخَذِرُونَ﴾.

وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) مخاطبا إياهم عليهم السلام :
 أنتم المستضعفون بعدي...»^(١). وذلك الاستضعاف الذي يقتضي الرحمة الخاصة الإلهية
 بمنح الإمامة ووراثته الأرض ليس استضعافا روحيا عقائديا ، وإنما هو الضغط عليهم في تحقيق
 الشريعة الإلهية كيلا تتحقق كما تحق ، فلا تقصير منهم في هذا المجال ، فحياتهم الإيمانية هي
 حياة التقية حتى يأتي الفرغ من الله بما قدموا من ظروفه المواتية له.

وهكذا يعلن ربنا في هذه الإذاعة القرآنية أن حياة الفرعة الطاغية لا تدوم ، إعلانا
 صارخا بواقع الحال وما هو مقدر في المآل عاجلا أم آجلا ، أن تقف القوات وجهها لوجه ،
 فقوة الله هي التي تنهوى دونها كل القوى فانه شديد القوى.

وترى ﴿الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ هنا هم كل المستضعفين في التاريخ الرسالي؟
 ومنهم مقصرون ظالمون موعودون بالنار : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا
 فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ
 مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٤ : ٩٧).

ومنهم قاصرون ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا

(١) المصدر في كتاب معاني الأخبار باسناده الى محمد بن سنان عن مفضل بن عمر قال : سمعت أبا عبد الله
 (عليه السلام) يقول : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام
 فبكى وقال : أنتم المستضعفون بعدي . قال المفضل : فقلت له : ما معنى ذلك يا ابن رسول الله (صلى الله عليه
 وآله وسلم) قال : معناه انكم الأئمة بعدي ان الله عز وجل يقول : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ...﴾ فهذه الآية جارية فينا
 إلى يوم القيامة.

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

(٩٩ : ٤) فمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا كيف يصبح من أئمة المؤمنين؟

انهم هم المظلومون تحت أنيار الظلامات والظلمات ، حيث يتبلور إيمانهم وتقوى هداهم وتقواهم ، مهما اختلفت درجاتهم ومن أدناهم القاصرون ، فالأئمة منهم هم القادة الهداة الى الله.

وكما الإمامة والوراثة للمستضعفين درجات حسب القابليات والمعطيات ، كذلك أرض التمكين لهم درجات ، من أرض مصر أو ما والاها للأئمة الإسرائيليين ، أما هيه من أرض بعدها ، ومن كل الأرض كما في دولة الامام المهدي عجل الله تعالى فرجه.

وقد دلت آية النور على ذلك التمكين المكين ، الرصين الأمين ﴿... وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...﴾.

وهم الورثة والذين يعيشون تحت إمرتهم أولاء ، وقد جمعت بينهما آية الأنبياء ^(١) والنور ^(٢) : أن ارادة المن المستمرة لهؤلاء المستضعفين تتمحور قواعد اربع هي ﴿وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ وهم الرعيل الأعلى منهم ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وهي تجمع المأمومين الى هؤلاء الأئمة ، كما ﴿وَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ حيث يرى كل فراعنة التاريخ وجنودهم من هؤلاء الأكارم «ما كانوا» هؤلاء الأنكاد «يحذرون» منهم ، وترى كيف يولد موسى وعيون المراقبات الفرعونية ترقب الحوامل ،

(١) «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...»

(٢) «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

فتشق بطونها قبل الولادة ، إلا أن تفلت عنهم فالتة؟

علّها من الفالتات القلة ، أم «انه لما حملت به امه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له»
(١) وكما كان الحمل بصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه (٢) سترًا ستيرا عن عيون المراقبات
في الدولة العباسية ليقضي الله امرًا كان مفعولا.

(١) نور الثقلين ٤ : ١١١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ... وكان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظوهن وذلك انه كان لما بلغه عن بني إسرائيل انهم يقولون انه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المجالس فلما وضعت ام موسى بموسى (عليه السلام) نظرت اليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت : يذبح الساعة؟ فعطف الله عز وجل قلب الموكلة بها عليه فقالت لأُم موسى : مالك قد اصفر لونك؟ فقالت : أخاف ان يذبح ولدي ، فقالت : لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبّه وهو قول الله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فأحبتة القبطية الموكلة بها وانزل الله على أم موسى التابوت ونوديت امه ضعيه في التابوت فاقدفيه في اليم وهو البحر ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فوضعتة في التابوت وأطبقتة عليه وألقته في النيل.

(٢) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة وبأسناده الى حكيمة بنت محمد بن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عمه أبي محمد الحسن (عليه السلام) انها قالت : كنت عند أبي محمد (عليه السلام) فقال : بيتي الليلة عندنا فانه سيلد الليلة المولود الكريم على الله عز وجل الذي يحبي به الله عز وجل الأرض بعد موتها ، فقلت : ممن يا سيدي؟ ولست أدري بنرجس شيئا من اثر الحمل؟ فقال : من نرجس لا من غيرها قالت : فوثبت إليها فقبلتها ظهر بطن فلم أر بها اثر الحبل فعدت اليه فأخبرته بما فعلت فتبسّم ثم قال لي : إذا كان وقت الفجر يظهر لك الحبل لأن مثلها مثل أم موسى لم يظهر بها الحبل ولم يعلم أحد إلى إلا وقت ولادتها لأن فرعون كان يشق بطون الحبالى في طلب موسى وهذا نظير موسى ...».

موسى الرسول (عليه السلام) يولد في تلك الضغطة الفرعونية الوحشية ، وأمه حائرة ، تخشى أن يصل نبأ هذه الولادة المباركة إلى الجلادين فيذبحوه ، وهي عاجزة عن حمايته وإخفائه فإذا الوحي الحنون يتلقف قلبها الرنون :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٧.

﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ هنا تعني وحي الإلهام دون وحي النبوءة والرسالة ، وادنى منه الوحي إلى النحل وللأرض ، وأعلى منه ومن كل وحي إلّا الأخير وحي الإلهام إلى قلوب الأئمة المعصومين المحمديين صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ليس عليك فيه أمر إلّا الرضاعة : ﴿إِذَا أُوحِينَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ. أَنْ أَفْذِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي. إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ..﴾ (٢٠ : ٤٠).

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم يهجس هاجس أو يحدث حادث ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ..﴾ وهو النيل فإنه في عظمه كأنه البحر ، واليم يشمل البحر والنهر الكبير كالنيل ، أتراها ما كانت خائفة عليه ، وهي خائفة منذ حبلت حتى وضعت؟

الخوف له مراحل ، فقد يتحمل إذ لا يعدو الخيال ولما تقع واقعة ، وذلك خوفها من قبل ، أم لا يتحمل حين تشرف الواقعة لتقع فلا بد من محاولة قاطعة للفرار عنها ، وقد تعنيه ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ خوفا شديدا لا قبل لها به بعد المتعود في ذلك الجو المخيف.

أم حنونة ترضع ولدها خائفة عليه ، فكيف تسمح لنفسها أن تلقى في

اليوم فرارا عن حفرة إلى بئر؟ لكن ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ من غرقه أو قتله ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ من فراقه ل
﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ لترضعيه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لما بلغ أشده.

وهذه طمأننة ربانية وربطة إلهية على قلبها أن تلقي وليدها الرضيع بيدها إلى اليم! ،
أجل «لا تخافي» من غرقه فان عين الله ترعاه ، ويده تراعيه حين تخفيه عن بأس فرعون ،
تلك القدرة التي تجعل النار لجده ابراهيم بردا وسلاما ، وتجعل له البحر ملجأ ومناما! ﴿وَلَا
تَحْزَنِي﴾ حيث الفراق لا يدوم ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا

خَاطِئِينَ﴾ ٨.

هنا بين الوحي إليها والالتقاط فجوة مذكورة في طه : ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أمرا
تكوينيا لليم بالقاء ما تلقاه بالساحل ، ثم ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ أمر ثان لعدوه فرعون
تكوينيا ، وبالنتيجة ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾. إذ ﴿أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى
عَيْنِي﴾! ، وهنا أصبح موسى لقطة يلتقطها آل فرعون ، قصدا إلى ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾
ولكن الواقع المجهول لديهم ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فاللام هنا تعني واقع الغاية ، و
﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ تعني ظاهرها وهم خاطئون واقع الأمر ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ : خطأ عارما في كل حياتهم الجهنمية الطاغية حيث ذبح آلافا للحصول
على موسى (عليه السلام) ، وهنا خطأ عما يرام للعرش الفرعوني حيث استقدموا بذات
أيديهم بوارهم ودمارهم ، وهذا خطأ منهم لصالح الرسالة الموسوية ، وكل حياتهم خطأ
لطالحها وصالح موسى ، وقد جمعهما ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

فهل كانت أمه تخاف إلا ذلك الالتقاط؟ كلاً! إلا أن القدرة الربانية تتحدى بأسلوب سافر ، ففي حين يجتد فرعون وهامان وجنودهما كل إمكانياتهم وعيونهم وإرصادهم على بني إسرائيل كيلا يتفلت منه موعودهم ، فهذا هي يد القدرة تلقيه في أيديهم مجردا من كل قوة بحنان لهم ومحبة ﴿فُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾! . لماذا؟ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ويكون لأمه قرة عين ولشعب إسرائيل نجاة عن فرعون وملاؤه! : ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٩ .

«لا تقتلوه» خطاب الجمع للحشد القاتل من آمر ومأمور وسبب ومباشر ، وهذه شفاعاة من ملكة البلاط ، وطبعاً تؤثر أثرها إثرها ، لا سيما وانها مشفوعة بـ ﴿فُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ ترغيباً في الإبقاء عليه بعد التعريب عن قتله ، خطوتان مباركتان منها في سبيل الحفاظ عليه كما أراد الله! ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الخطر الحادق بهم من هذا الوليد اللقيط ، رغم ان التقاطه هكذا من اليم كان يشعروهم أنه من بني إسرائيل ، وإلا فلما ذا يلقي بتابوته في اليم؟ طبعاً هو إلقاء قاصد ترجيحاً لغرقه بطبيعة الحال على ان يقع في فخ فرعون وملاؤه.

هنا ﴿الْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ تجعله محبوباً لآل فرعون ، لا سيما امرأته المؤمنة إذ تقول له قالتها : ﴿فُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ إذ ليس لنا ولد نأنس به ف ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تدليلاً على تصميمهم لقتله ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في ملكنا ، أم وأقرب من ذلك «أن نتخذه ولداً» . «وهم» كلهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ من هو هذا اللقيط؟ وهنا النص ساكت عما رده فرعون على قالة امرأته ، إلا أنه ما قتله ،

وأما أنه قرّة عين له فلا خبر عنه ، ف «لو قال فرعون قرّة عين لي ولك لكان لهما جميعاً»^(١).

فيا للقدرة القاهرة الباهرة التي تسخر منهم بتحد سافر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، ويا لفؤاد أم موسى متفقدًا فارغًا من فراقه ، وكيف ألقته في اليم فألغته في خضم أمواجه؟! : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَٰبِطُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠.

الفؤاد هو القلب المتفقد إما بنور العرفان : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (٥٣ : ١١) أم نار النكران : ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْفِدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾ (١٠٤ : ٧) أم نار الهجران على محور الايمان ولما يتم في القلب ويطم ، وهكذا

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢١ . اخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال قالت امرأة فرعون : قرّة عين لي ولك لا تقتلوه ، قال فرعون : قرّة عين لك أمالي فلا ، قال محمد بن قيس قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو قال ...».

وفي نور الثقلين ٤ : ١١٥ عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في عرض القصة .. وكان لفرعون قصر على شط النيل منزلها فنظر من قصره ومعه آسية امرأته إلى سواد النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون فامر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبيا فقال : هذا إسرائيلي ! فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة وكذلك في قلب آسية رحمة الله عليها وأراد فرعون ان يقتله فقالت آسية ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ انه موسى .

وفي المجمع قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي يحلف به لو أفر فرعون بان يكون له قرّة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها ولكنه ابى للشقاء الذي كتبه الله عليه.

أصبح فؤاد أم موسى فارغا عما كان من اطمئنان بوحي وعن كل شيء إلا همّ موسى! وهي طبيعة الحال في قلوب الأمهات في هذه الحالات الفارغة التي تفرغ عن العقل واللب فتوصل القلب إلى حالة فارغة عما فيه من اطمئنان وإيمان ، متعلقا بفلذة كبدها ف ﴿أَصْبَحَ .. فارغاً﴾ لحد ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أنه ولدها وقد قذفته في اليم ، صارحة صارخة دون تفكير في العاقبة في تلكم الأجواء المراقبة ، فتقول هاتفة كالمجنونة : أنا التي ألقيتها فألغيتها ، فأغيثوني في ولدي الغريق في خضمّ اليم!

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَٰبِطُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ربطة لا حقة لما سبقت من طمأنة الوحي ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما وعدناها ، فيملاً قلبها من الايمان الاطمئنان فلا تبدي من أمره شيئاً حتى يأتي وعد الله.

اجل وفي مثل هذه الحالة الموحشة المضطربة لا يتمكن انسان أيا كان أن يملك نفسه وقلبه الفارع إلا ان يدركه الملك المنان.

وقد تعني «فارغا» الفراغ عن كل هم وغم ، لما رأته في البلاط الفرعوني قرة عين ، «فارغا» وفرحا لحد ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ انه ولدها ﴿لَوْ لَا أَنْ رَٰبِطُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ تضبيطا له كيلا تتفلت في مصارحة لا اختيارية ﴿رَٰبِطُنَا .. لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولكن ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تشي إلى ضعف في ايمانها بفراغ قلبها ، فلما ﴿رَٰبِطُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ خرج عن فراغها إلى ايمانها بوعد الله : ﴿إِنَّا رَٰدُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم «وأصبح» هنا بعد اللتيا والتي . لا عند الوحي إليها . لا تناسب إلا فراغ اللا اطمئنان ، وهذه طبيعة الحال في فؤاد غير المعصوم مهما اوحى اليه ما يطمئنه ، ثم ﴿رَٰبِطُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ تحكيم على قلبها المتقلب المتمزق المتفرق ، الفارغ الخاوي عما وعد الله.

وقد تؤيد ذلك الفراغ ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بعد رده إليها ، والفراغ عن كل هم وغم هو العلم بان وعد الله حق!

وقد يلح ذلك الفراغ لفؤادها ، أنها لمحت بالتقاطه ففزعت ، فلذلك :

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١١ .

فهذه القالة بفراغ الفؤاد لمحة لامعة بقضية الحال ، أنها لما قذفته في اليم تبعته ناظرة إلى الأمواج اين تحوّل ، فبصرت به يلتقطه آل فرعون ، فأصبح فؤادها فارغا فقالت لأخته قصيه ، ولو لا أنها لمحت به خارج اليم لم تكن لقالتها هذه أية مناسبة!

«قصيه» اتبعي أثره نحو القصر ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ إبصار البصيرة ، لا فقط إبصار البصر ، ف «أبصر» هي في إبصار البصر ، و «بصر به» هي البصيرة ، ام الإبصار في خفية ، ولقد بصرت به خفية وبكل وجودها «عن جنب» : مكان بعيد ومجانبة مزورة في نظرتها ألا ينظر إليها وإلى نظرتها ، فالجنب يشملها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها بصرت به ، رغم الرقابة التامة التي هي قضية الحال في مثل ذلك اللقيط! أم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ انها أخته لأنها ما بصرت به كأخت إلى أخ ، وإنما كمتفرج إلى القصر بشاطئ البحر ، وعلى أية حال كان بصرها به في خفية وسترة كيلا يَحْتِيلَ إليهم إن رأوها أن لها صلة بموسى (١).

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢١ . اخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي رواد ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لخديجة : اما علمت ان الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم اخت موسى وآسية امرأة فرعون؟ قالت : وقد فعل الله ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال : نعم ، قالت : بالرفاء والبنين ، وفيه .

هنا اطمأنت أم موسى عن فراغ فؤادها ، متأكدة أنه آمن في البلاط ، ولكنها راجية بعد رجوعه لترضعه كما وعد الله ، وكان كما رجيت :

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ١٢ .

ما كانت الخطوة الأولى إلّا للحفاظ على حياة موسى وكونه ، ثم إلى الخطوة الثانية لحيويته وكيانه ، إذ لا يصلح أن يرتضع من أية مرضعة ولا سيما القبطيات المشركات ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ حرمة تشريعية وتكوينية ، وهو الله تعالى المتكفل لإبعاده عن المراضع إلّا أمه ، وهو الملهم له ألا يرتضع من أية مرضعة إلّا أمه فكان كما أراد الله وارتضاه .

و «المراضع» جمع مرضع وقد يجمع هنا المصدر ومكان الرضعة وزمانها ، فمكانها هو الثدي فلا يقبل أي ثدي ، وزمانها زمان الحاجة إلى الرضاع ، والحرمة حلقت على كل زمان وكل مكان للرضعة ، وحتى إذا أخذ لبن من مرضعة حتى يشربه دون مرضعة فكذلك الأمر ، حيث التحريم شامل للرضعة بأصلها وزمانها ومكانها .

و «من قبل» قد تعني من قبل اقتراح أختها ، وأخذهم إياه من اليم ، ومن قبل ولادته وانعقاد نطفته ، حيث المراضع غير الصالحة لا تناسب الرسالة الصالحة ، ﴿وَلَتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ لا تناسب الرضعة الطالحة «فقالت ...» .

هنا فجوة بين القصة ، وطبعا هي انه لم يقبل اي مرضع وكان جائعا

. اخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما شعرت ان الله زوجني مريم بنت عمران وكلثوم اخت موسى وامرأة فرعون فقلت : هنيئا لك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

عطشا ، فكانوا ناظرين إلى مريض يقبله ، فجاءت أخته فيمن جئن حسب الطلب ، للإدلاء إلى من ترضعه «قالت» متسائلة لصالحهم ، متنكرة ﴿هَلْ أَذُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ كفالة الرضاعة وسواها ، لا فحسب بل ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ كما يناسب لقيط البلاط وقرة عين فرعون وزوجه. وبطبيعة الحال هم يقبلون ويقبلون إلى أهل بيت يكفلونه في بعدي الكفالة اللائقة المرغوبة المرموقة ، وطبعاً يجعل على الكفالة «.. ترضع ولدها وتأخذ أجزها»^(١) ، وتراهم كيف لم يتفطنوا بما قالت انها على معرفة بمن يناسب تلك الكفالة ، فيفتشوا عن مصدره ومورده علّه أهل بيت موسى نفسه؟

لقد أعماهم الله عن ذلك وهم في حالة محرجة مخرجة لهم عن كل هم إلا الحصول على من يكفله ، وأخيراً :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٣.

لقد ارتدت اللقطة إلى أمه الملهوفة ، بارادة الله ، ل ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بحضنته «ولا تحزن» لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بعد ما ربط الله على قلبها ووعدتها من قبل أن يرده إليها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقّ الوعد والوعد الحق من الله للأولى أو الأخرى ، و «لا يعلمون» هذا يعني

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢٣ . اخرج ابو داود في الراسيل عن جبير بن نفير قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مثل الذين يغزون من امي ويأخذون الجعل يعني يتقون على عدوهم مثل ام موسى ترضع ولدها وتأخذ أجزها.

وفي البحار ١٣ : ٢٧ قال الراوي قلت لأبي جعفر (عليه السلام) فكم مكث موسى غائبا عن امه حتى رده الله عليها؟ قال : ثلاثة ايام.

جهل التجاهل والتغافل عن تقصير دون قصور ، اللهم إلا بتقصير .

وما الذي حصل بعد حتى بلغ أشده؟ النص ساكت عن هذه الفجوة لأنها ليست من صحيح القصص المرام في الدعوة القرآنية ، فانما ينتقل من رضاعه إلى بلوغ أشده مع العلم أنه في هذه الفترة كان كما قال الله ﴿وَلْيُصَنِّعْ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أينما كان وأيان.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ

بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ
عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا
فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ
يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا
يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٤ .

الأشد جمع الشّد وأقله ثلاث شّدات هي : شّد العقل والرشد إلى شد الجسم ، وترى
﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هنا هما الرسالة وعلمها؟ وآية الشعراء تؤجلها إلى ما بعد رجوعه إلى مدين!
: ﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١) فلم يكن
قبلئذ رسولا فهو حكم غير رسالي!

علّهما من ذي قبل حكم النبوة وعلمها قبل الرسالة ، حيث الحكم والعلم للأنبياء
درجات ، ابتداء من الوحي غير الرسالي وهو النبوة ، ثم الرسالي ، ومن ثم النبوة وهي الرفعة
بين المرسلين ، ثم ولاية العزم وهي

الإمامة بين سائر المرسلين ، وفي الختام إمامة الأئمة الرسالية ككل وهي الخاصة بخاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد تدرّج موسى إلى ما قبل الأخيرة ، وكما ان بلوغ الأشد هو اكتمال هذه الثلاث وهو في العادة بين ١٨ سنة و ٣٠^(١) ، كذلك «استوى» بعد هو القيام بنفسه في حاجيات الحياة وهو إلى الأربعين بل هو من منتجات بلوغ الأشد ، وهنا ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وهذه هي ضابطة الحكم والعلم الرباني ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ كلا على قدر إحسانه ، وما قدره الله من كيانه ، من مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان إلى أول العابدين وخاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولأن الحكم الرسالي وعلمه ليسا جزء الإحسان ، وإلا أصبح كل محسن رسولا ، فلا يعني ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هنا الرسالة ، فقد تكون نبوءة الوحي أمّا دونها من إلهامات غيبية هي من مخلفات الحالات التصفوية للمحسنين.

فكون الحكم والعلم جزء إحسانه كما ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بعد رجوعه من مدين ، هذان برهانان ساطعان على أن ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هنا لا يعنيان الرسالة. وهنا نتلمح ان بلوغه أشده واستواءه كان عند بلوغه الثلاثين حيث الرسل يرسلون عند الأربعين ، وكان بين الحكمين عشر سنين.

أتراه في هذه الفترة وهي زهاء ثلاثين سنة أم تزيد ، تراه ظل يتزعزع

(١) نور الثقلين ٤ : ١١٧ عن معاني الأخبار بسند متصل عن الأحول عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ قال : أشده ثمان عشر سنة واستوى التحي. وفي أحاديث متظافرة انه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة ، اللهم إلا يحيى في وجه من الآية ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

في البلاط الفرعوني ، مستريحا في حياة تحضيرية لتلك الرسالة السامية ، وهو يرى كيف يسام قومه سوء العذاب بتذبيح الأبناء واستحياء النساء وسائر البغي اللئيم ، وابشع صورة للفساد الشايع الأثيم؟

ليست هذه سيرة المحسنين الذين يجزون حكما وعلمًا! بل كانت حياته في تلك الفترة إحسانا حسب المكنة بشعبه منذ غلمته ^(١) وكما أغاث الذي من شيعته على الذي من عدوّه ، فقد كان عطوفا بشيعته ، رقيقا عليهم ، وبطبيعة الحال منعزلا عن التأثير من جو البلاط الطاغي كما يمكن في تقيّة تحافظ على كيانه على قدر إمكانه ، وتلمح لهذه الحالة اجمالة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعقيا رقيقا على بيئته قبل ان يؤتى حكما وعلمًا هكذا ، وكما دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها لمحّة صارحة باتبعاده عن المدينة خوفا من جلاوة البلاط! :

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ١٥ .

(١) نور الثقلين ٤ : ١١٧ عن تفسير القمي : .. فلما درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال : الحمد لله رب العالمين ، فأنكر فرعون ذلك عليه ولطمه وقال : ما هذا الذي يقول؟ فوثب موسى على لحيته وكان طويل اللحية فهلها أى قلعه فألمه ألما شديدا فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته : هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون : بلى يدري ، فقالت له : ضع بين يديه تمرا وجمرا فإن ميز بين التمر والجمر فهو الذي تقول ، فوضع بين يديه تمرا وجمرا وقال له كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرئيل (عليه السلام) فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه وصاح وبكى فقالت آسية لفرعون : ألم أقل لك إنه لم يعقل؟ فعفى عنه.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ فيه احتمالان اثنان ، أن كان خارج المدينة خوفاً من فرعون وملاؤه ثم دخلها فرأى ما رأى؟ أم كان القصر الملكي خارج المدينة «فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليه ما يتكلم به موسى من التوحيد حتى هم به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة ..» (١).

كل محتمل والجمع أجمل ، فعلة كان يتردد في القصر ويقول قالة التوحيد ويفعل فعلته عندهم فهم به فرعون حتى ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ..﴾ لآخر مرة ثم لم يرجع إلى فرعون إلا بعد رجوعه من مدين رسولا ، ولقد كان من المحسنين حين كان في البلاط ، دون أي تأثير بذلك الجو المظلم الظالم ولا ترب إلا ربوة جسدانية ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (٢٦ : ١٨) وعلى أية حال ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ وهي بطبيعة الحال مصر ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وحين الغفلة قد تلمح أنه كان ملاحقا في المدينة من قبل السلطة وعيون القصر إذ «هم به فرعون» (٢) وقد تلمح

(١) البحار ١٣ : ٢٧ عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في تفصيل القصة.

(٢) البحار ١٣ : ٣٦ بسند متصل عن سعيد بن جبير عن سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام عن أبيه سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام عن أبيه سيد الوصيين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما حضرت يوسف الوفاة جمع شيعته وأهل بيته فحمد الله وأثنى عليه ثم حدثهم بشدة تنالهم يقتل فيها الرجال وتشق بطون الحبال وتذبح الأطفال حتى يظهر الله الحق في القائم من ولد لاوي بن يعقوب وهو رجل أسمر طويل ووصفه لهم بنعته فتمسكوا بذلك ووقعت الغيبة والشدة ببني إسرائيل وهم ينتظرون قيام القائم اربعمئة سنة حتى إذا بشروا بولادته ورأوا علامات ظهورته اشتدت البلوى عليهم وحمل عليهم بالخشب والحجارة وطلب الفقيه الذي كانوا يستريحون إلى أحاديثه فاستتر وتراسلوه وقالوا : كنا مع الشدة .

«حين» انه وقت الاستراحة النوم لأهل المدينة ، ولكنه دخول قاصد ذلك الحين إذ كان يخافهم من فرعون وملاؤه ، وإلا فلما ذا دخلها على حين غفلة من أهلها؟.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وهذا مما يدل على أنه كان معروفا لدى شعبه وأتباعه في الايمان ، خلاف الآخرين ، فان «من شيعته» دون من أشياعه ، و «من عدوه» دون من أعداءه ، مما يوضح ذلك في بعدين ثانيهما ان «هذا» الأول صادر منه صدور الأشياء من مصادرها وهو هنا مصدر الايمان ، و «هذا» الثاني صادر من عدوه فرعون وهو مصدر الكفر ، إذا فالأول موحد والثاني مشرك ، والمشارك المحارب يجوز أو يجب قتاله وقتله إلا في ظروف استثنائية تتغلب على صالح الموقف.

﴿فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وهذه الإستغاثة مما يؤكد وجوب إغاثة المؤمن على الكافر.

﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ والوكز هو الضرب بجميع الكف وليس هو قتلا ، فلا أنه قصد قتله ، ولا أن الوكز مما يقتل في العادة ، ولكنه صادف أن قضى عليه بوكزه إذ كان قويا ، وحالة الدفاع عن المؤمن حالة استثنائية تقوي الضعيف فضلا عن القوي ، فقد وقع ما لم يقصد وقصد ما لم

. نستريح إلى حديثك فخرج بهم إلى بعض الصحارى وجلس يحدثهم حديث القائم ونعته وقرب الأمر وكانت ليلة قمراء فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم موسى (عليه السلام) وكان في ذلك الوقت حديث السن وقد خرج من دار فرعون يظهر الزهة فعدل عن موكبه واقبل إليهم وتحت بغلة وعليه طيلسان خزّ فلما رآه الفقيه عرفه بالنعته فقام اليه وانكب على قدميه فقبلهما ثم قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرايتك فلما رأى الشيعة ذلك علموا انه صاحبهم فأكبوا على الأرض شكرا لله عز وجل فلم يزداهم على ان قال : أرجو ان يعجل الله فرجكم ثم غاب بعد ذلك وخرج إلى مدينة مدين ...

يقع ف ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ، أترأه يشير ب «هذا» إلى عمله؟ وكيف يكون عمل موسى . الذي أتاه الله حكما وعلما بإحسانه . من عمل الشيطان! لا ريب أن دفاعه عن الذي من شيعته بوكزته كان قضية الايمان ومن عمل الرحمن ، وحاشاه ان ينسبه الى الشيطان ، فقد «يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى من قتله» ^(١) بوكزه دون تقصّد لقتله.

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٣٢ ج ، ن في خبر ابن الجهم قال سأل المأمون الرضا (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال الرضا (عليه السلام) : إن موسى (عليه السلام) دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين ... فقضى موسى (عليه السلام) على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات قال : هذا من عمل الشيطان ، يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى (عليه السلام) من قتله ، إنه : يعني الشيطان ، ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ .

قال المأمون : فما معنى قول موسى : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾؟ قال : يقول : إني وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أى استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ، قال موسى : ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فن القوة حتى قتلت رجلا بوكزة ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ بل أجاهد في سبيلك بهذه القوة حتى ترضى «فأصبح» موسى (عليه السلام) ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ﴾ على آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ قاتلت رجلا بالأمس وتقاتل هذا اليوم ، لأودينك وأراد أن يبطش به. ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وهو من شيعته قال يا موسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ان تريد إلا ان تكون جبارا في الأرض وما تريد ان تكون من المصلحين.

قال المأمون جزاك الله خيرا يا أبا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون ﴿فَعَلَّهَا إِذَا﴾

أم يعني «هذا» الذي «من عدوه» أنه من عمل الشيطان كما قال الله لنوح عن ابنه ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ يعمل أشياء له كهذا العدو ، ثم يحملهم على عمله؟ أم ان «هذا» يعنيهما ، هذا العدو وعمله ، وما أجمله جمعا ، وهما مما أجالا الرسالة الموسوية ، معجلا له ارادة القتل ﴿وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وتراه إذا لم يكن عمله من عمل الشيطان فكيف يستغفر ربه فيه بما ظلم :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ١٦ .

«نفسي» هنا دون غيري مما يزود عن ساحته القتل ظلما ، فانما يعني بظلمه نفسه هنا الانتقاص غير القاصد بقتل الذي من عدوه في نصرة الذي من شيعته ، إذ خلف ملاحظته الشديدة من قبل السلطة الفرعونية ، فقتلا له بقتله أو تأخيرا لرسالته الموعودة ، فطالما الظلم هنا لا يعني التعدي الى غيره ، كذلك لا يعني في انتقاص نفسه انه كان قاصدا فيه ، فطلب من ربه الغفر الكامل والستر الشامل عما يرصده من قتل «فغفر له» فدفع كيد فرعون ثم أرسله اليه بعد ردح من زمن رحلته إلى مدين.

فالغفر لموسى (عليه السلام) كما الغفر لرسول الهدى في الفتح ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مهما كان بينهما بون من ناحية اخرى هي

. وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿قال الرضا (عليه السلام) إن فرعون قال لموسى (عليه السلام) لما أتاها ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بي قال موسى ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنك ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .. (عن الاحتجاج ٢٣٤ وعيون الأخبار ١١٠).

أقول : هو من شيعته اختلاق كما يأتي ، كما لأؤدبنك.

الخطاء فيما فعله موسى ولم يخطأ رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم)! ولو لا ذلك القتل الخاطيء دونما تقصّد لم يضطر موسى (عليه السلام) إلى الفرار ، ولا تأخرت رسالته عشر سنين.

والغفر في خلفية القتل كان عاجلا في الذب عن قتله ، وآجلا في بداية رسالته بعد ذلك الروح البعيد من الزمن ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (٢٠ : ٤٠).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ١٧.

وقد تعني هذه النعمة اضافة الى نعمة النبوة والايمان نعمة الذب عن قتله والغفران ، والقوة الدفاعية القاضية على عدوّ له ، و «لن» تحيل باختياره ان يكون ظهيرا للمجرمين ، كما لم يكن ظهيرا لهم وهو يعيش في قصر الإجرام ، ثم لما رأى قتالا بين عدو له وشيعة نصر شيعته على عدوه مهما اخطأ في قتله ، حيث الظروف ما كانت تساعد على ذلك القتل . مهما كان مسموحا في أصله ^(١). إذ خلف الفرار عن مسرح الدعوة ، وخوف الانتقام في فترة من الزمن بعيدة ، وليس يعني الذي من شيعته فيمن يعنيه «المجرمين» إذ بطش مرة ثانية لتخليصه وهذه مظاهره ، مهما كان من المجرمين من أوقع غيره في جرم أو من أدت إعاقته إلى جرم ، إذ لم تكن وكزته جرما حيث لم يقصد قتله ، وإنما قصد تخليص الذي من شيعته ، كما ولم تكن المقاتلة من ناحية المؤمن قصدا إلى إدخال موسى في الجرم!.

وهنا ندرس ان وكزة الدفاع مقصورة على قدر الدفاع حتى مع الكافرين

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢٢ . أخرج احمد في الزهد عن وهب قال قال الله عز وجل بعزتي يا ابن عمران لو أن هذه النفس التي وكزت فقتلت اعترفت لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها خالق لأذقتك فيها طعم العذاب ولكن عفوت عنك في أمرها أنها لم تعترف لي ساعة من ليل أو نهار إني لها خالق أو رازق.

فضلا عن المؤمنين ، اللهم إلا في جهاد العدو في الدين ، فهنا القتل مسموح مهما كان بدائيا أو وقائيا ، فموسى يقضي بوكرة واحدة على عدوه المهاجم على شيعة له ، مما يشي ببالغ قوته وفتوته ، مصورا مدى انفعاله وغضبه ، وما كان يخالجه من الضيق بفرعون وملاؤه الظالمين بحق أشياعه المضطهدين ، ولكن لما رآه جثة هامدة خامدة بين يديه ندم على هذه الصدفة الهائلة فاستغفر ربه وأتاب اليه واستنجد لموقفه الحرج المخيف ، فأُنجده الله.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ١٨.

مضى يوم «فأصبح» لعدوه «خائفا» خلفية قتله بالأمس «يتربق» الفرج من ربه ، ام و «يتربق» منفذا عن مضيقه ، أو يتربق الفضيحة في انكشاف امره وخلفية الأذى ، ملتفتا متوجسا يتوقع الشر في كل لحظة ، مما يؤكد حساسية القصر ضده منذ أمد ، وإلا فما أرخص لرجل القصر ، المتبني لفرعون ، أن يقتل أيا كان من الشعب ، فقد كان حين دخل المدينة منفصلا عن القصر ، معروفا لدى شيعته لحد عرفه هذا الذي من شيعته ، كما عرفه عدوه الثاني إذ ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ...﴾!

مضى يوم عن الواقعة وهو ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ من شيعته «يستصرخه» في اقتتال ثان مع عدو لهما ثان ، محنة بعد محنة ، مما يحرج موقفه أكثر مما كان ، ف ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ﴾ دون شك «لغوي» عن صراط الحق «مبين» غوايتك ، والاستصراخ هي طلب الصرخة أن تطلب من موسى بصرخة ان يصرخ على عدوه الثاني قالة وفعالة كما فعل بالأمس على الأول.

وتراه كيف يهتف بشيعة له حالة اقتتاله مع عدو له ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾؟ لأن اقتتال شيعته مع الأعداء الفرعونيين - ولما يحن حينه ، ولا قويت لموسى يمينه ، وهو في بداية أمره . ذلك القتال العجال غير صالح في هذا المجال ، كما وان رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه لم يقاتلوا أو يدافعوا في العهد المكّي إذ ما حان . بعد . حينه حتى جاء العهد المدني فسمح له في الدفاع والجهاد .

ثم الدعوة الرسالية مهما كانت قوية ، ليست لتبدئ بالقتال والقتل والقسوة ، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن ، ثم القتال إذا وجد له مجال .

فموسى الذي هم به فرعون ، وهو هارب من بأسه فيدخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، كيف يجوز لشيعة له ان يكدر عليه الجو اكثر مما كان فيقاتل عدوا لهما ، يفرض عليه نصره فقفزه فلقضاء عليه ، ثم يكرر بعد يوم نفس المسرح ، مما يحرج موقفه الرسالي اكثر مما حرج أول مرة ، إذا فحق له هتافه ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ .

اجل ، غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي إلا إلى نائرة نائرة على موسى وبني إسرائيل ككل .

وهم بعد ضعفاء ، ما حانت لهم الثورة «مبين» تلك الغواية في المدينة حيث ضاعت وشاعت وتشيع اكثر مما كانت فتجثت اصول الثورة المستقبلية الرسالية ، وقد تلمح ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ انه ممن أشير إليه من ذي قبل ب ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لا فحسب الذي من عدوه ، والمقاتلة ، بل والذي من شيعته حيث اقدم على المقاتلة ، إذا ف «هذا» ثالوث الشيطنة وموسى قد ابتلي بها لحد يستغفر ربه من خلفياتها ولم يعمل هو إلا واجبه دفاعا عن نفس مؤمنة ، مهما اخطأ طورة بقفزه القاتل دون تقصّد .

ف ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ تعنيه كرسول ، وفي ذلك القتل قتل له أو لرسالته ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ سترًا لما يترصد بي من دوائر السوء ﴿فَغْفَرَ لَهُ﴾ نجاتًا عن قتله وإبقاء لرسالته وإن تأخرت عشر سنين.

لقد وقع موسى هنا في مأزق ثانٍ كالأول ، فهل يقفز تعجيلًا فكالأول ، أم هل يحفز تأجيلًا ، والحفاظ على النفس المؤمنة واجب؟ فإنما يبطش بالفعل دون قفز قاض ولا حفز منحاز :

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ ١٩.

﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ طبعًا هو القبطي الفرعوني ، أترى ﴿قَالَ يَا مُوسَى﴾ هي قالة الإسرائيلي لأنه اغتاز بكلامه ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ فظن انه يقصد ببطشه إلى قتله ، فوبخه ببطشته تأنيبًا له ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي...﴾ فعرف القبطي ان موسى هو الذي قتل منهم نفسًا بالأمس فأخبر فرعون الخبر فائتمروا بموسى فجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ؟..

وإرادة البطش بالذي هو عدو لهما ظاهرة الهدف ان ليس هو الذي من شيعته! وغواية المؤمن لا تقتضي قتله وهو يحارب المشرك! ولا مرجع صالحا لضمير الغائب في «قال» إلا ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ فإنه الأقرب لفظيًا ومعنويًا! و ﴿كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ لا تناسب إلا نفسا كهذه النفس وهي العدو لهما ، إذ لا صلة ولا مماثلة بين قتل الإسرائيلي المؤمن المهاجم ، وقتل القبطي الكافر المهاجم! ثم ولا تأنيب في قتله نفسًا بالأمس إذ كان دفاعًا عن الذي من شيعته فكيف يؤنبه فيه! ثم وكيف يليق به القولة الفاتكة ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ فإنه ارتداد

عن الايمان فطريا يستحق به القتل فليقتله به ^(١)! ولعمر إلهي الحق ليس ذلك إلا تسفيرا للقرآن عن مغزاه ومرماه وليس تفسيراً ^(٢) ، فإن هي إلا قولة الذي هو عدوّ لهما ، ولم تكن القتلة السابقة مما تحفى . وهي القاتلة . من داعية إسرائيلي رباه فرعون عمرا من قبلها ، فشاعت في المدينة ، والقتلة المكررة من داعية تجعله جبارا في الأرض وتنفي عنه كونه مصلحا فيها ، حسب الظاهرة في بداية الدعوة.

وهذه شيمة شنيعة من المتجرين المستكبرين ان الدفاع عن الظلم إفساد وجير ، حتى ليسمي القبطي دفاع موسى عن الاسرائيلي تجبرا في الأرض يطارد الإصلاح!.

فقد تفسد الفطرة العامة الإنسانية لحد يرون الظلم فلا يثورون عليه ، بل وينكرون على الثائرين ضد الظلم ، إذ لا يعطون حق الدفاع للمظلومين المضطهدين ، وفوق كل ذلك يسمون الدافع عنهم وعن الظلم ﴿جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ كما قاله القبطي ، لأنهم ألفوا الطاغية تطغى ولا ثورة ضده ،

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢٧ القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في رواية القصة .. فلما كان من الغد جاء آخر فتشبت بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فخلى صاحبه وهرب ..

أقول : وهذا هو الصحيح الملائم للآية.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١١٩ في عيون الأخبار باسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون ... إلى أن قال : ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ قاتلت رجلا بالأمس وتقاتل هذا اليوم لأؤدبناك وأراد أن يبطش به ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وهو من شيعته ﴿قَالَ يَا مُوسَى...﴾!

أقول كيف هو من شيعته وهو عدو لهما أي موسى والقبطي أن هذا إلا بهتان مبين!

فحسبوا ان الطغيان حقه المطلق والثورة تخلفه عن الإصلاح! فإذا رأوا مظلوما يصرخ أو يستصرخ ، أم عطوفا يجب إلى صرخته فيدافع عنه ، حسبوه جبارا في الأرض ، متخلفا عن السنة المتبعة وهي الحياد أمام الطاغى والانقياد للباغى!.

أجل إنه لا ينكر أن الاشتباكات الفردية للداعية شبكات لانزلاقه في الفخ ، إذ لا تجدي في قلب الأوضاع الغاشمة ، كما كف الله المسلمين في العهد المكى عن تلکم الاشتباكات حتى آن أوانه ، ولذلك يخاطب موسى من سببها ب ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ واعترف على نفسه «﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾» ولكنه ليس بذلك جبارا في الأرض ، وإنما وقع في فخ من وكزته دفاعا واجبا عليه في الظرف المختلق خلاف ما يهواه.

لقد تفشى خبر قتله بالأمس رجلا من رجال فرعون ، وهو طبيعة الحال ، قضية استطارة الغضب من آل فرعون على موسى الملاحق من قبله ، واستطارة الفرح في بني إسرائيل ، فالقبيلان . إذا . هما إذاعتان لإشاعة ذلك النبأ حتى فشى وتطايير بين كل الجماهير ، ومنهم هذا الذي أراد موسى ان يبطش به ، فائتمروا به ليقتلوه فنجاه الله من القوم الظالمين :

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٢١.

ويا لرجال من أقصى المدينة ، ليسوا في أوساطها كالأغلبية الساحقة من المترفين ، بل هم العائشون في حوامشها البعيدة القاصية ، يا لهم من رجولات وبطولات للحفاظ على الرسائل الإلهية ، فهنا ﴿رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ إلى موسى ، وهناك ﴿رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ إلى رسل عيسى ،

ولا رجل من أوساطها هنا وهناك ينصر المرسلين ، وقد يكون هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ...﴾ (٤٠ : ٢٨)^(١).

وقد يتعلق ﴿مَنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ بمقدر كما تتعلق ب «جاء» ف ﴿رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ جاء من أقصى المدينة . «يسعى» مسرعا إلى موسى ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ﴾ الفرعوني «يأترون» فرعون ﴿بِكَ لَيَقْتُلُوكَ﴾ كما قتلت نفسا بالأمس وهمت اليوم بطشا بأخر «فأخرج» منها إلى مكان سحيق لا يعرفونه ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ وبالنتيجة : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ من ائتمارهم «يترب» الفرج والنجاة الموعود حينما استغفر ربه فغفر له ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فهو المظلوم في ذلك المسرح وليس بظالم إلا نفسه غير متقصدا! وإن موسى قتل منهم نفسا فخرج منها خائفا يترب ، والحسين (عليه السلام) لم يقتل منهم نفسا وخرج من المدينة خائفا يترب! وابن خروج من خروج^(٢)؟

(١) نور الثقلين ٤ : ١١٩ في تمة القصة على طولها عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) وكان خازن فرعون مؤمنا بموسى (عليه السلام) قد كتم إيمانه ستمائة سنة وهو الذي قال الله عز وجل : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ ...﴾ وبلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل فطلبه ليقطله فبعث المؤمن إلى موسى (عليه السلام) ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ كما حكى الله عز وجل ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قال : يلتفت بمنة ويسرة ويقول : ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أقول : «فبعث ..» خلاف نص الآية انه ﴿جَاءَ ... يَسْعَى﴾ ثم ومجيئه بنفسه إلى موسى لا يناسب كونه خازن فرعون لأنه تهدر لدمه ، فقد يجوز انه قبضي مؤمن غير معروف في البلاط جاء بنفسه ليحذر موسى .

(٢) المصدر ٤ : ١٢٠ في ارشاد المفيد في مقتل الحسين (عليه السلام) فسار الحسين (عليه السلام) إلى مكة وهو يقرء ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته : لو تنكبت الطريق الأعظم كما صنع ابن .

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

«مدين» هي مدينة شعيب ، المرسل إلى أهله : ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (٧ : ٨٥) وقد جاء ذكرها عشر مرات في الذكر الحكيم ، وهي واقعة تجاه تبوك على بحر القلزم ، بينهما ست مراحل ، وهي أكبر من تبوك ، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام ، وبينهما وبين مصر مسيرة ثمان وقد كانت خارجة من سلطان فرعون.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ٢٢.

تلقاء الشيء حذاءه وقباله حيث يلتقى به ، من «لقى تلقية وتلقاء» ولكنه لقاء من بعيد يوصل إلى لقاء القريب ، فقد خرج من المدينة متوجها لتلقاء مدين فريدا طريدا خائفا يتربقب الفرج ، منزعا بنذارة الرجل من أقصى المدينة دون تزود بزد ولا ترحل براحله ، راحلته رجلاه ، وزاده ترجي هدى الله ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ إلى مدين واردا سليما وإلى المدينة راجعا رسولا منذرا ، وبينهما السبيل إلى تشكيل العائلة.

فهنا نجد موسى بعد ربح من عمره منذ ولادته حتى رجولته في نعومة العيش في البلاط ، نجده في قلب المخافة ، يطارده فرعون وملأه ، لينالوا منه

. الزبير لئلا يلحق الطلب ، فقال : لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض ، ولما دخل الحسين (عليه السلام) مكة كان دخوله إليها ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان دخلها وهو يقول : ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

اليوم في رجولته ما لم ينالوه منه في طفولته ، ولكن اليد التي حمته هناك أخرى أن يحميه هنا :
﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾! وتراه كيف عرف الطريق إلى مدين ولم تسبق له سابقة منه وليس
يكفيه سؤال الرجل الناصح لاهتدائه على طول الخط في الطريق؟.

﴿تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ﴾ دون «توجه إلى» قد تلمح انه توجه تلقاءه تلقائيا وما يدري هو انه
متوجه تلقاءه ، وإنما الله هو الذي يدلّه إلى مدين ، و ﴿عَسَى رَيِّ أَنْ يَهْدِيَنِي﴾ دليل أنه ما
كان يعرف الطريق ، و ﴿تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدِينٍ﴾ دليل واقع التلقاء بما لقاه الله ، وغير صحيح
أن يسأل الناس عن الطريق وهو في مفازة المخافة ، متسترا مقصده عنهم فرارا عن كيد
المؤتمرين به ليقتلوه.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ٢٣.

لقد وصل إلى مدين وورد مائه ، وهو بطبيعة الحال بداية ورده البلدة ، وصل مكدودا
مجهودا وهو بحاجة إلى رياحة ف ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ جماعة من مختلف
الرعاء وسواهم يسقون أنفسهم وأنعامهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أبعد منهم إلى الماء بفصل
فاصل ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ والذود هو المنع ، ولأن المتعلق هنا مطلق فقد يعم ذودهما
اغنامهما عن التفرق ، وعن الخلط بأغنام الناس ، وعن ورد الماء حتى يصدر الرعاء ،
وذودهما الناس عن اغنامهما ، وذود أنفسهما عن الاختلاط بالرجال ، وعن الاستعجال
لورد الماء حتى يصدر الرعاء ، والذود عن أن ينظر إليهما ، وكل ذود هو قضية الأدب في
الشرعة الإلهية للنساء بين الرجال.

فهل من الوجدان في ذلك الوجدان ألا يتأثر موسى من حالتها

المرجعة ، على كونه مكذوباً؟ كلاً! وهو الرؤوف الحنون حتى بشيعته الغوي المبين ، فكيف لا يرأف بامراتين ضعيفتين في هذا البين ، فليسأل عنهما وقد سأل : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ والخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والتسأل ، ولقد كان أمرهما . في أصل السقي وهما امرأتان ، وفي التأخر عن السقي . كان يبعث للتسؤل والتخاطب ، فجاء الجواب عن الأمرين في ذلك الخطب الجلل .

أما التأخر عن السقي ف ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ إنهاء لسقيهم وإخلاء للماء حتى نسقي ولا رعاء ، مهما جئنا قبلهم ام قبل بعضهم ، إذ نحتشم عن الخلط بالرجال الغرباء .

وأما أصل السقي لنا ولأنعامنا ونحن امرأتان؟ ف ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ، فنحن على أنوثتنا وضعفنا أقوى منه ، وبطبيعة الحال ليس له أبناء حتى يكفوا عنه وعنّا ، فسقينا . إذا . ضرورة معيشية تسمح لهكذا كدّ وكدح للسقي . هنا تتور الغيرة الموسوية للإقدام على السقي لهما رغم حالته المرحجة ، حيث لا تمنعه عن القيام بواجبه الحاضر ، فيصبح خير ناصر لمن لا يعرفهما ، ولكنه عارف عجزهما وحاجتهما إلى معين ، ويعرف مرضات الله في تلك الإعانة .

﴿فَسَقَىٰهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ٢٤ .

﴿فَسَقَىٰهُمَا﴾ وكيف سقى ، طبعاً قبل ان يصدر الرعاء كلاً أو بعضاً ، فإن سقيه لهما بعد إصدارهم عن آخرهم ليست فيه معونة زائدة على سقيهما بعد الإصدار .

أتراه سقى لهما حسب النوبة؟ أم تطلبّ منهم تقدم النوبة؟ كلّ محتمل ، ولكن القوة المعروضة في قالة إحداهما ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ إغنا تخرج حالة السقي لهما عن العادة ، فلتكن قوة بارعة خارقة أقوى من كل الرعاع ، وهنا قد يصدق ما يروى انه كان يجتمع على الدلو رجال حتى يخرجوه من البئر لعظمه وثقله ^(١) فاستقل موسى بمفرده لإخراجه ، مما سمح له منهم ان يسقي لهما قبل النوبة.

وأضف إليها القوة النفسية التي أوقعت في قلوب الرعاة هالة الانجذاب إليه ، حيث الناس يتأثرون بالقوات النفسية أكثر من البدنية ، فمن الجائز أنهما لمستا منه القوتين فاعترفتا عند أبيهما انه «قوي».

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٠ القمي في تمة القصة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) .. ومر نحو مدين وكان بينه وبين مدين مسيرة ثلاثة ايام فلما بلغ باب مدين رأى بئرا يستقي الناس منها لاغنابهم ودواجم فقعدنا حية ولم يكن أكل منذ ثلاثة ايام شيئا فنظر إلى جاريتين في ناحية ومعهما غنيمات لا تدنوان من البئر فقال : ما لكما لا تسقيان فقالتا كما حكى الله عز وجل : ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فرحمهما موسى (عليه السلام) ودنا من البئر فقال لمن على البئر أسقي لي دلوا ولكم دلوا وكان الدلو يمدده عشرة رجال فاستقى وحده دلوا لمن على البئر ودلوا لبنتي شعيب وسقى أغنامهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب اني لما أنزلت الي من خير فقير . كان شديد الجوع.

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن أبي عبد الله (عليه السلام) .. فانتهى إلى اصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر وإذا عندها امة من الناس يسقون وإذا جاريتان ضعيفتان وإذا معهما غنيمة لهما «قال ما خطبكما قالتا : أبونا شيخ كبير ونحن جاريتان صغيرتان لا نقدر ان نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقيننا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما : قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها وقال «رب ..» فلما رجعت إلى أبيهما قال : ما أعجلكما في هذه الساعة؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لأحدهما اذهبي فأعديه لي فجاءته إحداهما».

ثم الضعف الطارئ من أعباء السفر الشاق الطويل ، على تحوُّف ، وحرّ الشمس كما
«ثم تولى» منها «إلى الظل» هذه مما ينهك القوي ، فما أقواه موسى ان تغامض عن كل
ذلك وسقا لهما قبل أن يصدر الرعاء دونما أجر حاضر ولا موعود ، إلا مرضات الله .

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى﴾ عنهما «إلى الظل» ليستريح عن حرّ الشمس ووعشاء السفر ،
«تولّى» دونما تساءل آخر عنهما كيلا يخيّل إليهما أنه يريد منهما أجرا ، أو يهواهما زواجا
بديلا عما سقا لهما ، وذلك هو العفاف القاصد القاسط أمام المحاويج من النساء الأغارب
، أن تقضى حوائجهن ثم يتولّى عنهن ، وهذا أرغب لهن إلى الزواج إن أردنه ، حيث التّأبي
الظاهر من الرجل القوي الأمين مما يثير رغباتهن .

﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وما هو ما أنزل إليه ربّه؟
أهو الحكم والعلم؟ وقد أوتيتهما من قبل! أم هو طعام يطعمه إذ كان جائعا مدقعا ^(١) فقد
«والله ما سأله إلا خبزا يأكله لأنه كان يأكل بقلّة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من
شفيف صفاف بطنه لهزّاله وتشذب لحمه» ^(٢)؟

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢٥ . اخرج ابن مردويه عن انس بن مالك قال قال رسول الله (صلى الله عليه السلام) لما
سقى موسى للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير
قال : انه يومئذ فقير إلى كف من تمر .

(٢) نهج البلاغة قال (عليه السلام) وان شئت ثنيت بموسى كليم الله صلوات الله عليه إذ يقول ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ والله ...

وفي نور الثقلين ٤ : ١٢١ في الكافي عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله (عليه السلام) في
الآية قال : سأل الطعام ، والعباشي عن حفص البختری عن أبي عبد .

و ﴿لَمَّا أُنْزِلَتْ﴾ تدل على خير منزل عليه ماض ، ولو كان هو الطعام الحاضر لم يكن بحاجة إلى دعاء الافتقار ، والصيغة الصالحة له «رب اني جائع» ام «فقير لما تنزله من طعام» ام ما شابه! اللهم إلا أن يعنى ب «من خير» القوة البدنية . اضافة إلى الروحية . التي استطاع بها ان يسقي لهما ، ففقره إلى هذه القوة يتطلب طعاما يتقوى به ليستمر في هكذا إعانات في وجه الله ، ام خير قضاء الحاجة حيث أنزله الله إليه فأدّى واجبه ، ثم يتطلب من ربه قضاء حاجة الجوع جزاء وفاقا ، و ﴿لَمَّا أُنْزِلَتْ﴾ دون «إلى ما أنزلت» لمحة لطيفة إلى أنه يتسبب بما انزل إليه من خير لقضاء حاجته ، حيث اللام هي السببية .
أم يعني خير قضاء حاجتهما ، فهو مفتقر إلى مثله ، متأهب لقضاء كل حاجة نازلة اليه من عنده تعالى وذلك من شيم الخيرين أن الحاجة المعروضة لديهم مهما كانت صعبة القضاء ، هي خير منزل من الرب .

كما ويعني امرأتين ، أنني بحاجة إلى زواج إحداهما ، وقد تعني ﴿لَمَّا أُنْزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ كلما ذكر من خير الوحي والقوة البدنية والروحية ، وخير قضاء الحاجات ، وخير حاجة البطن : الطعام ، وخير حاجة الجنس : الزواج ، إظهارا للافتقار إلى كل ذلك ، وقد ذكرت اللام في ﴿لَمَّا أُنْزِلَتْ﴾ لتعم السبب والغاية ، لسبب ما أنزلت وإلى ما أنزلت الي من خير فقير ، وقد

. الله (عليه السلام) في قول موسى لفتهاه : آتانا غداءنا وقوله ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أُنْزِلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال : انما عني الطعام فقال ابو عبد الله (عليه السلام) ان موسى لذو جوعات ، وعن ليث بن سليم عن أبي جعفر (عليه السلام) شكى موسى إلى ربه الجوع في ثلاثة مواضع : ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا ..﴾ ﴿لَا تُخْذَتْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ . ﴿لَمَّا أُنْزِلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

أجاب ربه دعاءه من فوره ، وقد يستبعد من ذلك المحتد الرسالي طلب الطعام وله من القوة ما يسقي لها و «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوي» ^(١) اللهم إلا ضمن طلباته ليقوى على ما أعان ، فعلى أية حال فليس يختص ﴿لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾ بطعام يأكله ، إذ لم ينزل عليه بعد إلا عند شعيب ، وقد أنزل عليه من قبل الجاريتين بحاجتهما ، ولذلك فرع مجيئهما بدعائه كإجابة عاجلة :

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ ^(٢) لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٢٥ .

لما «قال ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ . ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ دون فصل إلا قدر السير المرجع إلى أبيها ، حال انها ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ فان أمرها ظاهر ، ولا سيما أنها تحيي إليه وهو خلاف المتعود من خطبة النساء ، وقد تلمح «على» بتأكد الاستحياء وأنها علت عليه بما جاءته ، وإلا ما كانت لتحييه ، وان «استحياء» منكراً تعظمه حيث المعرف «الاستحياء» هو المعروف المتعود من العفاف ، فقد كان استحياء عظيمًا منقطع النظر ، وبالفعل جاءته و ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ . جاءته جيئة جيئة في غير ما تبدل ولا تبرج أو إغراء ، وإنما للإيواء إلى كريم البواء ، جاءته يدعوه في أقصر لفظ وأكثر معنى يحمل استدعاء أجزاء الجزاء دون لفظة أخرى تتغنج بها الفتاة بطبيعة الحال فيتهيج بها الفتى في نفس الحال ، كلاً وإنما ﴿أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ !.

وتراه كيف ساغ له اتباع امرأة في قولها ، ثم المشي معها وهي

(١). التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤ : ٢٤٠ . أليس انه (عليه السلام) قال : ...

أجنبية ، وذلك يورث عظيم التهمة؟ وكيف ساغ لشعيب (عليه السلام) ان يبعث بنته الشابة إلى شاب ولما يعرفه بالعفة؟ وكيف ساغ لموسى تقبّل أجر . كما قالت . وقد أعانها لوجه الله ، وهذا خلاف المروءة بل وخلاف الشرعة الإلهية إذ لم يعمل ما عمله بجعالة ، لا سيما وانه عرف عجز أبيهما وفقر العائلة ، ولموسى من القوة ما يحصل بها على مال يحتاجه من غير فقير بمحاولة يسيرة؟.

والجواب ان موسى انما استجابها إذ عرف من قبل عفاهما ، فلمحة الصدق من قولها ، وهو غريب في مدين يفتش عن قريب في العقيدة والمأمن . ثم ولم يستجبها طلب الأجرة ، وهي جائزة دون طلب ، مهما كانت مطالبها غير جائزة دون جعل ، وانما استجابها إذ تلمّح منها ومن مجيئها كأنها تعني تحقيق دعائه في الزواج بها ، وليس هو في الحق أجرا مهما سمته أجرا ، إذ أنكحها بثمانى حجج أو عشر ، وقد ينقل متظافرا أنها لما قالت ليجزيك كرهه ^(١) ولما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء فقال له كل ، قال موسى (عليه السلام) أعوذ بالله ، قال : ولم ، أأست جائعا؟ قال : بلى ولكن أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبتغي شيئا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً! قال : لا والله ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى (عليه السلام) فأكل ^(٢).

وهذه طبيعة الحال في كل التحيات ، فقد حياه موسى ان سقى

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤ : ٢٤١ وروي أنها قالت : ...

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٥ . اخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال لما دخل موسى على شعيب ...

لابنتيه ، فحيّاه بأحسن منها أن أطعمه وأنكحه إحدى ابنتيه ، وقبول التحية المردودة من آداب الايمان : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ (٤ : ٨٦) ، وقد ساغ لشعيب أن يبعثها إليه لما عرف من قوته وأمانته ، وذلك أخرى من بعثهما لسقى الغنم ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ السابق ذكره «قال» : شعيب ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إذ ليس مدين داخلا في سلطان فرعون ولا أنه عارف بمكانك ، وتراه كيف مشى معهما ابتعادا عن التهمة ، وعن النظر إليهما؟ لقد تقدمها لكي يأمن عن النظر إليها ^(١) وبذلك عرفت أمانته إذ قالت : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ :
﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ٢٦ .

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٢ عن تفسير القمي من حديث القصة الطويلة عن الباقر (عليه السلام) .. فقام موسى معها ومشيت امامه فسفقتها الرياح فبان عجزها فقال لها موسى : تأخري ودليني على الطريق بحصاة تلقبها امامي اتبعها فانا من قوم لا ينظرون في ادبار النساء ..
وعن كتاب كمال الدين وقام النعمة عنه (عليه السلام) قال لها : وجهيني إلى الطريق وامشي خلفي فإنا بني يعقوب لا ننظر في اعجاز النساء ..

وعن من لا يحضره الفقيه روى صفوان بن يحيى عن أبي الحسن (عليه السلام) في قول الله ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال قال لها شعيب يا بنية هذا قوي قد عرفته برفع الصخرة ، الأمين من اين عرفته؟ قالت يا أبة اني مشيت قدامه فقال : امشي من خلفي فان ضللت فأرشدني إلى الطريق فانا قوم لا ننظر في ادبار النساء وعن المجمع قال امير المؤمنين (عليه السلام) لما قالت المرأة هذا قال شعيب : وما علمك بأمانته وقوته؟ قالت : أما قوته فانه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا بكذا ، وأما أمانته فانه قال لي : امشي خلفي فأنا اكره ان تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك .

قد تكون «إحداهما». هذه . هي التي جاءته فزوجه شعيب إياها ^(١) وعلّها أصغرهما ^(٢) لا ندري ، حيث العادة جارية على تقديم الكبرى على الصغرى إلّا إذا كانت هي الأولى والأخرى بمن يريدّها ، ثم ولا مزنة على الأخرى.

وعلى أية حال ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ إذ نحن بحاجة إلى رجل يعيننا و ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وقد جرّنا قوته وأمانته ^(٣) فلتكن القائلة هذه القولة هي التي جاءته إذ جرّبت أمانته ، مهما كانت تجربة القوة لهما معا ، وكيف تجرّأت ان تقول ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ واستيجار مثل هذا الرجل القوي الأمين مهانة؟ علّها لأنّها لم تجد صيغة أخرى أخرى منها لاستجلابه لزواجها عرضا على أبيها ، فقد لحت إلى مهرها

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢٩ عن أبي عبد الله (عليه السلام) سئل أيتهم زوجة شعيب من بناته؟ قال : التي ذهبت إليه وقالت لأبيها : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ..﴾ وفيه (عليه السلام) بسند عن البنظي قال سألت الرضا (عليه السلام) عن قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ..﴾ أهي التي تزوج بها؟ قال : نعم. وفي نور الثقلين ٤ : ١٢٣ مثلهما في التي تزوج بها.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٧ . اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لي جبريل يا محمد ان سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى؟ فقل أوفاهما ، وان سألوكم أيهما تزوج فقل : الصغرى وفيه اخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما ، وإذا سئلت أي المرأتين تزوج ، فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقلت يآبت استأجره ..

(٣) في أحاديث متظافرة مضت أن شعيب سألها دليل قوته وأمانته فقلت ، قوته أن سقى لنا ما لم يقدر عليه احد من الرعاء وأمانته انه مشى امامي تحرزا عن النظر إلى خلفي.

باجرة الاستئجار ، وإلى زواجها باستدعائه أن يظل عندهم ، وذلك لا يناسب إلا بزواج ، والقوة والأمانة هما الدعامتان في صالح الحياة الجماعية ، ولا سيما تأسيس الأسرة. ف ﴿تَجَوَّعَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كانت خطوة أولى تطمئنه نفسيا ، ثم ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ خطوة ثانية فيها حظوة الجنس ورياحة الجسم من صوت الأنوثة الأنيسة ، وما ألطفه دعاء للزواج.

وهنا يحس الأب الشيخ الكبير تجاذبا بين الجانبين وثقة متبادلة بين الطرفين ، بعد ما تأكد صلوحا في موسى قوة وأمانة ، فاستجاب من فوره لاقتراح ابنته :
﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٢٧.

وترى ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ﴾ هي التي قالت يأبت استأجره؟ وصيغته الصالحة الصريحة «اني أريد ان أنكحك إياها»! ، أم هي الأخرى؟ فالأخرى!
إن التعمية هنا هي أولا ستار على موقف الأولى ابعادا عن رخصتها ، وهي ثانيا تخيير له في اختيار أيتها شاء دونما تسيير عليه بحصر على الأولى.

وقد نتعرف هنا إلى الصيغة الصالحة للنكاح ﴿أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ﴾ حيث المفعول الأول المنكح هو الزوج ، والثاني المنكح له الزوجة وكما في أخرى ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ (٣٣ : ٣٧) ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٤٤ : ٥٤) فلا معاكسة في صيغة النكاح ك «زوجتك نفسي» أمّا شابه.

وهكذا عرضت إحدى ابنتيه ان يأجره أبوها ، ثم عرض الأب عليه بكل بساطة زواجه بها لما عرف الكفاية من الجانبين ، عرضاه في غير التواء

ولا تحرّج ، خلاف التقاليد المصطنعة الباطلة التي أصبحت سنة الزواج ، إذ تحتّم خطبة النساء على الرجال وأوليائهم أو وكلائهم ، دون جانب المرأة ، رغم المخالطة والمكاشفة أحيانا بين بعضهم لبعض دونما خطبة ولا نكاح ، فأما إذا حان حين الزواج فلتكن الخطبة من جانب الزوج ، وإلا فهي رخيصة بخيسة إذ عرضت نفسها للزواج أو عرضت له!

ولقد كانت النساء يعرضهن انفسهن على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيؤوي إليه من يشاء منهن ويرجي من يشاء ، فيعرضها على من يستصلحه لها ، مزودا لمن بترغيب ودونما تعيب أو تأنيب ، ونموذجا من ذلك نص الأحزاب ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمِّنَةً إِنَّ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٠).

وترى كيف يصح كون الصداق لصالح ولي البنت وبقراره : ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ..﴾ والصدقات تخص البنات دون الأولياء؟.

علّه لأنه كان مؤذونا في الأمرين كما تطلّبت اليه : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ فاستأجره كما استصلح لصالح العائلة عامة وللبنت خاصة ، إذ هي من ضمن من يستفيدون من ذلك الإيجار ، ام انه يحق لولي ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ (٢ : ٢٣٧) مهما كان موردها العفو عن نصف الصداق بطلاق قبل وقاع ، إذ لو لم يكن له حق في صداقها لما حق له العفو عنه نصفاً أمّاذا ، وكيف يصح هكذا قرار للصداق حيث لا يعلم الوفاء به إذ ما تدري نفس متى تموت؟ إنه قد لا يصح هكذا ، إلا «أن موسى علم أنه سيتم له شرطه»^(١) فحين لا يعلم الوفاء كان الصداق معلقا غير مقطوع به

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٣ عن المجمع روى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : . لما قيل له : فدخل بها قبل ان يمضي الشرط أو بعد انقضاءه؟.

فغير صالح للنكاح ، أم إن له بديلا مما ترك بعد موته إن كانت له تركة ، وحتى إذا لم تكن فالتصميم على الوفاء مع إمكانيته في ظاهر الحال يكفي صدقا للصدّاق ، فمن هذا الذي يعلم بيقين أنه يوفي بما وعد في أية معاملة من المعاملات ، ومنها الصدقات المؤجلة ، بل والمعجلة بعد هنيئة من عقد النكاح إذ من الجائز عدم قدرته على الإنجاز لموت أو فقد مال ، وهنا ﴿ثَمَانِي حَجَجٍ﴾ وهي ثماني سنين ، تصرّحة على سابق الفرض في حج البيت ، لحدّ كانت تسمى كل سنة حجة ^(١) والحجج الثمان هي الصدّاق الأصيل ، والإتمام عشرة نافلة هو بالخيار فيها ، وقضية الكرم من مثل موسى إتمامها عشرة وقد أتم وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام ^(٢).

. قال : قبل ان ينقضى ، قبل له : فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟ قال : ان موسى علم انه سيتم له شرطه ، قيل : كيف؟ قال : علم انه سيقى حتى يفي .
(١) في تفسير العياشي قال الحلبي سئل ابو عبد الله (عليه السلام) عن البيت أكان يحج قبل ان يبعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال : نعم وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليهما السلام حيث تزوج ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَجٍ﴾ ولم يقل ثماني سنين .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٦ . اخرج ابن ماجه والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عقبة بن المنذر السلمى قال : كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقرأ طس حتى بلغ قصته موسى (عليه السلام) قال : ان موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشرة على عفة فرجه وطعام بطنه فلما وفي الأجل قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الأجلين وفي موسى؟ قال : أبرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته ان تسأل أباهما ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاهما ما ولدت من غنمه ... ورواه مثله في أبر الأجلين وأوفاهما أبو هريرة عن أبي سعيد الخدري عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

أو ليس شاقا على موسى على محتده وعلو مقامه وواجب تحضيره للرسالة المستقبلية أن يؤاجر نفسه ثماني حجج أو عشرا؟ حسب الظاهر نعم ، وفي الحق لا كما وضحه أبوها ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في أصل الثمان ولا في التكملة ، وإنما هي مصلحة ككل من صالح إلى صالح ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ..﴾

ومن الصالح في هذه الحجج أن يصبح موسى من رعاة الأغنام قبل ان يرسل رسولا إلى الأنعام ، فلقد لبثت من عمره ردحا في بلاط النعمة والنعومة ، فليعيش . ما بينه وبين الرسالة إلى فرعون وملايه وسائر المكلفين . راعيا لأغنام وذلك قدره الذي قدره له ربه ﴿.. وَقَتَلْتُ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى . وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي﴾.

ويا له من اصطناع بارع ليصنع بعد أمة صارمة ضد الفراعنة المجرمين ، فقد نقلته يد القدرة الرقيية الربانية منذ رضاعته إلى طفولته وإلى رجولته وحتى ذلك الحين وقد حان حين الوحي الحبيب ، وفي هذا الخط الطويل قبل الرسالة وبعدها تجارب منقطعة النظير . إلا لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . من تجربة الحياة في جو الفرعنة ، ثم الخوف والفرع والمطاردة ، وتجربة الجوع والوحدة والغربة ، وتجربة رعي الغنم والخدمة بعد حياة القصر .

.. وآله وسلم) وأبو هريرة نفسه عنه .

وفي نور الثقلين ٤ : ١٢٥ عن المجمع روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الأجلين قضى موسى؟ قال : أوفاهما وإبطأهما ، وفيه مثله عن أبي ذر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) لما قيل له : أي الأجلين قضى؟ قال : أتمهما عشر حجج ...

وهكذا تكون الرسالة الإلهية ضخمة الجوانب والتبعات في مقدمات ومؤخرات ، يحتاج صاحبها إلى عظيم الزاد في سفرته الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء والحرمانات عن المشتبهات في هذه الأدنى ليجتاح دون عبأه كل العرقلات ، والرسالة الموسوية هي اضخم الرسائل . بعد الرسالة الختمية . فليستعد موساها لكل إعداداتها حتى يجيء على قدر فيها . وعرض قصص موسى في معرض القرآن أكثر من سائر القصص ، لأنه أعرض القصص الرسالية ، وأشبهها بقصص الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وليستأنس به في هذا السبيل الشاق الطويل .

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيْتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ

وَكِيلٌ﴾ ٢٨ .

«ذلك» الميعاد ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مخيرا بين الأجلين لا مسيرا ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ في شرط الزواج «وکیل» دونما حاجة إلى شهود آخرين ، مما يدل على أن الإشهاد في النكاح غير واجب ، مهما كان واجبا في الطلاق .

فقد تمت هنا مواضع العقد بشروطه بلا مجال فيها لغموض ، وهنا التعمية من موسى (عليه السلام) ﴿أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيْتُ﴾ تأكيداً للتخيير ، وفسحا لمجال الإكرام بأوفاهما ، وذلك مما ندب إليه في الشرعة الإلهية ، أن يزداد في الأجر مهما كانت مماكسة فيه في البداية . ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا هَتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجُعَلْ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا

الْأُولَىٰ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

﴿قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ المعروف بينهما وهو آجل الأجلين دون الأعجل ، إكراما لشعيب ومعاملة بمعروف مع أهله كما هو المأمور به في الشريعة الإلهية ، وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «تزوج

صغراهما وقضى أوفاهما»^(١).

وبالفعل ﴿قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ ومضى ما مضى حيث أمضاه ، ولا إشارة هنا إلى كيف مضت العشر إذ لا تدخل في صميم القصص الرسالي ، مهما أجمله في ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ مما يلّمح إلى الصالح الرسالي المستقبل في هذه العشر العشرة مع الأهل ، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ مسيره المترقب المعهود إلى مصر ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا...﴾ وقد شرحناه في طه والنمل فلا نعيد إلّا ما أعيد هنا تكرارا يناسب تفصيل القصص ، و «اهله» هنا هم زوجته وولده^(٢) وهم ذكور أو بينهم ذكور لمكان الجمع المذكر «امكثوا».

مسير الإياب هنا هو مسير الذهاب نفسه واين مسير من مسير ، فهناك كان فريدا شريدا خائفا يترقب ، وهنا ﴿سَارَ بِأَهْلِهِ﴾ مستأنسا بهم وبالنار التي آنسها من جانب الطور وارفا يتأهب ، ليناديه به ويناجيه بما ينجيّه وسائر المستضعفين فيرثوا الأرض ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾!

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٠.

وهذه إجمال عما فصل في «طه» : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ مما يلّمح أن هذه الأصول الثلاثة مستفادة من كلمة التوحيد بإجمال.

(١). تفسير الفخر الرازي ٢٤ : ٢٢٤ . اعلم انه روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : ...

(٢). في سفر الخروج من التوراة ٤ : ٢٠ . انه حمل معه إلى مصر امرأته وبنيه.

وأما محل ذلك النداء فهو ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ وهو الجانب الأيمن الجامع ليمين الجانب ويمنه ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ وهي التي كانت فيها الشجرة ، بوركنت ببركة الوحي وقدّست : ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (٢٠ : ١٢) . «نودي ...» وهذا هو جانب الطور الأيمن : ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ (١٩ : ٥٢) فليس إلا مكان الطور ^(١) في القدس دون سواه ، كربلاء ^(٢) وسواها ، فقد جاء يقتبس نارا فاقتبس بديلها نورا «من الشجرة» فلقد كان صوت النداء من سمت الشجرة وهي الزيتون ، لا شرقية ولا غربية ، بل هي الشرق الأوسطية ، حيث الوحي الرباني لا ينحاز إلى شرق أو غرب ، بل هو الوسط الرباني المخلّق على مشارق الكون ومغاريه من امكنة المرسل إليهم .

وهنا الشجرة ليست إلا وسيط الوحي بحجابها ، لا أن الله حل فيها كما لا يحل في سائر حجب الوحي ووسائطه : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٢ : ٥١) .

ف «وحيا» هنا يعنيه دون أي حجاب كما حصل للرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة القدر وليلة المعراج أمأهيه من نهار أو ليلة ، و ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ يعني كل حجب الوحي ، كلاما في منام أم بواسطة ملك الوحي أم شجرة أمأهيه ، فالوحي إلى موسى يحمل حجابين اثنين :

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٧ عن المجمع روى ابو بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ نحو البيت المقدس اخطأ الطريق فرأى نارا ..

(٢) المصدر (١٢٦) عن تهذيب الأحكام بسند متصل عن مخزومة بن ربعي قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) شاطئ الوادي الأيمن الذي ذكره الله في القرآن هو الفرات والبقعة المباركة هي كربلاء.

الشجرة ولفظ الكلام ، و ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ كان معنى مجردا مجردا عن كل حجاب إلا حجاب الذات ، وذلك حين لم يكن بينه وبين الله أحد في مقام «دني» أم ولا نفسه فضلا عن سواه من سائر الحجب في مقام «أو أدنى» حيث ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ. فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ رؤية معرفية . في قمتها . الله ، ورؤية الوحي القمة!

لقد تلقى موسى بازغ الوحي بملء كيانه ، ووقف في أكرم موقف يلقاه إنسان حيث أصبح موسى الأجير الراعي للأغنام ، الرسول الراعي للأنام! هنا ﴿نُودِيَ .. إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي طه «نودي إني أنا ربك» وفي النمل ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٩) مع العلم انه لم يكن النداء إلا بصيغة واحدة علها هي أولاها فانها أشملها حيث تعني شامل الربوبية له ولسائر العالمين.

ثم «اني» تعني الله المتكلم من إذاعة الشجرة دون الشجرة نفسها وكما يسمع من مسجلة الصوت الآية ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ وليست المسجلة هي القائلة بل هي وسيط إذاعة الصوت أيا كان ، فالشجرة كانت . إذن . مذياع النداء ، وكما رسول الوحي إلى الرسل ينقل ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ثم الرسل ينقلونها لأممهم ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ، فلا أن الله حلّ في الشجرة وسبحانه ، ولا أنها حلّت إلى مرقى الربوبية ، وإنما الله هو الذي تكلم بحجاب الشجرة كما يتكلم بسائر الحجب.

لقد أتاح بازغ الوحي مصحوبا بآية الرسالة الربانية ، مطمئنة إياه في عقبات الدعوة

الشاقة :

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا هَتَرْتُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ٣١.

﴿نُودِيَ .. أَنْ يَا مُوسَى .. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إلقاء الإلغاء حيث كانت متكأك ، عساك ان تأتي فرعون وملاه ببرهان مبين ، فألقاها فأصبحت كأنها جان ﴿فَلَمَّا رَآهَا هَتَرْتُ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ تتلوى على كبرها ، وكأنها حية صغيرة تجن نفسها وتخفيها «ولَّى» موسى خوفا منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ليراها مرة اخرى ، فقلنا ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ إليها «ولا تخف» منها ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ عندنا ، لا يصيبك منّا أية أذى ف ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧ : ١١).

ومهما ظلمت أنت نفسك بما قتلت القبطي خطأ ولكنك بدلت حسنا بعد سوء ، من حسن التوبة ، وحسن الغربة أجيرا في مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (٢٠ : ٤٠) ، فهنا «لا تخف» في مقام الخوف المتعود ل ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وأما في مقام الأمن فيقال : «خف» عن زهوة الأمن وزهرة حياة الأمن وكل في محله فلكل مجال حال.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ٣٢.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ ..﴾ تعني : ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (١٢ : ٢٧) و ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى﴾ (٢٠ : ٢٢) فقد كان إدخالا خاصا بضم إلى جناحه وسلك فيه وهو النافذ الراكز ، تعابير ثلاثة عن ذلك الإدخال ، وكيف هنا ﴿واضمم إليك جناحك﴾ وفي طه ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾؟ (٢٢) إن جناح طه هو الجيب هنا المسلكة يده فيه وهو تحت إبط اليسرى ، والجناح هنا هو اليد اليمنى التي

أصبحت مرتحية كالجناح فليضممها الى اليسرى ، وإنما سميت اليد جناحا بعد ما أصبحت بيضاء لأنها أصبحت من الرهب كالجناح ، كأنها تريد ان تطير من رهبها ورهب حية العصا .
﴿تَخْرُجُ بَيَضاء﴾ ولم تكن ، لكنها **﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾** من برص خلاف نص التوراة :
 «ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج» (الخروج ٤ : ٦)!

«فذاذك» قلب العصا حية تسعى واليد البيضاء **﴿تُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِهْمُ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾** وماذا تعني إذا **﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾**؟ أعني نفس السلك؟ وقد ذكر قبل دون فصل! أم ان يضم جناحه اليه من رهب جان العصا ، ان يجمع يديه على صدره إذا عرضه خوف عند مشاهدة حية العصا ليذهب ما في قلبه من الروح؟ وقد سبق **﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾** كما ولا يناسبه الفصل بينهما بآية اخرى!.

أم تعني أن يتخذ لنفسه سيماء الخاشع فلا يزد هي بزهوة المكانة الرسالية مفرجا بين عضديه وجنبه كالتمطي في مشيته ، بل يخفض جناحه للمؤمنين كما أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** (١٥ : ٨٨)؟ ولا تناسبه «من الرهب» حيث الرسالة لا ترهب الرسول بل تعجبه وترغبه! ثم وموقف الرسالة إلى فرعون وملاه ليس موقف خفض الجناح! ، فقد تعني ضم جناحه من رهب الآيتين ، فكما حية العصا ترهب ، كذلك اليد البيضاء ترهب فترتخي كجناح الطائر الخائف ، فليضممها إليه استئصالا لظاهرة الرهب.

أم وكما أمر بأخذ عصاه **﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾** (٢٠ : ٢١) كذلك امر بضم يده التي أصبحت كجناح الطائر المرتخي ، ضما

إليه من الرهب ، ف «من» قد تكون سببية تعني أن الرهب يسبب ضم جناحه إليه ليزول ذلك الرهب بزوال البياض الطارئ من إدخالها في جيبه. أم ان «من الرهب» متعلقة بمحذوف «جناحك» الكائن «من الرهب» إذ أصبحت يدك من الرهب جناحا ، فاضممها إليك قبضا عن الانبساط والارتخاء استئصالا للرهب وزوالا للبياض المسبب للرهب.

وعلّ «جناحك» تعني يديه إذ تطلق على الجناحين واليدين الجانحين ، مهما كانت اليمنى هي الأصل في ذلك الضم ، رجعا لها إلى ما كانت من قبل ليذهب عنه الرهب.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ من ربك تربية رسالية ، إلى فرعون إنذارا رساليا ل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ على مرّ حياتهم الجهنمية ﴿قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طورهم. وكيف هنا «برهانان» وفي النمل ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢).

علّه لأنهما الأصل فيها كلها ، ام ان الباقية صادرة عنهما إذا فهما التسع في الأصل وباقي التسع فروعهما!

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي ٣٤﴾ هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾.

«قال رب» الذي ربيتني لهذه الرسالة السامية ، إن أمامي عقبتين كئودتين قد تعرفلان الدعوة أو الداعية ، اما الداعية ف ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وأما الدعوة ، فان لم يقتلوني ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ فأنا إذا بين قتل الدعوة وقتل الداعية ، وليس هذا اعتذارا عن أصل الرسالة

وتقاعصا عنها وانتكاسا ، وإنما يعرض حاله الحرجة ليطمئننه ربّه فيها ، ولا سيما بالنسبة لتصديق الدعوة ، فإنها هي المهمة الأولى للداعية مهما قتل دونها ، ولذلك تراه لم يتطلب من ربه علاجا صراحا عن قتله ، وإنما العلاج المستدعى في ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ وهو ﴿أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ مما يبين ان مهمة الداعية هي نفاذ الدعوة مهما قتل في سبيلها!.

وكيف ﴿أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ ولا بد لولي العزم من الرسل أن يكون أفصح من سائر الرسل كما هو أصلح؟ إنها فصاحة وقتية وليست أصلية ، فقد كانت في لسان موسى عقدة عن الإفصاح الكامل ، لا لرتبة في لسانه ، بل لأنه قتل منهم نفسا ، والمذنب عند قوم لا ينطلق لسانه كما يجب : ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونُ﴾ (٢٦ : ١٣) . ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونُ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي...﴾ (٢٠ : ٣٢) وقد شرحناها في طه بما لا مزيد عليه فلا نعيد.

وهلّا يكذبون أخاه هارون وهو أهون تكذيبا منه كولي له في الرسالة؟ إنه يعني افصاحا كاملا للدعوة ، بعيدا عن التكذيب ، أو أن يؤثر فيها التكذيب ، وإنما أنا المذنب عندهم لا ينطلق لساني في بزوغ الدعوة كما يجب ، وقد يأخذني الغضب فيحرّج موقف الدعوة والداعية ، واخي هارون هو أفصح مني في صيغة الدعوة ، وإن كذّبت يصدقني فيها تزويدا في البيان وتأكيذا لصدق الدعوة ، وتبينا للبرهنة ، إذ لا تكفي الآية المبصرة ما لم تزود بأية الحجة البصيرة ، ومزيج الآيتين يأتي حجة بينة لا مدخل إلى تكذيبها.

ولأن «ردء» هي المتابعة للإعانة فقد تطلّب إلى ربه أن يجعله وزيرا له يزر عنه عبء الرسالة الحرجة ، و «ردء» مصدرا مبالغة في تلك الوزارة المعنية ألا شغل له في ذلك الحقل إلا الوزارة دونما استقلال ولا استغلال.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ٣٥.

«عضدك» هنا هو عضد الرسالة ان يعاضد فيها بأخيه ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ قاهرا على فرعون وملاؤه ، دون اي سلطان لهم عليهما لا قتلا ولا تكذيبا ، إذا فهو سلطان القوة إلى سلطان الحجة لمكان ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ قتلا أو تكذيبا «بآياتنا» التي هي السلطان نفسه ، فذلك السلطان . الآيات . له جانبان ، جانب المنعة عن الوصول إليكما : ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ وجانب الغلبة لكما عليهم : ﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ﴾^(١) ، وقد تعني «آياتنا» هنا كل التسع التي أرسل بها إليهم ، وهي الطالعة من العصا ومن يده البيضاء ، ومن تلك الغلبة الموعودة الشاملة نتلمح أن السحرة ما صلبوا بما آمنوا ، لأنهم أصبحوا من أفضل «من معكما» فقد غلبوا على فرعون كونا إذ لم يصلبوا وكيانا في الحجة الغالبة لأن سحرهم . فقط . كان حجة ، وهم أولاء الذين آمنوا بموسى دونما تخوف من تألب أو تصلّب وسواه ، متصلبين في هداه.

وهذه طمأنة ربانية للداعية على طول خط الدعوة فلا يخاف عقبة في أولها وعقباها ، فإنهما لم يذهبا إلى الطاغية مجردين حتى يخافاه ، بل هما

(١) ف «بآياتنا» هنا تتعلق ب «لا يصلون» و «الغالبون» وما أجمله جمعا بينهما.

مزودان بسلطان لا يقف له أي سلطان ، من أي كان وأيان ، سياج صارم لا قبل لهم به .
﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ٣٦ .

﴿جَاءَهُمْ مُوسَى﴾ ومعه هارون «بآياتنا» التسع حالكونها «بينات» لا خفاء فيها ولا رية تعتربها «قالوا» فرعون وملاه «ما هذا» الذي جاء به موسى ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ على الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ .

وكيف ما سمعوا بهذا في آباءهم الأولين ، فالموحدون منهم أسمعهم التوحيد والوحي مصدقين ، والمشركون كذلك مهما كانوا مكذابين؟ .

وكيف ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ به على الله انه آية؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥٢ : ١٥) ﴿أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (١٠ : ٧٧) فأتوا بسحر مثله إن كنتم صادقين ، أنتم وآباءكم الأولون .

وانها قولة لعينة لئمة مكرورة على طول الخط ضد الرسالات الربانية ، فنفس الصيغة نجدها من المشركين زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كأهم تواصلوا بها في سلسلتهم النكيمة المكيمة!

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ٣٧ .

رد مهذب مبرهن مؤدب ، وكأنه لا يحمل برهانا عليهم وهو يحمل اتقن برهان ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهي كحجة مرسلتي المسيح (عليه السلام) ، ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (٣٦ : ١٦) فالتربية الربانية الرسالية باهرة في أعمالا وأقوالا وأحوالا ، وفيما معي من

آيات بينات ، و «اعلم» ب ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ وهي الحياة العاقبة حيث تعقب حياة العرقلة الكافرة ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لهم . فقط . دون الطاغين ، ل ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ بل يفلجون مهما ارعدوا وعريدوا لردح من الزمن طال أم قصر . وقد تعني الدار هنا الدار الدنيا إلى جنب الآخرة حيث تشملهما لفظة الدار : ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣ : ١٢٨) . ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ (٢٨ : ٨٣) .

فالحال الحاضرة لنا بكل حجة باهرة تضمن لنا البقاء دونكم ، ثم لنا . لا لكم . عاقبة الدار ، فلو كنا مفترين على الله كذبا فلن نفلح إذا ابدا ، ونحن المفلحون في العاقبة الآجلة كما نحن في العاجلة بما معنا من سلطان مبین .

وما كان رد فرعون على هذه الحجة الأدبية العجيبة إلا كلمة مكرورة رديئة :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ٣٨ .

هذه قالة الفرعنة اللعينة المهينة ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ كأنه يحيط علما بكل شيء فإذا لا يعلم إلها غيره فلا إله . إذن . غيره ، يقولها فرعون قاهرا دون ان يسمح لمخ أن يفكر ، ولا للسان أن يعبر إلا سمعا وطاعة ، وتشبهها قائلته الأخرى : ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٠ : ٢٩) .

ولقد قلب هنا امر كلمة التوحيد : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بمقلوبها ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي : لا إله إلا أنا!

وقد يعني ب «ما علمت ..» جهله ، ولذلك يأمر ببناء صرح ويقول ﴿إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فلو كان يعني ب «علمت» عدم إله غيره بصورة قاطعة لما صحت حيلته الثانية والثالثة ، اللهم إلا تماشيا وتنازلا من علمه المحيط المدعى ، وهو بدون هذه الدعوى الخاوية ليست حيلته الأولى حجة على السلب بل هي سلبه للحجة ، وقد يحتج بسلبها لعدم ثبوت إله غيره ، فليفتش عنه في السماوات بأسبابها بعد الأرض ، ولو كان لبان! ثم ولكي يؤكد سلبيته الماكرة يأمر هامان ببناء صرح رفيع يصعد عليه لعله يطلع إلى إله موسى ، فيتأكد انه ليس في السماء كما لم يجده في الأرض ، وكأن إله موسى ساكن السماء أو ساكن الأرض!. و ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ﴾ حالة مكرورة على السنة الماديين الناكرين لوجود الله كشرطة تدار ، إننا ما وجدناه بأي من حواسنا ، فليس . إذن . كائنا ، متجاهلين عن ان الكائنات لا تنحصر بالإدراكات الحسية ، وحتى لو انحصرت بها فلا يحيط بها أحد علما حتى يصلح القول : ما لا نجده فهو غير موجود! أجل يصلح القول : ما علمت فليس كائنا ، للذي يحيط علما بكل شيء وهو الله تعالى شأنه العزيز : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٠ : ١٨). هناك كيد أول «ما علمت ..» وكيد ثان ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ نَارًا﴾ وثالث ﴿إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ كلها ادعاءات جوفاء خواء يصارح بها على ملأه ولا يخاف ردا عليه ولا نكيرا.

وقد نلمس عمق الحمق الفرعوني من كيده الأوسط وهو بناء صرح ، وقد كان يكفيه ان يصعد أعلى جبل في مصر ، وهو دون شك أرفع مما بينيه

هامان خلال سنين! ثم السماء لا تخص محل الصرح لا طولاً ولا عرضاً ، حتى إذا لم يطلع إلى إله موسى من على صرحه فليس الإله . لو أنه في السماء . في سائر السماء! .
فمثله كمثل الذي ينكر وجود الذهب في الكون كله ، لأنه لم يجدها عنده أو في الأفق الذي يعيشه! وما أحمق هؤلاء الذين سمعوا قائلته هذه الحمقاء ولم يردوا عليه! وأحمق منها قائلته الأخرى : ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ..﴾ (٤٠ : ٣٧)^(١) .

وكيف بالإمكان بلوغ أسباب السماوات بالصعود على صرح ، ولو كان هو الإله فكيف يترجى ذلك البلوغ وما هو ببالغ؟
و «إله موسى» هنا وهناك . وعلّهما واحد مذكور بصيغتين . إنه تعريض عليه لو أن هناك إلهاً غيري فليس إلا إله موسى وليس إلهي وإلهكم! لقد تقولها الطاغية في بداية المواجهة ، كما تقول أخرى في النهاية ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وبين الكلمتين أربعون سنة^(٢) .
﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ٣٩ .
ولما يبلغ الاستكبار إلى هذا العمق من الحمق ، أن لا إله إلا أنا ، ظنا

(١) هناك في تفسير آية المؤمن بحث فصل عن اسباب السماوات فليراجع.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٩ . اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمتان فالهما فرعون ... كان بينهما أربعون عاماً فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

منهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ وهم يحسبونه علما ألا إله إلا فرعون ، ولا مرجع إلى الله ، فلا علاج لهؤلاء الحماقى الأنكاد إلا أخذا ونبذا :

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ٤٠ .

هذه عاقبتهم يوم الدنيا فكيف . إذن . عاقبتهم يوم الدين ، وقد تبين ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .

ويا له من اختصار حاسم قاصم ، أخذ ونبذ في اليم كما تنبذ الثفالات وتحذف الحصة ، نبذ في ذلك اليم تمليصا ، اليم الذي القي فيه موسى تخلصا ، هذا مأمّن وملجأ ، وذلك مكمّن عليه ومهلكة ومضجع ﴿فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ .
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ ٤١ .

جعل تكويني لإمامتهم النارية يعني أنه تعالى ما منعهم عنها كما لم يمنعهم قسرا عن كفرهم ، فخلّى بينهم وبين ضلالهم وإضلالهم ، ثم يذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٧ : ١٨٣) .

ف «جعلناهم» بين مثلث التكوين تحيرا في ضلال وإضلال ، ثم ايكالا لهم إلى أنفسهم جزاء وفاقا : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ . ﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَعْنُوهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (٤١ : ٢٥) ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٤٣ : ٣٦) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ (١٩ : ٨٣) . هكذا جعلناهم بما بغوا وطغوا ، كما عكسناه لآخرين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٢ : ٢٤) واين جعل من جعل ، والآخر تشريعي إلى كونه تكوينيا جزاء

وفاقا (١).

ولقد كانت الفراعنة في كل التاريخ أئمة الضلال ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ مناوئين لأئمة الهدى الذين يدعون إلى النور.

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ ٤٢.

«اتبعناهم» بدعواتهم اللعينة ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ حيث ﴿لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٩ : ١٣) ﴿وَنَكْثُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (٣٦ : ١٢).

فكل لعنة تابعة لضلال من ضل بإضلالهم ، «اتبعناهم» إياها مع تابعيهم ، كلا على قدره وقدره ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ، ف «من سن سنة سيئة كان عليه وزمن عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيء».

فهم من المقبوحين في الدارين ، والملعونين في النشأتين ، عائشين أجواء الاشمئزاز والتقزز ، خلاف الضفة الهادية ، حيث تعيش جو الإعزاز والتعزز.

وكما فرعون وماله هم أقبح المستكبرين في التاريخ ، كذلك موسى الرسول (عليه السلام) هو أفضل الرسل في التاريخ الرسالي بعد خاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم مائة

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٠ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال : إن الأئمة في كتاب الله عز وجل امامان قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ لا بأمر الناس يقدمون امر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم ، قال : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يقدمون أمرهم قبل امر الله وحكمهم قبل حكم الله يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل.

وستة وثلاثين مرة في أربع وثلاثين سورة بتفصيل قصصه أو إجماله كما تقتضيه الحال ويناسبه المجال ، مما يدل على أن له المكانة الثانية بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الرسالة النبوة الإمامة ، فقد كان ﴿رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (١٩ : ٥٢) إماما من أولي العزم (٣٣ : ٧ و ٤٢ : ١٣) كما وكتابه إمام (٤٦ : ٥٢) وفرقان وضياء وذكر (٢١ : ٤٨) فيها هدى ونور (٥ : ٤٤).

وبين التوراة الحاضرة والقرآن اختلافات شاسعة في قصص موسى وهارون مع فرعون : فالقرآن يوحد فرعون الذي أخذه ورباه والذي أرسل إليه ، والتوراة تفرق ^(١) ثم وهنا بازع النداء الرسالي إلى موسى من الشجرة المباركة في القدس بعد الرحيل عن مدين ، وهناك في مدين نفسه ^(٢) وهنا ألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ، وهناك لم يؤمنوا بل عارضوا موسى ^(٣) وهنا صانع العجل هو السامري ، وهناك هارون النبي (عليه السلام) ^(٤) وهنا ملقي العصا هو موسى (عليه السلام) وهناك هو هارون بأمر موسى (عليه السلام) ^(٥) وإلى أمثال هذه من اختلافات تكشف عن اختلافات توراتية أهمها البشارات المحمدية فيها ، وقد نذكرها مقارنة بطيات الآيات.

(١) سفر الخروج ٣ : ٢٣.

(٢) في التوراة ان أبا زوجة موسى هو يثرون كاهن مديان دون شعيب.

(٣) الخروج الاصحاح ٧ و ٨.

(٤) الاصحاح ٣٢ من الخروج.

(٥) الاصحاح السابع من الخروج.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَائِرِ النَّاسِ وَهَدَىٰ
 وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
 الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا
 عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
 لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
 قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوِّيَ مِثْلَ مَا أُوِّيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوِّيَ مُوسَىٰ مِنْ
 قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ

فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٤٣.

«ولقد» تأكيدان اثنان تؤكدان ضرورة إيتاء الكتاب ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ وهي التي قبل قرنه منذ قرن نوح وعاد واثمود إلى قرن فرعون ومن بينهم من المهلكين ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ : التوراة ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ : تبصّره تأريخ الهالكين وعاقبة الظالمين ، تأتي البصائر توصيفة غالية في الذكر الحكيم خمسا ، ثلاثا تخصه نفسه : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٦ : ١٠٤) . ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ٢٠٣) . ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤٥ : ٢٠) .

ورابعة لآيات الرسالية الموسوية : ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ (١٧ : ١٠٢) وخامسة للتوراة كما هنا.

والقرآن هو مجمع البصائر في كلتا المرحلتين ، هما مقسومتان على تورا موسى ومعجزاته واين بصائر من بصائر؟.

ثم «بصائر» هي جمع «بصيرة» وقد تكون تاءها للمبالغة كما ﴿الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (٧٥ : ١٤) مبالغة اطلاعه على نفسه ، وبصيرة التوراة وآيات موسى فضلا عن بصيرة القرآن هي مبالغة في الإبصار ، كأنها التي تبصر الناظرين إليها ، أو تبصر نفسها لهم لشدة التماعها واشراقها كما ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (١٧ : ١٢) بصيرة تجلب إلى الإبصار إليها لمحجتها البيضاء.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ مصدرا هي نفس الهداية وخالصها دون شوب ، «ورحمة» وذلك المثلث البارع من الإضاءة والإلماع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الحقّ فيه يؤمنون .
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٤٤ .

﴿وَمَا كُنْتَ﴾ بطبيعة الحال ولما كُوت ﴿بِجَانِبِ الْغُرِيِّ﴾ من الوادي ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ الرساليّ بإنزال التوراة ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ صورة القضية إذ ذاك ، ولكننا بينها لك وضع الشمس في رابعة النهار .

﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ٤٥ .

﴿مَا كُنْتَ .. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ منهم ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أغفلا وجهالا ثم أشهدناك قصصهم ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ مقيما ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لترى ما مضى على شعيب وموسى فيها ﴿مَا كُنْتَ .. تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ لترى ردة الفعل منهم ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا﴾ على طول خط التكليف «مرسلين» دونما وقفة في إرسال الرسل ، و «مرسلين» إياك ل ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٤٦ .

﴿بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ أول ما ناديناه «ما كنت» لا هنا ولا هناك لتسمع النداء والوحي فتعلم ما علّمه موسى «ولكن» ناديناك وأنزلنا إليك الكتاب ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ في قمتها العالية المنقطعة النظير بين كل بشير ونذير ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الفترة الرسالية البعيدة المدى ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فأمرك . إذن . يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أصعب من أمر موسى ، ولأن عبأك أثقل ورسالتك أعلى وأشمل ، فطريقك أطول وأعضل ، فاصبر يا حامل الرسالة الأخيرة التي تحمل جوهرة خالدة من كل الرسالات .

وقد تلمح «ما كنت إذ قضينا وناديناه» أن جرى ذكر محمد (صلى الله

عليه وآله وسلم) فيما نودي إلى موسى وقضي إليه ، وكما نجده في بشارات توراتية باقية حتى الآن رغم تطاولات التحريفات والتجديفات! وهنا روايات تؤيد تلك اللمحة اللامعة بحق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمته ^(١).

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٠ . اخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجيا قال : اي رب هل أحد أكرم عليك مني قربتني نجيا وكلمتني تكليما؟ قال : نعم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أكرم علي منك ، قال : فان كان محمد أكرم علي منك فهل امة محمد أكرم من بني إسرائيل فلقت لهم البحر وانجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المن والسلوى؟ قال : نعم امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أكرم علي من بني إسرائيل ، قال : الهي أرنيهم ، قال : انك لن تراهم وإن شئت أسمعك صوتهم ، قال : نعم ، فنادى ربنا امة محمد أجيئوا ربكم فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا لبيك ربنا حقا ونحن عبيدك حقا ، قال : صدقتم وانا ربكم وأنتم عبيدي حقا ونحن عبيدك حقا ، قال : صدقتم وانا ربكم وأنتم عبيدي حقا قد غفرت لكم قبل ان تدعوني وأعطيتكم قبل ان تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة» أقول علّه تعالى أسمعهم صوتا يشبه صوتهم إذ لا صوت لمن في الأصلاب والأرحام ذرا ولا عقل ولا تكليف!.

وفي نور الثقلين ٤ : ١٣٠ عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الأخبار المتفرقة حديث طويل وفيه ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : . وذكر ما في معناه بزيادة قبل فضل أمته هي «قال موسى يا رب فان كان محمد أكرم عندك من جميع خلقك فهل في آل الأنبياء أكرم من آلي؟ قال الله جل جلاله يا موسى اما علمت ان فضل آل محمد على جميع آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين ، وزيادة اخرى في جواب موسى بالنسبة لأمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا موسى لن تراهم وليس هذا أو أن ظهورهم ولكن سوف تراهم في الجنان جنات عدن والفردوس بحضرة محمد في نعيمها يتقلبون وفي خيراتها يتبجحون أفتحب ان أسمعك كلامهم ... وعبرة اخرى هي التلبيات بدلا عما مضت : لبيك اللهم لبيك .

﴿وَلَوْ لَا أَنَّ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَتَنْبِئَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٤٧.

«لو لا» امتناعية تمنع ﴿مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ في الدنيا ، وعلّ الجواب بقرينة
﴿لَوْ لَا أَرْسَلْتَ ..﴾ هو : لما أرسلنا رسولا ، وذلك مصيبة تصيب منكري الرسالات لو أن
الدنيا دار جزاء ، وانهم لا يحتجون على الله ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ..﴾
ولكنهم محتجون لو لا الإرسال رغم ما قدمت أيديهم من التكذيب على مدار الزمن الرسالي
، فيرسل الله رسلا تترى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَآلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٤ : ١٦٥) . ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥ : ١٩) :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ ٤٨.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ هؤلاء المشركين وأهل الكتاب أجمعين «الحق» رسول الحق محمد
(صلى الله عليه وآله وسلم) بالكتاب الحق في بعدي الشرعة وآية الرسالة «قالوا» المشركون
﴿لَوْ لَا أُوتِيَ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من كتاب وآية رسالية ، فلا أن القرآن مثل
التوراة ، ولا معجزة القرآن كالآيات الرسالية لموسى .

وهنا أجوبة ثلاث حلا ونقضا وتحديا اكتفي هنا بالثاني : ألم يكفروا ذلك

. لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك ، قال : فجعل الله عز وجل تلك الإجابة
شعار الحاج ...

الجيل المشترك بكل الرسالات ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ كما كفروا بما أُوتيت يا محمد من بعد ^(١) إذ «قالوا» فيك وفي موسى على سواء ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾.

والحل ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (٦ : ١٢٤) . ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ (٢٩ : ٥١) وليست من التزامات آيات الرسالات المشابهة إلا في التدليل على صدقها وهي دالة حيثما حلت ، فالمشركون لم يكونوا صادقين في اعتذارهم ، إذ كانوا مع أهل الكتاب في الجزيرة فلم يصدقوا بما أُوتِيَ موسى من قبل ، فهنا الاعتذار باعتراض : ﴿لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ مردود عليهم بنقض المثل ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا...﴾ فما ذا تفيدهم المماثلة المقترحة إلا مماثلة الكفر ، ولا يزيدون غير تحسير .

كما و «قالوا» أهل الكتاب هودا أو نصارى نفس القالة : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ (٦ : ١٢٤) . ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ كفرا بإشراك حيث عبدوا العجل ، وكفرا في مواضع عدة كقصة البقرة واضرابها ، وكفرا بالبشارات المحمدية المدعوة في التوراة «قالوا» هؤلاء الكفرة من أهل الكتاب لموسى وهارون ، وللتوراة والقرآن ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ لا «ساحران» تعميقا في فرية السحر كأن كل كيان الكتابين والرسولين سحر ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾!.

(١) الواو في «أولم» عطف على محذوف هو الكفر بالرسالات السابقة والرسالة الأخيرة ، فهم في ثالث الكفر بالرسالة ما تشابه منها وسواها.

ثم «من قبل» كما تتعلق ب ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا...﴾ قصدا إلى المشركين زمن موسى ، كذلك تتعلق ب ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قصدا إلى الحاضرين ، توحيدا بين الحاضرين والغابرين في ذلك الكفر المماثل.

ومهما كان المعنيان معنيين من «سحران» ولكننا الأصل هنا هما الكتابان كما يشهد له ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ كجواب التحدي فيهما : ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ بغير مظهرهما كأنهما آية بينة ، وأظهر القول هنا هو من المشركين ، والكتابين معنيون على هامشهم ، فالنقض يشملهما جميعا مهما اختلفت دركاتهما في كفرهما ، وإلى جواب ثالث تحديا ان يأتوا بمثل التوراة والقرآن :

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤٩ .

وحين لا بد في الرسائل الإلهية من كتب الوحي ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ : التوراة والقرآن ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في فرية السحر ، فأتوا من عند الله بغير سحر هو أهدى منهما اتبعه ، وذلك تنازل في التحدي ، فانه من واجهة اخرى قبلها ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ... إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢ : ٢٣) .

وترى التوراة الحاضرة هي كتاب هدى مطلقة حتى يتحدى بها؟ علّ القصد هنا إلى التوراة الأصلية ، أم والحاضرة المهيمن عليها القرآن مخطئا أخطاءها ومصوبا صوابها ، ثم التحدي بهما جميعا ولا أهدى منهما جميعا ولا مثالا لهما! ، ثم الهدى في بعد الدعوة الرسالية ماثلة في التوراة الأصلية مهما لم تكن في بعد الحجة للداعية .

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ٥٠ .

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ ولن «فاعلم» ثباتا على علمك بالوحي بمزيد علم من ذلك التحدي «انما» ليس إلا ﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لا عقولهم المتحللة عنها ، غير المحجوبة بها ، وذلك هو الضلال البعيد أن متبع الهوى

يحاول أن تتبعه الهدى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ ضلالا ذا بعدين بعيدين عن الهدى : اتباع الهوى . بغير هدى من الله! فقد توافق الهوى الهدى أحيانا كما تخالفها اخرى ، واما اتباع الهوى كأصل ، ثم التخلف عن الهدى الأصل فهما أضل ضلال ، وأظلم ظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فلا يهدي الهوى المتخلفة عن الهدى . وكضابطة ثابتة كلما لا يوافق كتاب الله وسنة رسول الله ، أو تخالفهما من رأى ، فهو هوى ضالة ، مهما أثبتته الأدلة العلمية والعقيلة أماهيه ، فإما هدى تختص هي بوحى الله ، وإما هوى تعم ثلوثها نفسا وعقلا وعلمًا ، كما وان رسول الهدى ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(١).

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥١ .

وانه قول الوحي الهدى حيث ترى على مدار الزمن دونما انقطاع ﴿وَمَا نُزِيلُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤٣ : ٤٨) «ولقد» تأكيد في بعدي الرسل والرسالات ، وهما والكتابات ، وهما والمعجزات ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ الحق المطلق ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ به ولما

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٢ في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن احمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن (عليه السلام) في الآية قال : يعني من اتخذ دينه رأيه بغير امام من أئمة الهدى.

وعن علي بن ابراهيم بسند متصل عن سدير قال قال ابو جعفر (عليه السلام) يا سدير أفأريك الصادين عن دين الله ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان وهم حلق في المسجد فقال : هؤلاء الصادون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين ، ان هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحدا يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وعن رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ..

إلا شذرا منهم قليلا وأكثرهم كافرون.

فهؤلاء المشركون الناكرون لوعي القرآن دونما اية حجة إلا لجة غامرة من الهوى ، غير عامرة بالهدى ، ثم أولاء أهل الكتاب وكأنهم لم يؤتوا الكتاب ، واما :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٢.

أترى ضميري الغائب في «قبله . به» راجعان . فقط . إلى القرآن ، لأنه هنا كان محلّ النقض والإبرام كما ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ ..﴾؟ والحق في ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ هو الرسول الحق برسالة حقة في القرآن : ﴿قَالُوا لَوْ لَا أُوتِيَ﴾ هذا الحق الرسالي ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ..﴾! أم هما راجعان إلى رسول القرآن؟ و ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ لا تعني إلا القرآن! الوجهان هما المعنيان ، والرسول يتلى عليهم كما القرآن ، بل وهو ايضا قرآن : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ، وحتى إذا لا تناسبه ان يتلى ، فهذه قرينة انه القرآن ، وتلك ﴿.. الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنه نبي القرآن ، فهما . إذا . معنيان ، فهما واحد مع أنهما اثنان.

ف ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ رسولا وقرآنا «هم به» قرآنا ورسولا «يؤمنون» وطبعا ليسوا هؤلاء كل الذين أوتوا الكتاب ، بل هم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢ : ١٢١)^(١) ، اجل أولئك الأكارم يؤمنون به

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣١ . اخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي رفاع قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم ابو رفاع إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فآمنوا فأوذوا فنزلت ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وفيه اخرج عبد بن حميد وابن .

قرآنا ونبية ، لا فحسب بل و ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢ : ١٤٦) ﴿... الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦ : ٢٠). ^(١) وقد نص عليه في التوراة

. جبرير وابن المنذر عن قتادة في الآية كنا نحدث انها أنزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون إليها حتى بعث الله محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) وصبرهم على ذلك وذكر لنا ان منهم سلمان وعبد الله بن سلام.

وفيه (١٣٣) اخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : نزلت في عبد الله بن سلام لما اسلم أحب ان يخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعظمته في اليهود ومنزلته فيهم وقد ستر بينه وبينهم ستر فكلهم ودعاهم فأبوا فقال : اخبروني عن عبد الله بن سلام كيف هو فيكم؟ قالوا : ذاك سيدنا وأعلمنا ، قال : رأيتم ان آمن بي وصدقني أتؤمنون بي وتصدقوني؟ قالوا : لا يفعل ذاك هو افقه فينا من أن يدع دينه ويتبعك! قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : رأيتم ان فعل؟ قالوا : لا يفعل! قال : رأيتم ان فعل؟ قالوا : إذا نفعل ، قال : أخرج يا عبد الله بن سلام فخرج فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أولم تثنوا عليه آنفا؟ قالوا : إنا احببنا أن تقول اغتبتكم صاحبكم من خلفه فجعلوا يشتمونه فقام اليه أمين بن يامين فقال : اشهد ان عبد الله بن سلام صادق فابسط يدك فبايعه فانزل الله فيهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ...﴾ وعن سعيد بن جبرير نزلت في سبعين من القسيسين فبعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ عليهم ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ حتى ختمها فجعلوا يبكون واسلموا ونزلت فيهم هذه الآية ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣١ . اخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال : كان أبي من الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل الكتاب وكانوا عشره فلما جاؤا جعل الناس يستهزءون بهم يضحكون منهم فانزل الله : أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ...

كما في النص العبراني التالي «يدعوا ييسرائل إوايل حنييا مشوكاع إيش هاروح عل روب عونخا ورباه مشطماه» :

بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون ان النبي الأمي المصروع صاحب روح الهامي وصاحب الوحي! و «المصروع» هنا تعريض عليهم حيث ﴿يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾!

﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ ٥٣ .
 ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ القرآن . أو . ونبي القرآن عرضا عليهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ نبييا بكتابه ، وإن اختصت التلاوة بالقرآن ، فحين يتلى عليهم يقولون آمنا به : تاليا ومتلوا عليهم ، حيث القرآن برهان أن من جاء به رسول من عند الله ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ الآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ المطلق ﴿مِنْ رَبِّنَا﴾ بل ليس فحسب الايمان الآن ف ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ لما بشرنا في كتاباتنا السماوية بالقرآن ونبيه ، وكنا ناظرين ظهور ذلك الحق المبين ، ف :
 ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ٥٤ .

مرة أولى من الأجر الموعود بما آمنوا بكتابتهم ونبيه ، واخرى أن آمنوا بما يتلى عليهم من القرآن ونبيه ^(١) أو الأولى بما آمنوا به من قبل ، واخرى لما

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٣ ، أخرج احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاثة يؤتون أجراً مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر ورجل كانت له امة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وفيه اخرج احمد والطبراني عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من اسلم من أهل الكتاب فله اجره مرتين.

يتلى عليهم ، أم الأولى بإيمانهم في المرحلتين ، ثم ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾^(١) في المرحلتين من الإيمان ، «صبروا» على عقبات الإيمان وعقوباته من ضفة اللإيمان ، لا فحسب انهم صبروا على الأذى بل واستعلوا على الكبرياء النفسية : «ويدرءون» : يدفعون أو يرفعون «ب» الطريقة «الحسنة» وبنفس الحسنة «السيئة» وكما أمروا ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٤١ : ٣٤) ﴿وَبِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الإيمان ، ودرء السيئة بالحسنة دفعا عن الإيمان وقبيله وعن أنفسهم ، بمال وقوة في الروح أو الجسم.

وقد تعني الحسنة والسيئة الحياة ، فالحياة الحسنة وهي الإيمانية الصابرة المثابرة ، يدفعون الحياة السيئة المتكاثرة المكابرة ، والتقية في مجالاتها الصالحة من الحسنة والإذاعة في غير صالحها سيئة^(٢) : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١٣ : ٢٢).

ثم الدرء قد يكون دفعا ولما تصبه السيئة وهي مشرفة ، أم رفعا كما التوبة الرافعة للمعصية ، وكذلك ترك كبائر السيئات وفعل كبائر الحسنات ، وعلى أية حال فسنة الحياة الإيمانية المليئة بالشبكات والشوكات والحرمانات

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣١ . اخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال : كان أبي من الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل الكتاب وكانوا عشرة فلما جاؤا جعل الناس يستهزئون بهم ويضحكون منهم فأنزل الله : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا...﴾.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٢٣ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ على التقية ، ﴿وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ قال : الحسنة التقية والسيئة الاذاعة.

هي . حتى المقدرة . ان تدرء السيئة بالحسنة ، فقد تكون الحسنة هي التقية وأخرى هي الجهاد والمقاتلة كل في سبيل الحفاظ على صالح الايمان والمؤمنين ، فالحياة التي تفني في سبيل القضاء على الكفر هي من الحسنة التي تدرء بها السيئة ، كما وكلما ينفق من مال وحال ومنال وعقل وعلم في سبيل درء السيآت هي من الحسنة ، «فلا تكونن ممن يقول في شيء أنه في شيء خاص» ما وسعت الدلالة لمدايل واسعة شاسعة.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ٥٥.

أولئك الأكارم من أهل الكتاب ، المؤمنون بالقرآن ونبيه هم صابرون في ايمانهم صامدون ، ومن تصبرهم في الله ﴿إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ حين انتقلوا من كتابهم الى القرآن ، سمعوا من أهل ملتهم السابقين ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ والإعراض عن اللغو هو عدم التأثر به ، والإجابة عنه ، وهو من شيم المؤمنين الصادقين ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٢٥ : ٧٢) ولم يقولوا لغوا جوابا عن لغو بل ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فلما ذا اللغو إذا ، فكما لا نسمعكم لغوا إذ لم تؤمنوا فلا تسمعونا لغوا إذ آمننا ، وليس منها إلا ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ في لفظة القال وواقع الحال والأعمال ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾! ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ اللاغين بلغوا لقول وزخرفه رغم ما ييغون علينا هؤلاء المجاهيل ، وهذا من درء السيئة بالحسنة ، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ إلا أن ننصحهم ونهديهم إلى صراط مستقيم.

وهذه مفاصلة حسنة بينهم وبين اللاغين ، اعراضا عن المقابلة بالمثل أولا ، وجدالا بالتي هي احسن ثانيا ، وسلام عليهم اعلاما انهم ليسوا لهم إلا سلامة ثالثا ، ثم متاركة معهم أخيرا : ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أن نكالمهم

أو نجالسهم إذا هم مصرون على الجهالة^(١).

ويا له من ادب بارع يقابلون به السوء الهارع ، إذ هم يحتاجون إلى مزيد من صامد الإيمان ، فلا يحتاجون أمام اللغو من قولة للإيمان ، وإنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للمسيئين ، مهما اقتضى الخير استئصالهم إذا كانوا مفسدين.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ٥٦.

إن رسول الهدى كان يحب ان يهدي الضالين كلهم أو جلّهم فيضيق صدره بما يرى من صمودهم على الضلال قلقة ، ويحاول ليل نهار ان يحصل على عدد أكثر ممن يهتدي إلى الله ، فنزلت هذه واضرابها مسلية خاطره القلق ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ . ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ .. و ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدى التوفيق إلى صراط مستقيم بدلالاتك الرسالية الوافية ، فلا بد لواقع الهدى من ضم الهديين ، هدي منك تدليلا إلى شرعتك ، وهدي من الله توفيقا لتقبلها والإقبال إليها ، وليس

(١) روى محمد بن إسحاق في السيرة «ثم قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بمكة عشرون رجلا أو قريبا من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من امره فلما قاموا عنه اعترضهم ابو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم خبيكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؟ ما نعلم ركبا أحق منكم! فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليهم لما نأل أنفسنا خيرا».

يوفق الله عبداً إلا أن يريد هو الهدى فاهتدى بما تحرى ووفقه الله ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٤٧ : ١٧).

وقد يروى عن رسول الهدى قوله في واقع الضلالة والهدى : «بعثت داعياً ومبلغاً وليس إلي من الهدى شيء وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شيء»^(١) ، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعني من السلب إلا التدليل في الهداية أو التضليل ، ولا من الإيجاب إلا واقعهما في حقل التخيير وليس التسيير.

فليس الرسول هادياً إلا في حقل الدلالة الرسالية : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٢ : ٥٣) ثم الهدى الواقعية توفيقاً لها فوصولاً إليها هي من الله لا سواه ، فالثابتة له هي هداية البيان ، والمسلوقة عنه هي هداية التوفيق.

هذه هي الوجهة العامة للآية واضرابها ، وأما الخاصة ، المتناحرة فيها

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٤ . أخرج العقيلي وابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر وابن النجار عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... وفي نور الثقلين ٤ : ١٣٤ في أصول الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن فضال عن علي بن عقبة عن أبيه قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) : اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فأما ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء ولا تخصموا بدينكم الناس فإن المخاصمة ممرضة للقلب أن الله عز وجل قال لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقال ﴿فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام) ولا سواه واني سمعت أبي (عليه السلام) يقول : إذا كتب الله على عبدان يدخله في الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكرة ، وفي كتاب التوحيد مثله سواء .

بين روايات العامة والخاصة فمما يجب ان نذود عن ساحة القرآن الحكيم ، ما يمس من ساحة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ام ربيّه ووصيه علي امير المؤمنين ، نكاية اولى على الرسول مصارحة ، وثانية عليه إشارة في الإزراء بأخيه في أبي طالب أبيه ، ومن اشنع ما رووه ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يحب إسلام أبي طالب فنزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾ وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزلت فيه ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ..﴾ فلم يسلم ابو طالب واسلم وحشي»^(١)! وذلك البعيد البعيد عرض للمعارضة بين حب الله ورسوله ، نكاية بالإمام علي (عليه السلام) ، والمختلق أعمى!

وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) متظافرة في إيمان أبي طالب ، وقد ألفت فيه كتب فذة وأنشدت أشعار ، والشعر والنثر المنقول عنه شاهد لإيمانه ، وقد آوى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صغيرا وحماه كبيرا وحتى النفس الأخير من حياته كان من أعظم المناصرين له (صلى الله عليه وآله وسلم)! وقد تبلغ أشعاره في مدح النبي وتصديقه سفرا فذا ، كما الروايات في إيمانه.

(١) في المجمع قيل نزول قوله «انك...» في أبي طالب فان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يحب ... رروا ذلك عن ابن عباس وغيره ، وفي الدر المنثور ٥ : ١٣٣ عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة فقال : لو لا ان تعيرني قريش يقولون ما حملة عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك فأنزل الله : انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين.

﴿وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطْفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا

تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا
مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

هنا قولة اخرى غادرة للمتخلفين عن الإيمان من هؤلاء المشركين القاطنين في
حرم الله ، بعد ما وجوا بنقض وتحذ في قولتهم الأولى ، وشهدوا أن الرسول حق ، يردها الله
عليهم بإجابات عدة تستأصل كل أعذارهم وأغذارهم ، فإما ان يؤمنوا أم يظلوا كافرين
لمصلحيات متخلفة خاوية :

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾! ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ
نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْئِ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧.

«إن» هنا دليل قريحهم إلى الايمان لظهور الحجة وبهور الحجة ، أم إظهارا لقريحهم لو لا
المانع ، و ﴿نَتَّبِعِ الْهُدَى﴾ دليل تصديقهم لها وإلا لم يسموها هدى ، و «معك» دليل انه
(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يطلب منهم اتباعه ، بل اتباع الهدى معه ، الهدى التي معه ،
واتباعها معه إلى الله.

﴿نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وهي الحرم المستفاد من ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا﴾ والتخطف هو
الاختلاس بسرعة ، إذ لا تمهلنا كتلة الشرك أن نضل هنا بعد أن آمنا!.

وهنا عليهم ردود عدة تلميحية وتصريحية ، ومن الأولى المعطوف عليه المعروف ل ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ..﴾ ك : لم نمكن المؤمنين طول التاريخ الرسالي ونورثهم الأرض كما في بني إسرائيل والذين من قبلهم ومن بعدهم حتى هذه الرسالة الأخيرة ، مهما تحملوا . على طول الخط . صعوبات هي طبيعة الحال في مسيرة الايمان بسيرته خلاف اللايمان .

ومن التصريحية كرد حاضر هو المعطوف هنا ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ..﴾ فقد مكنه الله لهم وهم مشركون ، ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ يحترمونه فلا يحاربون فيه إلا شذرا نذرا وهم عارفون تلك الحرمة المنقطعة النظير في ذلك الحرم المحترم ^(١).

فمن ذا الذي مكنه لهم حرما آمنا . وهم لا حرمة لهم . إلا الله ، أمنا تكوينيا وتشريعيا ، فأحرى لهم ذلك الأمن إن آمنوا وطبقوا شرائط الايمان .

وهنا «آمنا» بدلا عن «مأمونا فيه» للتدليل على مدى الأمن فيه كأنه هو الأمن فضلا عن قاطنيه كما ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (٣٢ : ٩٧) ثم الكعبة المباركة يزيد أمنا لحد كأنه بنفسه الأمن : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (٢ : ١٢٥) ومما لا يريه شك ان مكة المكرمة هي أءمن البلاد تكوينيا

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٥ في روضة الواعظين قال علي بن الحسين عليهما السلام كان ابو طالب يضرب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . إلى أن قال . : فقال ابو طالب : يا ابن أخ إلى الناس كافة أرسلت ام الى قومك خاصة؟ قال : لا بل إلى الناس كافة الأبيض والأسود والعربي والعجمي ، والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال ومن في لجج البحار ولأدعون السنة فارس والروم ، فتخيرت قريش واستكبرت وقالت : اما تسمع الى ابن أخيك وما يقول؟ والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختطفتنا من أرضنا وتقلعت الكعبة حجرا حجرا فانزل الله تبارك وتعالى ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى ..﴾ . أقول : طبعاً لم يكونوا هم كل قريش ، وانما هم الذين وجعوا بتلك البراهين ولم يبق لهم عذر إلا هذا ، كما تدل الآية.

وتشريعيًا وحتى قبل الإسلام ، وقد كان يتخطف الناس من حولهم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٢٩ : ٦٧) ولقد آمن قليل من هؤلاء العاذرين فأواهم الله وأيدهم بنصره مهما هاجروا : ﴿وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨ : ٢٦).

﴿.. حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والإجباء هو الإجلاب و «يجبى» مستقبلا مما يدل على استمرارية جيبها من كل مكان في كل مستقبل أكثر مما كان ، وطبعًا حسب الحاجيات الوقتية والمستمرة للحجيج والمعتمرين والقاطنين.

و «كل شيء» تعم ثمرات القلوب كما في دعاء ابراهيم ﴿فَجَعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ هَمِّي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ..﴾ (١٤ : ٣٧) إلى سائر الثمرات العلمية والعقلية والاقتصادية والسياسية إماميه ، كما هي قضية الحال في ذلك المجال بالحشد العظيم من الحجاج وسائر الزوار ، ﴿رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ وهو الرزق المتميز المنقطع النظير في المعمورة كلها ، جمعًا في هذا البلد الأمين بين كل الثمرات ، في تلك الأرض القاحلة التي لا ماء وافر فيها ولا كلاء! ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جاهلين هذه النعمة والمكرمة العظيمة أو متجاهلين عنها ، وعن ان الذي مكن لهم وآمنهم ليس هو الشرك بالله ، بل هو كرامة من الله بقبلة المؤمنين ومأمن الايمان!.

ثم وأقلهم يعلمون وهم الذين آمنوا وحقق الله لهم وعدهم كما مضت في آية الأنفال (٢٦) ، مهما كان منهم ﴿جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾! ولقد طمأن الله المؤمنين بنصرة من لدنه كما ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٤٠ : ٥١) مهما كانت في

سبيل الإيمان عراقيل وعقبات.

فحتى إذا تخطّفوا من أرضهم ، فهل ان عرضهم المتخطف أولى بالصيانة أم أرضهم ، وقضية الإيمان الصادق اليقين ان يضحى المؤمن للحفاظ عليه بكل ما لديه فضلا عما وعدهم الله من النصر مهما كان سبيله شائكا ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ .
ثم البقاء على أرض الوطن لا يضمن الأمن حين تكون الحياة متخلفة عن شرعة الله والمعيشة بطرة :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥٨ .

وذلك نقض ثان وحجة ثالثة تدحض عاذرتهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ مجتمع كافر غادر ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فالنعمة المعيشة حين تحوّل إلى النعمة فهي بطرة ملهية ، فالبطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها الى غير وجهها ، فبطر المعيشة هو جعلها مبطرة ملهية في غير ما حقّ «والدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» .

وقد تكون «بطرت» من كلا البطر : الشق ، والبطر : تجاوز الحد في المرح ، فعلها لذلك تعدت بنفسها إلى مفعولها ، فقد شقت معيشتها إلى غير عيشتها فبدلت نعمة الله كفرا ، وتجاوزت الحد في المرح والتغنج في النعمة فأصبحت نعمة ونقمة .

«فتلك» البعيد الرذيل العزيل «مساكنهم» البطرة العطرة العالية الغالية ﴿لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إذ هلكت عن سكانها «إلا قليلا» وقد يعم الاستثناء هنا مثلثا من المستثنى منه أن «أهلكنا .. إلا قليلا . لم تسكن إلا قليلا منها .

من بعدهم إلا قليلا» قلات ثلاث في استثناءات ثلاث ، مهما كان الأوسط منها يقتضي ادبيا «إلا قليل» لكن الآخران يقتضيان النصب كما هو ، والجمع بين الكل يقتضي النصب.

فقد أهلكننا إلا قليلا منها ، ولم تسكن ما هلكت إلا قليلا منها ، ولا من بعدهم إلا سكنى قليلة حيث أصبحت ممرات المارة المستفيدة منها قليلا دون أن تتخذ مساكن دائمة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ إذ لا ساكن لها ، فكما ان الله ملك السماوات والأرض في الأصل ، ثم يجعلنا مستخلفين في بعض الملك مجازيا عارضا ووقتيا ، كذلك له هذا الثاني الذي يستخلفنا فيه حين تملك أو يهلك أهلوها ، فقد تملك القرية بأهلها فلا بيوت حتى تسكن وإن قليلا ، وقد يهلك أهلوها وتملك هي بعضا فتبقى بعض البيوت عامرة أو شبه عامرة فلا تسكن إلا قليلا ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ على أية حال.

فيا أهالي أم القرى المرزوقة من كل الثمرات لا تبطروا معيشتها فتستحقوا الهلاك والدمار ، فإن بطر المعيشة هو السبب الأصيل لهلاك القرى باستهلاكها ، وقد أوتيتم ذلك الحرم الآمن ، فاحذروا أن يحل بكم الهلاك كما بالغايرين ، فقد بقيت قراهم شاخصة تحدث عن مصارع أهلها ولم يرثها احد بعدهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ٥٩.

ليس . فقط . إهلاك القرى أن بطرت معيشتها إلا بحجة قاطعة تبين حق المعيشة عن باطلها ، أن يبعث في أمها . رسلها . فأم القرى وعاصمتها متبعة بطبيعة الحال في حق أم باطل ، و «ما كان» على طول خط التكليف «ربك» الذي أرسلك في أم القرى ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي

أُمِّهَا رَسُولًا ﴿لَا فَحْسَبَ «يَبْعَثُ» بَلْ وَ ﴿يَنْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ كُلُّ الْقُرَى آيَاتُنَا «يَتْلُوا» بِنَفْسِهِ أَمْ
 مَرْسَلِيهِ الْحَامِلِينَ دَعْوَتَهُ مَعْصُومَةً عَاصِمَةً ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ﴾ (٢٦ :
 ٢٠٨) ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ فَإِنْهُمْ رَغِمَ الرِّسَالَاتُ فِي أَمِّهَا يَظْلَمُونَهَا
 تَكْذِيبًا لَهَا وَبَطْرًا فِي مَعِيشَتِهِمْ ، ظُلْمًا لَا يَتَحَمَّلُ فِي حَيَاةِ التَّكْلِيفِ دُونَ الظَّالِمَاتِ الْيَسِيرَةِ
 الْقَصِيرَةِ : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا
 تَدْمِيرًا﴾ (١٧ : ١٦) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
 رَسُولًا﴾ (٢٠ : ١٣٤) ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (٦ :
 ١٣١).

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

٦٠.

وهذه حجة رابعة تقطع معاذيرهم عن بكرتها أن أرضكم وكل ما عليها ولكم ﴿وَمَا
 أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فحتى إذا خطفتكم من أرضكم ان اتبعتم معي الهدى ،
 فما هي أرضكم وكل حياتكم إلا متاع الحياة الدنيا وزينتها أمام عرضكم فلتشتروا بها ما عند
 الله ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ مما أوتيتكم ﴿وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ رجاحة الهدى على الردى ، وان
 ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ من «متاع ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟»^(١).

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٥ . اخرج مسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة ان رسول الله (صلى الله
 عليه وآله وسلم) قال : يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، فيقول : رب كيف أعودك وأنت رب
 العالمين؟ فيقول : اما علمت ان عبدي فلانا مرض فلم تعده ، اما علمت انك لوعدته لوجدتني عنده ، ويقول :
 يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني فيقول : اي رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول تبارك .

وذلك هو التقويم الأخير لكل ما أوتيت من شيء فتخافون أن تحتطف منكم إن آمنتم ، والمفاضلة بين أمان الإيمان وأمان اللاإيمان بحاجة إلى عقل عن الحياة وقيمتها ، في مفاضلة بين وعد الله لقبيل الإيمان ووعد الشيطان لقبيله لللاإيمان :

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ٦١ .

كلا الوعد الحسن ومتاع الحياة الدنيا من الله لأهل الآخرة والدنيا ، والوعد الحسن لأهله هو الحياة الطيبة في الدارين ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦ : ٩٧) ف ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ تشملهما ، و «لنجزينهم» تخص الأخرى.

كما وهي حياة النصر الربانية فيهما : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وأما «من» ﴿مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مطمئنا إليها ، غافلا عن الأخرى ف ﴿هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ لسوء الحساب ، حيث المحضرون هم المجبرون على الحضور ، حسابا لسيئاتهم وتحسبا لعقوباتهم ، والحاضرون يوم الحساب هم أعم من المحضرين ، كما في آيات ثمان تعد المحضرين من المعذبين اللهم إلا البعض منها حيث تستثني عن الإحضار عباد الله المخلصين : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ

.وتعالى : اما علمت ان عبدي فلانا استسقاك فلم تسقه اما علمت انك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ، قال : ويقول : يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، فيقول : اي رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ، فيقول : اما علمت ان عبدي فلانا استطعمتك فلم تطعمه اما انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

الْمُخْلِصِينَ ﴿٣٧ : ١٢٨﴾ في احتمال اتصال الاستثناء تعميماً لضمير الجمع كافة العباد ، صحيح ان من الممتعين متاع الحياة الدنيا من يتذرعها للحياة الأخرى ، إلا ان التقابل بينهم . هنا . وبين «من متعناه متاعاً حسناً» يختص هؤلاء الممتعين بمن ﴿رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ فحتى إذا لم تخلف حياة المتاع عذاباً في الأخرى ، فقد يكفي أنها محرمة لها ، وهل من عاقل يرجح هذه الفانية الهزيلة الرذيلة على تلك الباقية الفضيلة؟! فضلاً عن أنها تخلف العذاب الدائب فيها ، ذلك! وإلى سائر المفصلات بين الفريقين في النشاطين ، ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد! :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٦٢ .

وهؤلاء الشركاء المزعومون هم بين خيرين كالملائكة والنبیین ، والشريرين كفرعون ونمرود وسائر الطاغين ، ثم عوان بينهما ككل الأصنام والأوثان إذ لا عقل لها حتى تكون لها خيرة خيرة أم شريرة ، فالأولون ناكرون أنهم شركاء ، هناك كما هنا ، والأوسطون ينكرون حق الشركة ، معترفون بباطلها فهناك يستسلمون ، والآخرون لا عقل لهم فيصدقوا وينكروا ، والثلاثة شركاء في نكران شركهم مع الله إذ نزول الحجب فتظهر الحقائق : **﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٠ : ٢٨) .**

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا هُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيانَا يَعْبُدُونَ﴾ ٦٣ .

﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ هنا هم الشركاء الطغاة بين داعية إلى نفسها ، أم إلى أصنامها ، دون الأولين الأكارم ، فهؤلاء هم حصب جهنم وأولاء من السابقة لهم الحسنی : **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ..**

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٢١﴾ (١٠١).

قال الأولون ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ المشركون الأتباع ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾
 فطبيعة الغاوي هي الإغواء ، كما طبيعة المهتدي هي الإهداء ، مهما كانت باختيار دون
 إجبار كما هي ، فكما غوينا دون قسر ، كذلك أغويناهم دون قسر ، فلا سلطان على
 القلوب في غواية ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (١٢ : ٢٢) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ
 سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاعِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ. فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾
 (٣٧ : ٣٢).

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أترى «ما» هنا موصوفة ، المتبرء منه إلى الله هو
 عبادتهم إيانا ، وهو في معنى قول قائدهم الأول : ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ (١٤ :
 ٢٢) ؟ وصيغته الصريحة «تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا» ! أم موصولة ، فالمتبرء منه هو
 أنفسهم ؟ وصيغته الصريحة «تبرأنا إليك منا حيث عبدنا» ! أم هي نافية نكرانا لعبادتهم إياهم
 كما ﴿قَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٠ : ٢٨) ؟ وقد تكون «أغويناهم» تثبيتا
 لعبادتهم إياهم !

وعلى الكل معنية فإن لكل شاهدا ، ف «أغويناهم» مهما كان تثبيتا لعبادتهم إياهم ،
 ولكنها في الأصل عبادتهم لأهوائهم ، فهي هي آلهتهم التي ألهمتهم عن عبادة الله إلى ما تهواه
 أنفسهم من دون الله ، و ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم إيانا ومن أنفسنا إذ عبدنا ﴿تَبَرَّأْنَا
 إِلَيْكَ﴾ عن عبادتهم إيانا إذ ما كانوا إيانا يعبدون ، وإنما يعبدون أهواءهم ، ام لم تنحصر
 عبادتكم بنا ، بل ومع اهوائكم وهي البادة فيها ، كما يلح تقديم «إيانا» فلم يقولوا : «ما
 كنتم تعبدوننا» فإنها كاذبة ، بل ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا ...﴾ أي ما انحصرت عبادتكم

فينا ، بل ومعنا غيرنا وهي اهوائكم التي دعتكم إليها! وهي الأصل في عبادتكم المتخلفة ،
تبرأنا إليك من جريمة إغواءهم ، ومن عبادتهم لنا ، ومن ان يكونوا . في الحق . يعبدوننا فقط ،
وإنما هي أهواءهم ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (٤٥ : ٢٣) فانما عبدوا أهوائهم مبدئيا ،
ولذلك أطاعونا فيما أغويناهم ، إذ وجدوا فينا أهواءهم ، وأما أنهم ما دعوهم إلى عبادتهم فلا
تصريحة لها ولا لحة ، بل و «أغويناهم» وأضربها تصريحة لهذه الدعوة النكدة الناكبة.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا

يَهْتَدُونَ﴾ ٦٤.

﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لينجوكم من عذاب الله كما وعدتم
فيهم «فدعوهم» شاءوا أم أبوا إذ لا خيرة في أمر الله هناك ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فيما
دعوهم إذ لا يستطيعون ، وهم من الذين حق عليهم القول ، وذلك عذاب نفسي فوق
العذاب ، ثم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ من فورهم متحسرين متمنين ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ فلا
يرووا العذاب ، وقد تعني «لو» هنا استحالة ذلك المتمني فقد مضى يوم خلاص ولات حين
مناص ، إذ يتمنون لو ردّوا فاهتدوا فلم يروا يومئذ لعذاب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦٥.

هذا سؤال تأنيب وتهيب والله يعلم ماذا أجابوا المرسلين ، وكما المرسلون يسألون ،
إلا أن هناك تحجيلا وهنا تبجيل : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ . .﴾ (٥ :
١٠٩) ، لا جواب هنا ولا هناك ، فهنا ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ احتراماً
على علمهم بما علمهم الله ، وهناك تحيرا وانبهارا :

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٦٦.

فرغم انهم على علم بأنباءهم في تكذيب المرسلين عميت عليهم حتى يزدادوا حيرة على حيرة ، فالذاكر لذنبه قد يعرضه اعتذارا ، وأخرى إنكارا ، وفي كل تخفيف وقتي ، فحتى لا يخفف عنهم هول المطلع عميت عليهم الأنباء ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ بعضهم البعض عن أنباءهم لأنهم سواء في التعمية عليهم فهم حائرون مائرون ، و ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ﴾ دون «عموا عنها» يلقي ظلام العمى عليهم ككل دونما منفذ ينفذون عنه ، فهم في ذهولهم صامتون لا يدرون من اي إلى اي يميلون!.

وذلك . فقط . للمكذبين دون المؤمنين على اختلاف درجاتهم في إجاباتهم المرسلين:

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ٦٧.

هنا تقابل بين الصفحة المظلمة للكافرين ، والصفحة المشرقة للمؤمنين ، و «عسى» ترجيهم بذلك المثلث البارع من الفلاح ، توبة وإيمانا وعملا صالحا ، ان يكونوا من المفلحين ، إذ لا يضمن لهم . ككل . العاقبة الحسنى ، فقد يرجعون كفارا في العاقبة ، فليلجأوا إلى الله ملتجئين منه حسن العاقبة ، كما وان الايمان بزميله ليس هو السبب التام للإفلاح لو لا رحمة من الله وفضل ، فعساه لهذا وذاك يأتي هنا بعسى .

وقد تكون ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ ..﴾ استثناء عن ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ تعميما للسؤال في «يناديهم» ، أن الكل يسأل عنهم ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ بين تحجيل وتبجيل وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله

وسلم) (١).

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٨.

ذلك هو الجواب القاطع القاصع الأخير عن عاذرتهم ان لا مؤثر في الوجود إلا الله ، فلا طاقة مستقلة تتخطفكم عن أرضكم ، مستغلة ذلك دون أن يشاء الله ، فان له الخلق والأمر دونما جبر ولا تفويض.

فعلى العبد أن يقدم في الله ما في طوقه ووسعه ، والله الخيرة في أمره أن يفعل ما يشاء كما يشاء ، دون اتكالية بلا سعي ولا عمل ، ولا استقلالية لهم فيما يشاءون ، بل «أمر بين أمرين» أن يسعى ويتوكل على الله فيما يسعاه.

فلا إلغاء هنا للعقول والإرادات والنشاطات ، ولا تفويض لها في الحصول على كل المرادات ، بل عليهم ان يتقبلوا ما يقع ويرضوا بما وقع بعد ما بذلوا . دون تبدل . ما في وسعهم من التفكير والاختيار والتدبير ، والله الأمر من قبل ومن بعد.

ف «وربك» الذي خلقك واختارك ورباك ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لا ما يشاءون «ويختار» فيما يخلق أو يشرع دونما إجبار له فيما يخلق ويختار ما يشاء لا كما يشاءون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ لا في خلق ولا اختيار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في خلق أو اختيار. إن «يخلق» هنا تعم كل خلق للمادة الأولية أماهيمه من خلق ، لا شريك له في أي كان منه وأيان من اي كان ، وكذلك «يختار» في حقلي

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٥ . اخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد والنسائي والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : «ما من احد الا سيخلو الله به كما يخلو أحدهم بالقمر ليلة البدر فيقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبتم المرسلين».

التكوين والتشريع ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٣٣ : ٣٦) مع العلم أن خيرة الرسول إنما هي خيرة الله إذ لا يختار ما يختاره إلا بوحي من الله ، و «ما كان» نهي وليس نفيا يسلب عنهم أي اختيار. ومن اختياره تعالى أمر التشريع أن يختار الرسول الحامل لشرعته ، وأوصيائه المحملين تبين شرعته ، فكما له اختيار الرسول دون سواه ، كذلك له اختيار أوصيائه لا سواه ، وترى ﴿وَمَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ تنفي عنهم الإختيار في الأفعال التكليفية؟ كلاً! والإختيار فيها ثابت بدليل العقل والكتاب والسنة ، والإختيار المنفي عنهم يختص بما يختص اختياره بالله ، كخيرة الخلق والأمر تشريعاً وسواه من أمر الخلق ، وكذلك الإختيار المطلق في الأفعال الاختيارية ، فله الإختيار المطلق في كل ما يختار ، وليس لنا مطلق الإختيار إذ قد تمنعنا موانع عما نختار ، ثم قد نختار صالحاً أو طالحاً لا يختاره الله تكويناً فهناك يكل الإختيار كما في ذبح ابراهيم ولده ، وفي حرقه (عليه السلام) بالنار ، إذ لم يؤثر الإختيار هنا وهناك.

فالإختيار المنفي عنا في حقل التكوين هو الإختيار المطلق ، وفي حقل التشريع هو مطلق الإختيار ، فحين «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» لم يكن لنا في أفعالنا الاختيارية الإختيار المطلق ، فانه تفويض بإشراك بالله في ذلك الإختيار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، وحين لا شارع إلا الله : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (٤٢ : ٢١) فمطلق الإختيار لنا في التشريع. وإن في حكم واحد. إشراك بالله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كما وأن اختيار الرسل وأوصيائهم الحملة لرسالاتهم من غير الله إشراك

بالله في حقل التشريع ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقد استدلل الامام الرضا والقائم المهدي والامام الصادق عليهم السلام بالآية وسواها على انحصار نصب الامام بالله وانحساره عن سواه (١).

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٦ في أصول الكافي ابو القاسم بن العلا رفعه عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل في فضل الامام وصفاته يقول فيه : هل يعرفون قدر الامامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم . إلى قوله (عليه السلام) . لقد راموا صعبا وقالوا إفكنا وضلوا ضلالا بعيدا ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الامام عن بصيرة ، زين لهم الشيطان اعمالهم فصدتهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول الله إلى اختيارهم والقرآن يناديهم : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقال عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم (عليه السلام) حديث طويل وفيه : قلت فأخبرني يا ابن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الامام لأنفسهم؟ قال : مصلح ام مفسد؟ قلت : مصلح ، قال : فهل يجوز ان تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت : بلى ، قال (عليه السلام) : فهي العلة وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك ثم قال (عليه السلام) : اخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل وانزل عليهم الكتاب وأيدهم بالوحي والعصمة إذ هم أعلام الأمم ، أهدي إلى الاختيار منهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام ، هل يجوز مع وفور عقلهما إذ هما بالاختيار ان تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان انه مؤمن؟ قلت : لا . قال : هذا موسى كلّم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من اعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عز وجل سبعين رجلا ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم فوقع خيرته على المنافقين قال الله عز وجل : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ . إلى قوله . ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله عز وجل للنبوّة واقعا على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه .

وقد تحتل «ما» هنا بجيب كونها نفيا ، أنها موصولة : ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ اختيارا فوق كل اختيار ، فلا يمضى اختيار ولا يمشى إلا ان يختاره الله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا وإن كان في نفسه صحيحا ، وهو قضية الأمر بين أمرين ، إلا أنه ليس يختار كل ما كان لهم الخيرة ، كما في قصتي إبراهيم الخليل وأضرابهما ، إلا ان تختص ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ بالبعض دونما استغراق ، لا سيما وأنه ضمن المعني من «ما» إذ تعنيهما كما هو الصالح لساحة الربوبية.

ومن الخيرة الإستخارة في مورد الخيرة ، حين لا تزول بتفكير ولا مشورة فيظل الإنسان حائرا لا يدري من أي إلى أي وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(١).

.الأصلح دون الأفسد علمنا ان الاختيار لا يجوز أن يفعل إلا من يعلم ما تخفي الصدور وتكن الضمائر وتنصرف إليه السرائر وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح! ، وفي تفسير الفخر الرازي ٢٥ : ١٤ روى ابو امامة الباهلي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى.

وفيه عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) في كلام طويل : وتعلم ان نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيتة وهم عاجزون عن إتيان اقل شيء في مملكته إلا بأذنه وارادته قال الله عز وجل : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ...﴾.

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٥ . اخرج البخاري وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال كان يعلمنا السورة من القرآن يقول إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا اقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري .

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ٦٩.

إذا فهو - لا سواه - الذي له الخيرة إذ يعلم كائنات الصدور وكنائنها ، فلا تخفى عليه خافية منها ، فهو الذي يعلم صالحهم من طالحهم ، تكوينا وتشريعا وانتصابا لرسول وأوصياء ، وانتخابا لآيات الرسالة وموادها كما يعلم بحكمته العالية ، فيختار كما يعلم دون اختيار من سواه إذ لا يعلمون كما ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٧٠

﴿هُوَ اللَّهُ﴾ لا سواه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ كله لا لسواه ، ﴿فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ فلا يحمد سواه إلا من يحمل رضاه حمدا متجها في أصله إلى الله ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ لا حكم بجنبه لسواه «واليه» لا سواه «ترجعون» كما منه تبدءون ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وانها كلمة التوحيد بأركانها الثلاثة بعد ركني السلب والإيجاب ، فلأنه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذا ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ في كل حقوله واتجاهاته ، في الدارين ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ تكوينا وتشريعا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هنا في الخلق والأمر ، وهناك في الحساب فالثواب والعقاب ، ثم «هو» هنا كما ترجع إلى الذات المقدسة الغيبية ، كذلك راجعة إلى «ربك» السابق ذكره خلقا واختيارا وعلمنا بما تكن صدورهم ، ذلك «هو الله» دون من لا يخلق ولا يختار ولا يعلم كما هو ، ف ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ في الذات والصفات وكافة شئون الألوهية

- وعاجل أمري وآجله فاقدري لي ويسره لي وان كنت تعلم ان هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري وعاجل امري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ورضني به ويسمى حاجته باسمها.

والربوبية ، توحيد بينة الجهات ، محلقة على كلّ النشآت ، في الذات وفي صفات الذات ،
يزيل كل وحشة ودهشة عن المؤمنين به ، مطمئنا إياهم على أية حال ، في كل حلّ وترحال .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ

بِضْيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ٧١ .

سرمد الليل . وهو تداومة عذاب . كما سرمد النهار عذاب ، وقد تلمح له «عليكم»
هنا وهناك ، و ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيها لاختلاف شروط الحياة في الدارين ، فليكن القياس
في المعروف من الحياة الأولى ، وترى كيف يجتمع سرمد الليل وإتيان الضياء فيه وهما لا
يجتمعان مهما كان هناك إله يأتي بضياء ، فالحال محال سواء أكان الله أم لإله سواه؟

ليس القصد هنا إلى تحدّي الجمع ، بل هو نقض الإرادة الإلهية في سرمد الليل
المعروض ، فلو كان هناك إله يريد ليرحمكم عن بأس الليل السرمد لقسم الزمان الى ليل ونهار
كما قسمه الله ، أو ﴿يَأْتِيَكُمُ بِضْيَاءٍ﴾ دون (نهار) هو من تعميم التنازل ، أنه إذا يأتي بنهار
فليأت بضياء مهما كان بغير الشمس ، لأن سرمد الليل يقتضي تباعد الشمس لحد لا
تضيء هذه الكرة ، وإذا أتى بالشمس فقد أتى . بطبيعة الحال . بكلا الليل والنهار قضية
حرك الأرض الدورانية .

والقصد من ذلك التحدي ليس هو نقض الإرادة الإلهية ككل ، بل هو تميمها لو
أنه جعل عليكم الليل سرمدا ، فليكن الإتيان بضياء دون نهار فيه استئصال إرادته عن
بكرتها .

فالناس متشوقون إلى فلق الصباح حين يطول بهم الليل أيام الشتاء ، أم لا يهنأ لهم
الليل لعارض يعرضهم ، فيحنّون إلى ضياء الشمس ، فكيف بهم لو فقد الضياء عن بكرته ،
فان سرمد الليل بظلامه يظلم الحياة

ويكدرها ، على فرض إمكانية الحياة إن جعل الليل سرمدا ، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ إلى هذه الذكريات التي توقظكم من همود الإلف والعادة في تتابع الليل والنهار؟.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ٧٢.

فالليل سكن والنهار فيه ابتغاء فضل من الله وإبصار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إلى ضوء النهار الذي هو فضل وإبصار كيف يصبح عذابا إن كان سرمدا ، فكلما الليل والنهار رحمة متعادلة معتدلة :

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٧٣.

فلكل من الليل والنهار خاصة رحمته ، من سكن الليل وإبصار النهار : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (١٠ : ٦٧). فأصل السكن وضابطته هو في الليل ، كما أصل الإبصار والابتغاء من فضل الله ضابطة في النهار ، مهما تبادلا فيهما أحيانا لضرورة معاكسة : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٣٠ : ٢٣).

وآيتنا هنا عوان بين الآيتين ، فاللف والنشر المرتب بين ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وبين ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ينحو نحو الأولى ، وعدم ذكر كل بعد كل يلمح إلى الأول ، والأولى أولى لأولوية الترتيب ، والثانية هامشية إذا اقتضت الحال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ في الترتيب الأصل ، وفي المعاكسة الفرع ، فإنهما على اختلافها نعمة ورحمة ، قبال الرحمة والنقمة في سرمد الليل أو النهار.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٧٤.

هذه تتكرر هنا بعد آيات ثمان في حجة متصلة متواصلة ، لأنها تجدد بعدها ظرفا

راجعا لتكرارها :

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا

كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ٧٥.

فمشهد نزع شهيد من كل أمة هو رسولها الذي يشهد بما جاء به واجابته فصدقته أو كذبتة ، ذلك المشهد يتقاضى الشركاء الشهداء المزيفين ، ليكون الشهيد ان بمعرض العرصات بين ضفتي الإيمان والكفر ، فيقضي الله امرا كان مفعولا «فقلنا» للصفة الكافرة ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وهم خواء خلاء عن كل برهان «فعلموا» علم اليقين بعد ما تجاهلوا «أن الحق» كله «لله» دون من سواه ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من شركائهم ، فالشهداء الحق يشهدون عليهم كما يشهدون لمن سواهم أو عليهم ، ثم لا شهداء لهم من شركاءهم ، إلا شركاء في جحيم النار وبئس القرار ولات حين فرار.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ

بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
 (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ
 أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ
 قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)
 فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ
 (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ

الدَّارِ الْآخِرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

الآيات السبع الأولى عرض عريض عن سيرة أثرى الأثرياء في تاريخ الإنسان ومسيرته

ومصيرته ، وهي تصوّر الدركات السبع الجهنمية له ولأضرابه

من الطغاة البغاة.

ولا تهمنا في ذلك العرض معرفة من هو قارون؟ إلا أنه ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ ولا يستفاد منه إلا أنه كان من بني إسرائيل دون القبط الفرعونيين ، تأشيراً عشيراً إلى أن القومية لا تفيد الإنسان ما لم يتخلق بأخلاق القائد الروحي للقوم ، فقد يتخلف عنها . على إيمانه المدعى . لحد يصبح انحس واتعس من قوم فرعون ، وقد كان قارون هكذا ، إذ جاء ذكره الفصل كأصل بين الطغاة بعد فرعون وقومه والألداء الأشداء من المشركين على مدار الزمن حتى مشركي قريش ، وقد نصحه قومه بإيحاء من الشرعة التوراتية بخمس هي سلبيات ثلاث وإيجابيتان :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْفُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ٧٦.

إن قلة الايمان وضآلته ، بكثرة الكنوز وقد فرح بها ومرح ، هي السبب لبغيه ما بغى ، في حين أن فرعون وقومه ييغون عليهم ، وما أنحسه بغيا عليهم وهو من قوم موسى؟ وقد ودعت ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ كمجهل يعلم أنه يحلق على كل دركات البغي ، عرضاً ونفساً ومالاً وعقلاً وعقيدة الايمان ، وهي النواميس الخمسة التي يجب الحفاظ عليها ، ولكنه بغى عليهم ككل وفي كل هذه ، ولو كان بغياً دون الجميع لأتى بما يدل عليه ، فالإطلاق يلمح إلى طليق البغي ، وهكذا يصنع المال بوفره في قلب مقلوب عن الهدى ، مليء من الردى ، فيبغى صاحبه بماله وماله على كل المستضعفين كما يهواه ويستطيع ، و ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾. أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى﴾ (٩٦ : ٧).

والكنوز هي الجواهر الثمينة ذهباً وفضة أماهيه ، المخبوءة تحت

الأرض ، الفاضية عن الاستعمال وتداول الأيدي ، «وآتيناه» دليل انه ظفر بها بإشارة إلهية دون علم من عنده ، ويكفي بياننا لعظم هذه الكنوز وكثرتها «ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة» وهنا بطبيعة الحال تحل المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) محلها من الواقع أن «كانت أرض دار قارون من فضة وأساسها من ذهب»^(١).

وما هي «مفاتيحه»؟ أهى «مفاتيحه» جمع مفتاح : ما يفتح به القفل؟ ولا مفاتيح للكنوز ككنوز إلّا إذا استخرجت الى غير محابئها الكانزة ، وإذا لا تسمى كنوزا! وحتى إذا سميت بها ، ام بقيت في محابئها وأقفلت ، فلا تصل مفاتيحها لحدّ «لتنوء بالعصبة أولي القوى»! وأقل العصبة . علّها . عشرة ام تزيد كما في اخوة يوسف ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وإذا كانت العصبة اولي قوة ، فكل واحد منها يحمل لا قل تقدير مائة كيلو غراما ، فحمل الكلّ لأقل تقدير الف كيلو غرام! وذلك . علّه . أثقل من كل مفاتيح الكنوز في الأرض كلها! فيا ويلاه إن كانت العصبة أو ألو القوة عشرة آلاف كما في رواية^(٢).

ثم التبعر في الكنوز خلاف الحيطه للحفاظ عليها فلتجمع في مكانات عدة شاسعة واسعة ، تكفيها لأكثر تقدير كيلو غرام من المفاتيح! ثم «مفاتيح» هي جمع مفتاح دون المفتاح!

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٦ . اخرج ابن مردويه عن سلمان رضي الله عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٣٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام): وما يكون أولوا قوة إلا عشرة آلاف.

أم إنها الكنوز نفسها؟ وليست هي مفاتيح ، ولا أنها مفاتيح لنفسها! ولا أن حمل العصبة العشرة أولى القوة ، ثروة منقطعة النظر!.

إنها «مفاتيحه» جمع مفتاح ، وهو مكان فتح الكنز وهو بابه ، والضمير المفرد الغائب راجع إلى «ما» فقد كانت أبوابها كبيرة وثقيلة لحد ﴿لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ والنوء هو النهوض بالحمل على ثقل للحامل ، والعصبة من يتعصب بعضهم لبعض متضامين في قوتهم كرجل واحد ، ولو كانت هي المفاتيح لكانت المفاتيح دون المفاتيح ، ولكانت تناء بالعصبة لا «تنوء» فهي . إذا . أبوابها العريضة الثقيلة التي تنهض بالعصبة أولى القوة ، كما وأن باب خير كانت لتنوء بالعصبة ونهض الإمام علي (عليه السلام) بفتحها شخصيا دون حاجة إلى سواه! ... ولقد كان مرحا فرحا بما أوتي من الكنوز جامحا شرها في بغيته بما أوتيته ، فوجد من قومه من يحاول رده من بغيته باستئصال سببه وهو فرحه بكنوزه : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ بما لك فيلهيك عما يعينك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بأموالهم وعلى أية حال ، إلا فرحا بالفوز عند الله ، ولحدّ يشجع صاحبه إلى ما يرضاه الله ، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ ..﴾ (٣٠ : ٤) ومن سواهم يفرحون بالحياة الدنيا بغير الحق : ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (١٣ : ٤٦) . ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٤٠ : ٧٥) . ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ (٦ : ٤٤).

ف «لا يحب» يختص بهؤلاء الفرحين دون أولئك المؤمنين ، ولأن الله يحب فريقا ويبغض آخرين ، ف «لا يحب» عبارة أخرى عن «يبغض» ، وكما «لا يبغض» هي الأخرى عن «يحب» ، وذلك لأن الله عالم الغيب والشهادة ويده ناصية كل شيء ، لا انعزالية له عن أيّ من المخلوقين ، فلا ثالث عنده ألا يحب ولا يبغض ، فإنه إما لجهل بمادة الحب والبغض ، أم جهل بمن

يحملهما! وفرح الزّهو الذي هو من مخلفات الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء وحسن الحال ، إنه بطر يلهي عما يعنى ، وينسي النعمة والمنعم وما يتوجب على المنعم .
 كما أن فرح الشكر بما أنعم الله ، مستخدما في سبيل مرضات الله ، تفريجا للمؤمنين بالله وتفريجا عن عباد الله ، إن ذلك فرح الإيمان كما نراه من أهل الله ، هنا وفي يوم لقاء الله : ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٣ : ١٧٠) ف «لا تفرح بكثرة المال ولا تدع ذكرى على كل حال فان كثرة المال تنسي الذنوب وترك ذكرى ينسي القلوب» ^(١) ، وذلك نهي صارم عن فرح عارم ، ومن ثم أمر ثم نهي ثم أمر ثم نهي ، فإنهما القائمان بالإصلاح في المفسدين .

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٧٧ .

الابتغاء هو التطلّب ، فهم يأمرونه أن يتطلّب فيما آتاه الله من الكنوز

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٨ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام قال : أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى (عليه السلام) : لا تفرح .. وفيه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه : والفرح مكروه عند الله عز وجل ، وفيه عن كتاب التوحيد بإسناده إلى أبيان الأحمر عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام انه جاء اليه رجل فقال له : بأبي . وامي عطني موعظة فقال (عليه السلام) : إن كانت العقوبة من الله عز وجل حقا فالفرح لماذا؟

وفي الدر المنثور ٥ : ١٣٧ عن أبي الدرداء قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فانه معالج جسد خاو وموعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك يجزئك فان الحزين في ظل الله يوم القيامة .

وسواها من النعم آفاقية وانفسية ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ لا فحسب هذه الأدنى ، إخلادا إليها ، ومشية المكب عليها ، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ﴾ الحياة «الدنيا» فلا نصيب لك أخيرا فيها إلا الكفن ، إذ لا تسحب معك غيره فتصعبه في الأخرى ، ولا في الأخرى إلا متاعها أن تشري ذلك الأركس الأدنى بالحياة العليا ، ولا لك قبلهما إلا قدر الحل من الحاجة المعيشية والزائد عليها وبال هنا وفي الأخرى ، فلتغتتم الفرصة السليمة لك فيها قبل فوات الأوان ، فما لك نصيب من الدنيا فيها وفي الأخرى إلا هذه الأربع ، من ينساها أخلد إلى الأرض وتابع هواه وكان امره فرطا ، و ﴿نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ لا «فيها» مما يدل على ان النصيب منها يعني صالح الدارين ، فالحياة الدنيا لكل على قصرها هي بكل جنباتها نصيب المتاع للأخرى ، فليتزود منها لها ، من نسي النصيب المتاع أقبل إليها مبصرا إليها فيعمى ، ومن تمتع بها للأخرى مبصرا بها أبصرته.

فالذاكر نصيب الحاجة من الدنيا يوسع على خلق الله فيما زاد عنها ^(١) والذاكر نصيب رأس المال فيها مالا وحالا يتجر بها للأخرى ^(٢) والذاكر نصيب الكفن منها لا يطمئن ويركن إليها ، «وأحسن» إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ «وأحسن» في نفسك أعمالك لله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٩ في الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤتى يوم القيامة برجل فيقال : احتج ، فيقول : يا رب خلقتني وهديتني وأوسعت علي فلم أزل أوسع على خلقك وأيسر عليهم لكي تنشر علي هذا اليوم رحمتك وتيسره فيقول الرب جل ثناءه تعالى : صدق عبدي أدخلوه الجنة.

(٢) المصدر عن معاني الأخبار بإسناده الى موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر قال حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الآية قال : لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك ان تطلب بها الآخرة.

إحسانا بإحسان واين احسان من إحسان.

ف «أحسن» حالا ومالا واعمالا ، كما وكل ذلك مما ﴿أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وذلك تمثيل المجارة ، وإلا فما احسان العبد يجنب إحسان الله بشيء يذكر!

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) بما أحسن الله إليك ، جزاء الإحسان بالإساءة ، ولا تبدل نعمة الله كفرا تحل بها نفسك وذويك دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو ييغضهم ، فالمال والشرء ذريعة ضارعة هارعة إلى كل إفساد في الأرض عرضا وعقلا وعقيدة ونفسا ومالا ، لا سيما إذا كان بأيدي مردة الشياطين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ولأن هذه النصائح كانت مستأصلة لزهوة الشرء ، والالتفاء بالنعماء ، فهو يزعمه يستأصل ان تكون كنوزه مما آتاه الله ، قائلًا في جوابهم قولته النكدة الجاهلة :

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ﴾

(١) المصدر في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) فساد الظاهر من فساد الباطن ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته ومن خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية ، وأعظم الفساد أن يرضى العبد بالغفلة عن الله تعالى وهذا الفساد يتولد من طول الأمل والحرص والكبر كما اخبر الله تعالى في قصة قارون : ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين وكانت هذه الخصال من صنع قارون واعتقاده ، وأصلها من حب الدنيا وجمعها ومتابعة النفس وهواها وإقامة شهواتها وحب المحمدة وموافقة الشيطان واتباع خطواته وكل ذلك مجتمع تحت الغفلة عن الله ونسيان مننه.

المُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

ذلك الجواب . في زعمه . يستأصل كل تأنيب في هذه التساؤلات المتبّية ﴿أَتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ﴾ ب ﴿إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ فلم يؤته الله اياي . لو آتاه . دون علم وجدارة ، وقد تلمح «أوتيته» دون ﴿آتاه الله ..﴾ أنه أوتي إياه على علم منه دون مشية من الله ، فالأول إشراك بالله في ذلك الإيتاء ، والثاني إلحاد فيه بتوحيد العلم في ذلك الإيتاء! أن ليس لله أي مدخل فيه حتى إذا لم يكن على علم عندي ، صدفة فيه ام تقصدا ممن سوى الله . وهذان مزعمتان للأكثرية الساحقة ممن أوتوا مالا أو منالا ، موحدين أو مشركين أو ملحدين ، مهما استثنى الأولون عن الإلحاد في الإيتاء : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٩ : ٥٢) .

وتلك القولة الفاتكة من قارون هي قولة المغرور المطموس الناسي مصدر النعمة وصادرها حيث تعميه الثراء ، قاله خاوية مكرورة على مرّ الزمن للأكثرية المطلقة ممن أوتيتها مهما اختلفت دركاتهما فيما تعنيه .

وتراه ماذا عني بقالته القالة : ﴿إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ مع العلم انه يحصر إيتاءه به مهما كان الإيتاء من الله أم سواه؟

أهو علم التوراة؟ وقد أوتي موسى وسائر المرسلين أكثر منه يوحي صارم لا دخيل فيه ، ولم يؤتوا كنوزا كما أوتي! وكان ذلك يكفيه نقضا لما ادعاه ، دون النقض بإهلاك قرون قبله! . أم علم جمع المال؟ ولا يختص به علمه! فكثير هؤلاء الذين يعلمون

ما يعلمه وأكثر ولا يؤتون معشار ما أوتي! ثم وما هو - إذا - دور «عندي» وكان يكفيه «بعلمي»!

إم إنه علم محال الكنوز؟ وقد تؤيده «عندي» اللاحمة إلى اختصاصه به ، كما وأن «على» الإحاطية هنا ، تجعله يحيط علما بمحال الكنوز! والكنوز مع العلم بمحالتها هما من الله!.

أم إن «عندي» تعني رأيه الخاص ، ف «عندي» إنما أوتيته على علم مني يحيط بموارد الكنوز أما ذا من علم مدعى؟ وإيتاء الكنوز على أية حال ليس إلا من الله امتحانا أم امتهاناً!

وعلى أية حال يدعي أن ﴿عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ هو فقط السبب لذلك الإيتاء ، فقد أوتيته بجدارة واستحقاق ، سواء أكان المؤتي هو الله أم سواه فلي التصرف فيه كما أريد ، فلا حق لله ولا لمن سواه فيما يختص بي.

وهنا الجواب كلمة واحدة مشيرة إلى سواها ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ معطوفا على محذوف معروف ك :

الم يعلم ان كثيرا ممن كان على علمه وأعلى لم يؤت ما أوتي ولا معاشره ، فليس إذا ﴿عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ وان لم يعلم ذلك لحمقه في عمقه ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ كفرعون ونمرود وشداد بإرمه ذات العماد ، فإن كانت هذه الكنوز أوتيت على علم ، فلما ذا الإفساد بها في الأرض وذلك جهل ، وليس لمن يحصل على نعمة بسعي وعلم ان بيد لها نعمة ويفسد بها ، وإذا أوتيته على علم ، فيعلم هو طرق الحصول على كنوز ، فكيف لم يعلم ان ليس كل ذي علم يؤتى ما أوتيته ، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ ..﴾ وعلم تحصيل المال أجهل من كل جهل إذا لم يعلم كيف يتصرف فيه ، ولم يعلم ما هو مصير المفسدين بأموالهم في الأرض! وذلك هو العلم النافع البارع أن يحجز صاحبه

عن وبال المال على أية حال ، لا . فقط . ما يجمع به المال ، إن صح أن العلم هو الذي يجلب الأموال !.

فالشرعة الإلهية تحدد الملكية الفردية تحصيلًا بكيفية ، وتحميدا وتصريفا ، فلها في كل هذه الثلاث حدود مقررّة في كتابات الوحي ولا سيما القرآن والسنة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم).

فليكن تحصيل المال بوجه مشروع ، وإبقاؤه وصرفه بوجه مشروع ، والتخلف عن شرعة الإقتصاد قد يكون ثلوثا محرما في زواياه الثلاث ، أم حلا في اقتناؤه محرما في الآخرين ، أم وحلا في مصارفه محرما في إبقائه ، أو معاكسا له ، فلا حرية . إذا . في التصرفات الاقتصادية مصرفيا بحجة الحل في اقتناء المال .

فكما أن الحصول على المال بغير الحلال إفساد في الأرض ، كذلك إبقائه تكتيزا ، أم صرفه بغير وجهه ، هما أيضا إفساد في الأرض .

فهب إن قارون أوتي كنوزه بحلّ كما تلمح له «وآتيناه» . ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أم على جهل ، ولكنها على أية حال مال الله يؤتاه هو وأحزابه فتنة وابتلاء ، وأصحاب الأموال الطائلة إنما هم مستخلفون فيها إنفاقا صالحا دون إسراف ولا تبذير : ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (٥٧ : ٧) فالمتخلف عن الإنفاقات الصالحة ، تكتيزا أم تصريفا غير صالح ، هو من المفسدين في الأرض ، المهتدين بالدماء والبوار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ . ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ . إذ ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (٥٥ : ٤١).

وهذا السؤال المنفي هو الاستعلام ، حيث الملك العلام يعلم كل إجرام فلما ذا . إذا . سؤال الاستعلام ، لا هنا عند ما يهلكون ، حيث

يباغتهم عذاب الاستئصال ، ولا هناك مهما سئلوا سؤال التنديد والإفحام دونما استفهام : ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٣٧ : ٢٤) ، وعذاب المجرمين مباغته دون تساؤل الاستعلام ، فهو عذاب فوق العذاب ، وهذا هو مصير الأثرياء المفسدين في الأرض بثرواتهم الهائلة ، ولا سيما هؤلاء الذين يحصلون عليها ببغي ، بسعي أم دون سعي . تلك النصيحة الفسيحة الفصيحة لم تزد صاحب الكنوز إلا عتوا ونشوزا ، وإفسادا في الأرض أكثر مما كان :

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ٧٩ .

«على» هنا تلمح لخروج عال غير متعود إظهارا لقوته الزاهية وشوخته العالية «في زينته» كأكثر ما يمكن ، فقد خرج بمسرح هذه المسيرة الغالية في كل زينة له ممكنة ، ليقطع ألسنة الناصحين ، ويقمع الحاسدين عليه الناقمين ، فقد تصدق ما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه «قال في اربعة آلاف بغل يعنى عليه البريون»^(١) .

في ذلك الخروج ينقسم قومه قسمين : ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ و ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ والأولون وهم الأكثرية الساحقة في كل زمان ومكان ، هم الذين تستهوي زينة الحياة قلوبهم وتبهرهم دونما تطلع إلى الحياة العليا ، فتهافت نفوسهم كما الذباب على الحلويات ، وتتهاوى في هوات ، سائلة لعابهم على ما في أيدي الأثرياء ، ذوي الزينة والكبرياء ، يتمنون لو أن لهم مثل ما لهم ، إذ هم . فقط . يريدون الحياة الدنيا ، ويرونها الحظ العظيم ، وذلك

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٨ ، اخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قال : ...

هو الجهل القاحل : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٣٠ : ٧) . ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (٥٣ : ٣٠) .

و «يا ليت» التحسر لهؤلاء المجاهيل يُلْقَى على حياتهم غصة على غصة العدم ، متجاهلين عن أسباب الثراء ومسئولياتها وخلفياتها ، فأما الآخرون :
﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيُؤْتِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ ٨٠ .

«العلم» هنا هو الناصح صاحبه وذويه ، فهو علم الإيمان والمعرفة الربانية ، إيماننا صالحا بالتوحيد والوحي واليوم الآخر ، دون مجرد الصلاحيات الجامدة التي تحجب عن ذلك العلم بدل ان تكون نورا ، فهو . إذا . العلم الذي يخشع صاحبه أمام ربه دون إلهاء ، ف ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٣٥ : ٢٨) .

وقضية ذلك العلم النور أن ينير الدرب على المظلمين ، دون كتمان عنهم ولا ضنة ، وهنا ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أدوا واجب النصيحة البالغة لهؤلاء المجاهيل «ويلكم» وهي إما تركيبة عن «وي . لكم» أم مخففة عن «ويل . لكم» وهما متقابلتا المعنى ، هتافا عليهم بتأويله من قولتهم الجاهلة ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ وما أوتي قارون شر ، فلا تعني «خير» هنا المعدّة ب «من» تفضيلا ، إذ لا فضل فيما أوتي حتى يفضّل عليه ثواب الله .

ومن ذا الذي يناله ذلك الثواب؟ ﴿لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ والثواب الناتج عنهما يعم الناشئين ، فإن منه النصرة الربانية : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٤٠ : ٥١) كما منه اللذات الروحية من عبادة الله وزلفاه ، ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله

وسلم) إذا هم أمر استراح إلى الصلاة فإنها كانت قرة عينة في الحياة.

﴿وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ وترى ماذا تعني «ها» والسابق عليها ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾

مذكرا لا يتحمل ضمير التأنيث؟

التلقيية هي التفهيم كما التلقي هو التفهيم ، ولكنه تفهيم يلقى شغاف القلب ، فهو أخص من التلقن ، ولقد عدّ الصبر هنا ظرفا لذلك التلقي ، وليس هكذا صبر إلا من حصائل الايمان والعمل الصالح ، فقد تعني «ها» تلك العظمة . سواء أكان استثناء «الصابرون» من الذين أوتوا العلم ، أم تلحيقه معترضة من الله ، فلا تصل هذه العظة إلا إلى «الصابرون» على فتنة الحياة وزينتها وإغرائها ، و «الصابرون» على حرمانها ، فهم أعم ممن أوتي متع الحياة ومن حرمها ، بل والصبر على وجدانها أحجى وأقوى.

هؤلاء الصابرون ، وهم المؤمنون العاملون الصالحات ، هم يلقون هذه العظة من قبل الله وأهل الله فيتلقونها.

وأما رجوعها إلى هذه الثلاث «ثواب الله . آمن . عمل صالحا» فغير صواب ، حيث الصبر هكذا هو من مخلفات الايمان والعمل الصالح ، فكيف يلقيان مع الثواب للصابرين ، اللهم إلا إيمانا أئمن ، وعملا صالحا أصلح ، هما من خلفيات ذلك الصبر ، وهذا من باب الاستخدام ، أن لا يلقى ثواب الله ومزيد الايمان والعمل الصالح إلا الصابرون ، إلا أن ثواب الله هنا يتبني أصل الإيمان والعمل الصالح لا مزيدهما ، والتلقيية التفهيم لا تناسب واقع هذه الثلاث أم سواها ، فهي إذا تلقيية العظة ، فلكل عظة ظرف له صالح ، ولهذه العظة ظرف الصبر على زخارف الحياة الدنيا لمن أويتها أو حرم عنها.

هنا . وقد بلغت فتنة الزينة ذروتها . حيث تنهافت أمامها بعض النفوس المؤمنة وتتهاوى فضلا عن سواها . هنا من الرحمة الربانية ان تتدخل يد القدرة ، تحطيمًا للغرور الجاهل القاحل ، وحفاظا على ضعاف الايمان :

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ ٨١.

ومهما كان مع قارون . في خروجه بزنته . أهله وهوامشه أم لم يكونوا ، فالحسف حسب هذا النص خصّه دونهم ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ قارون «وبداره» التي كان فيها . بطبيعة الحال . قسم عظيم من ثروته ، فقد ابتلعت الأرض بداره ، هاويا فيها بلا فئة ينصرونه من دون الله ، حيث تركته وشأنه الشائن ، كما هو دأب الهوامش المتملقين دائما أنهم شركاء في رغد العيش فإذا جاء البلاء فحيدي حيا! ولا فحسب ان لم تنصره فئته ، بل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ يائسا عنهم ، يائسا في الخسافه!.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانُّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ٨٢.

﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ وهم ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وما كانوا من الصابرين على زهرتها وزهوها ، ولم يلقوا العظة من الذين أوتوا العلم ، هم الآن . وقد رأوا كيف خسف الله به وبداره الأرض . ينتبهون قليلا ﴿وَيُكَانُّ اللَّهُ ..﴾ دون ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ إذ لم يبلغوا بعد إلى اليقين بان الله يبسط ويقدر ، ولا أنه لا يفلح الكافرون ، وإنما «ويكانه» في النفي والإثبات فهم بعد في سبات ، وعلى أية حال وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس وهم يرون مصير قارون وهو رأس الزاوية! فانما الثراء هي ابتلاء قد تعقبها البلاء ، فقليل هؤلاء الأثرياء الذين لا يبدلون نعمة الله كفرا ونعمة ، وكثيرهم الكافرون . وهنا يسدل الستار على الفريقين ، نقلة إلى ضابطة صارمة للناجحين في هذا الميدان :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٨٣.

إن الدار الآخرة بالزلفى والمكانة العليا ، «تلك» البعيدة المدى ، العالية الصدى ،
الغالية الهدى ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الحسنى ، حصيلة لحسنى الأولى «نَجْعُهَا» تكويننا وتشريعنا
﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أيا كان ، وحتى في منصب العدل والحكم الحق ، إذ لا
يريدون في ذلك الحقل إلا تحقيق الحق وإبطال الباطل ، وما العلوّ الحكم عندهم إلا ذريعة
لذلك ، وكما أشار إمامهم أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى نعله المخصوف قائلا : «والله
لهي أحب إلي من إمرتكم هذه إلا أن أقيم به حقا أو أبطل باطلا». فالعلو في الأرض لهم
غير مراد ، ثم ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بعلو وغير علو ، والعلو أيا كان يستتبع فسادا مهما كان لأهل
العدل إلا من عصم الله وهداه.

فارادة العلو هي بطبيعة الحال من أقوى مصاديق الفساد في الأرض ف ﴿مِنَ النَّاسِ
مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ
أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢ : ٢٠٦) ... وليس ان إرادة العلو في
الأرض ممنوعة . فقط . لألد الخصام ، بل وعدول المؤمنين ، لأن كراسي الحكم مآزق بطبيعة
الحال ، وقل من ينجو منها ، وقد يروى عن رسول الهدي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله
في الآية : «التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق»^(١)

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٩ . اخرج المحاملي والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) في قوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ...﴾ قال : ...

و «لما دخل عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) عدي بن الحاتم ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أشهد انك لا تبغي علوا في الأرض ولا فسادا فأسلم»^(١) و «أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ألا تعلوا على الله في عباده وبلاده فان الله تعالى قال لي ولكم ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾»^(٢).

وعن وصيه وخليفته في أمته علي امير المؤمنين (عليه السلام) «فلما تخضت بالأمر نكثت طائفة ومركت اخرى وفسق آخرون كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه ان يقول ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾.. بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها»^(٣).

فقد يعني منها اني لست من هؤلاء الذين يريدون علوا في الأرض ولا فسادا فلما ذا . إذا . ثلوث النكث والمروق والفسق ، فلا يصلح لولاية أمور المسلمين إلا مثلي ، وكما يقول «نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من ساير الناس»^(٤).

(١) المصدر . اخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال لما دخل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عدي بن حاتم ..

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٤٣ في امالي الطوسي باسناده إلى ابن مسعود انه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في كلام طويل : ...

(٣) المصدر عن نهج البلاغة عنه (عليه السلام).

(٤) عن مجمع البيان وروى زاذان عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه كان يمشي في الأسواق وهو وال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبائع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ هذه الآية ويقول : نزلت ...

أجل فقد «ذهبت والله الأمانى عند هذه الآية» ^(١) أمانى العلو في الأرض حتى للمؤمنين العدول فضلا عن سواهم!

وهذه الآية طليقة في التنديد بمن يريدون علوا في الأرض أيا كان فتنونين التنكير تنكير على تلك الإرادة على أية حال ، وحتى «ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها» ^(٢)!

فإرادة العلو في الأرض دركات أسفلها ارادة القيادة الكبرى للأمة ، وأدناها إرادة الأجود من المال أو الحال ، إلا أن يتغنى مرضات الله وتحقيق شرعة الله ، وكثير هؤلاء الذين يريدون علوا كذريعة ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ وكما نراه على مدار الزمن الرسالي للرساليين فضلا عن سواهم.

وفي كلمات للإمام علي (عليه السلام) حول قيادة الأمة نبراس ينير

(١) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حفص بن غياث قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) يا حفص! ما منزلة الدنيا من نفسي إلا بمنزلة الميتة إذا اضطرت إليها أكلت منها ، يا حفص إن الله تبارك وتعالى علم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون فحلم عنهم عند اعمالهم السيئة لعلمه السابق فيهم ، فلا يغرنك حسن الطلب ممن لا يخاف الفوت ثم تلا قوله : تلك الدار الآخرة .. وجعل يبكي ويقول : ذهبت والله الأمانى عند هذه الآية ، قلت : جعلت فداك فما حد الزهد في الدنيا؟ فقال : قد حد الله عز وجل في كتابه فقال : ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..﴾.

وفيه عن كتاب سعد السعود وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال : ان الرجل ليعجبه ...

(٢) المصدر ١٤٤ سلام الأعرج عن امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الدرب على من يريدون صالح الحكم بلا علو في الأرض :

فحينما تجتمع عليه الأمة الحائرة المظلومة . قاصرة ومقصرة . ليبياعوه يقول : «دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا»^(١).

«وبسطتم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداكتم علي تذاك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووطيء الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت إليها الكعاب»^(٢).

«فأقبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون : البيعة البيعة ، قبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجذبتموها»^(٣).

«فما راعني إلا انثيال الناس حولي كعرف الضبع ينثالون علي حتى لقد وطيء الحسنان وشق عطفائي مجتمعين حولي كربيضة الغنم»^(٤).

«إني إلى لقاء الله لمشتاق وإلى حسن ثوابه لمنتظر راج ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاءها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا وعباده خولا والصالحين حربا فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام وجلد حدا في

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٨ ص ١٨٢ عبده.

(٢) الخطبة ٢٢٤ ص ٢٤٩.

(٣) الخطبة ١٣٣ ص ٢٧.

(٤) الخطبة الشقشقية ١٣٣ : ٢٧.

الإسلام ، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ ، فلولا ذلك ما أكثرت تألييكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكم ولتركتكم إذا أبيتم وونيتم ^(١) : «أما والذي فلق الحبة وبرء النسمة لو لا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت كأس آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عنز» ^(٢).

«فو الله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا علي خاصة»! ...
«فقمتم بالأمر حين فشلوا ، وتطلعت حين تمنعوا ، ومضيت بنور الله حين وقفوا ، وكنت أخفضهم صوتا وأعلاهم فوتا ، فطرت بعنائها ، واستبددت برهانها ، كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، لم يكن لأحد في مهمز ، ولا لقائل في مغمز ، الذليل عندي عزيز حتى أخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى أخذ الحق منه ، رضينا عن الله بقضائه وسلمنا لأمره» ^(٣).

اجل وان هؤلاء الطيبين لا يقوم في نفوسهم خاطر العلو في الأرض والاستعلاء بأنفسهم لذوات أنفسهم ، ولا يهجم في قلوبهم الاعتزاز بأشخاصهم ، فانما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملاها الشعور بالله وإعلاء كلمة الله.

(١) الكتاب ٦٢ ص ١٣١ عبده.

(٢) تنمة من الخطبة الشقشقية.

(٣) الخطبة ٣٦ ص ٨٤. أقول : راجع كتابنا علي والحاكمون تجد فيه تفصيل البحث عن حق الحكم والولاية الحقة.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهي الحياة العاقبة لمسيرة الحياة ومصيرته لمختلف الأحياء ، هنا في الرجعة وهناك في البرزخ والقيامة ، والمتقون هنا هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، فضلاً عن أن يحاولوا الاستعلاء ، اللهم إلّا إعلاء لحكم السماء في أرض الله .
 ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٨٤ .

علّ «الحسنة» هنا هي الحياة الحسنة المحلّقة على العقيدة والنية والعمل ، والسيئة خلافها ، و ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ هي أضعافها بADEة من عشرة ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ .. (٦ : ١٦٠) وهذه ضابطة ثابتة ، وقد تزيد حسب مزيد الحسنة أثراً وكياناً كما في آيات ، ولأن السيئة لا يجازى بها صاحبها إلّا العملية ، دون سوء النية ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

فالحسنة المضاعفة الجزاء يعم الأعمال والنيات والطويات ، والسيئة المكافحة تخص الأعمال دون النيات ، وأما العقائد السيئة فبارزة الأعمال فيها داخلية في الأعمال ، وسيئة العقيدة دون عمل تشملها الآيات الواعدة سيئي العقائد النار ، أم هي داخلية في ﴿عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ شمولاً لأعمال القلوب والقوالب ، وليست النية عملاً ، بل هي نية العمل ، يثاب على حسنيتها دون سيئتها ، ثم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حصر لجزاء السيئات على قدر الأعمال ، فنفس العمل السيء هو جزاءه إذ يبرز بحقيقته يوم تبلى السرائر ، وليس غير المحدود صورة واقعية للسيئة المحدودة إلّا مزيداً غير محدود وهو ظلم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ !
 ثم ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ..﴾ تحدد موقف الحسنة والسيئة أنه حين

المجيء إلى عالم الجزاء ، فالحسنة . إذا . هي عاقبة الحياة الحسنة ، مهما كانت سابقتها أيضا حسنة أم سيئة .

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٨٥ .

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ هو الفرض الرسالي تلقيا لوحيه وتفهما له وتطبيقا بنفسه وتبليغا للمرسل إليهم ، وقد ذكر من فرضه عليه تلاوته ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ..﴾ (٢٧ : ٩٢) ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ (١٨ : ٢٧) ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

ولأن القرآن هو الوحي الأخير الشامل كافة المكلفين الى يوم الدين ، ففرضه الرسالي البلاغي هو البلوغ إليهم أجمعين ، وبأحرى منزل وحيه الأول أم القرى فانها عاصمة الدعوة القرآنية .

ثم ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ وهذه آية منقطعة النظر في صيغة الفرض والرد إلى معاد ، مما يضحّم أبعاد رده (صلى الله عليه وآله وسلم) الموعود إلى معاد ، فما هو «معاد»؟
أتراه معاد الآخرة إلى الجنة ^(١)؟ ولم يكن فيها حتى يرد إليها! والصيغة الصالحة له «الجنة» دون «معاد» منكرا ، ولا حتى «المعاد» معرfa ، لأنها اليتيمة التي تحمل لفظ «معاد» دون سواها من كل آيات المعاد!

(١) الدر المنثور ٥ : ١٤٠ . اخرج الحاكم في التاريخ والديلمي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لرادك إلى معاد «قال : الجنة .

أم هو الموت ^(١)؟ ولم يك ميتا حتى يرد إلى الموت! ولا يخصه ذلك الرد الممنون فيه عليه! ثم ولا منة في الموت ما دامت الحياة الدنيا مدرسة الآخرة!.

أم هو الرجعة أيام المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه ^(٢)؟ ولا يناسب خصوصها المقام ولا الطمأنة الحاضرة لخاطره الخطير عن بأس المشركين!

أم هو الرجوع إلى مكة المكرمة ^(٣) ، ردا إليها بعد هجرية؟ والسورة مكية ولما يهاجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة!.

«معاد» هنا كأصل في الموعود رده إليه هو في الحق مكة المكرمة ، وقد

(١) المصدر . اخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري «لَرَأَيْتُكَ إِلَى مَعَادٍ» قال : الموت.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٤٤ عن تفسير القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي جعفر عليهما السلام قال : إنه سئل عن جابر فقال : رحم الله جابرا بلغ من فقهه انه كان يعرف تأويل هذه الآية يعني الرجعة وفيه عنه حدثني أبي عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن عبد الحميد الطائي عن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليهما السلام في الآية قال : يرجع نبيكم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين والأئمة صلوات الله عليهم.

(٣) الدر المنثور ٥ : ١٣٩ . أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال لما خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة فبلغ الحجرة اشتاق الى مكة فانزل الله : ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد إلى مكة وفيه اخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين بن وائد قال : كل القرآن مكّي أو مدني غير قوله : ان الذي فرض ... فانها أنزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الهجرة فهي مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان ، وكل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فانها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان.

أقول : وقد أخرج إلى مكة في تفسير إلى معاد عن ابن عباس ومجاهد.

نزلت الآية في غضون هجرته عنها إلى المدينة ، بالغ الحجة ام دونها ام ولما يخرج من الغار ، إذ تكفي في نزولها حالة الهجرة ، ثم وجو السورة المستعرضة قصص موسى ومن أهمها رجوعه إلى «معاد» الدعوة الرسالية «مصر» يناسب وعد هذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) برده إلى معاد الدعوة الرسالية وهو مكة المكرمة ، فكما خرج موسى من مصرها ربا مطاردا يتربص ، كذلك الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكما وعد موسى ان يرد إلى معاد الدعوة كذلك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فامض يا رسول الهدى في مهجرك ، ودع امر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن ، وانما سمي مكة معادا لأنه مكان العود ، وعد محتوم في ذلك الرد لحدّ يسمى مكانه «معاد» كما ومكة معاد لكل مسلم على مدار الزمن ، أخذنا من رسالتها الحمديّة وعودا إليها.

كما وهي معاد

الحج وميعاده.

ف ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (٨ : ٥) كذلك ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾. ذلك تفسير رده إلى معاد ومن تأويله رده بعد موته إلى معاد الرجعة ، فكما «معاد» الى مكة المكرمة كان له فتحا مبينا ، كذلك معاد الرجعة حيث الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية ، وقد ردّ إليه معه (صلى الله عليه وآله وسلم) عترته المعصومون وسائر النبيين وكل من محض الايمان محضا ، كما يرد اليه كل من محض الكفر محضا ، وقد يعود في معاد رجعته إلى معاد هجرته فهما معا. إذا. مكان عوده قبل مماته وبعده ، وقد يعني تنكير «معاد» جنسه الشامل لمعاد الدعوة ومعاد الرجعة ومعاد القيامة ، والرد إلى الأخير اعتبارا إلى لقاء الله ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فلو غنى واحدة من هذه لعرف : «المعاد».

ف «قل» على أطلال تلك البشارة السارة بكل قوة وسداد ، لهؤلاء الذين كفروا بك وانكروك وأخرجوك «ربي» الذي رباني لهذه الرسالة القرآنية المفروضة عليّ ﴿أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ وذلك لائح من التربية الرسالية الباهرة فيّ ، وهو ﴿أَعْلَمُ ... مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقد يبين ذلك في «معاد» مكة و «معاد» الرجعة ، ثم في «معاد» يوم القيامة! .
 ذلك رجاءك بما نعدك غير مكذوب ، كما وألقينا إليك الكتاب ولم تك ترجوه :
 ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ ٨٦ .

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا﴾ حيث المعدات . المتعوّدة العلمية لتلقي ذلك العلم القمة . منفية ، ومكة بلدة جاهلة قاحلة ، والفترة البعيدة الرسالية ، وقومك اللد ضد الرسالة ، هذه واضرابها مما تقطع الرجاء عن إلقاء ذلك الكتاب الكافل للدعوة العالمية في الطول التاريخي بالعرض الجغرافي .

و ﴿أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ دون ان ينزل ، لمحة أخرى إلى عدم الرجاء ، حيث الملقى إلى مكان قد تلغى فيه ظرفية المكان ، وكل ذلك اليأس هو قضية الحالة الظاهرة ، ولكنما الهالة الباطنة الزاهرة ، كانت تتطلب تلك الرسالة الباهرة ، ف ﴿وَمَا كُنْتَ .. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ حيث رباك تربية خفية حفية لتلك الرسالة البهية ، ليناسب منزل الوحي نازله ، مهما لم يكن يرجوه صاحب المنزل .

و ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ استثناء متصل إذ كانت رحمة ربه له مرجوة ، عائشا بين ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا﴾ كنفسه بظروفه آفاقية وانفسية مهما كان بالغ القمة المعرفية ، وبين ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ إشراقه رحيمية من ربه الذي رباه لهذه الكرامة الكبرى والدرجة العليا ، فجملة القول في هذه الآية هي الحالة

العوان لرسول الهدى بين الخوف والرجاء!

إذا فلم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتطلع إلى الرسالة ، فانها اختيار الله له كما لسائر الرسل ، حيث المعرفة مهما كانت قمة لا تتطلب بمفردها الانتصاب للرسالة ، فهي رحمة من الله و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ رحمة غالية عالية توهب للمتأهلين كما يعلم الله ويختار ، دون المتطلعين ، وقد اختار للرسالة الأخيرة من لم يتطلع إليها ، بل ولم يرجها ، أو لم ير نفسه مستأهلاً لها تطامنا لله واتكالا على رحمة الله؟.

أو كان يرجوها ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ الذي ربك تربية تؤهلك لهذه الرسالة السامية ، رجاء رحمة من ربك ، وعدم الرجاء اعتبار بنفسك كأحد من الناس مهما كنت بالغ العقل والزهادة!.

إذا ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ كما لم يكن ولن ، وإنما ذلك النهي إعلان على رءوس الأشهاد في هذه الإذاعة القرآنية استئصالاً لآمال الكافرين أن يظاهروهم أو يماريهم ، بل هي مفاصلة دائبة ، ام مواصلة بالحق المبين والدين المتين ، دون تقسيم للبلد بلدين ، بانقسام الدعوة شطرين.

وهنا صلة وثيقة بين ﴿مَا كُنْتُمْ تَرْجُوا...﴾ وبين ﴿لَرَأَيْتُمْ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ان عدم الرجاء في إلقاء الكتاب أولى من عدمه في رده إلى معاد ، وهنا وعد دونما هناك فلترج ما وعدناك من ردك إلى معاد ، أكثر مما لم نكن نعدك من إلقاء الكتاب ، ولتعش رجاء رحمة من ربك دون تلّكع ولا تزعر مهما عارضك العالمون ، فموسى الذي قتل القبطي خطأ خلف عليه تأخر الرسالة والبعد عن معاد الدعوة ، رددناه إليه رسولا ، فأنت الذي ما أخطأت طول عمرك في أيّ من أمرك ، اقرب إلى الرسالة إلقاء للكتاب عليك ، واقرب إلى ردك الى معاد الدعوة ، وهذه نعمة لك عظيمة تتطلب ألا تكون ظهيرا للكافرين ،

وكما موسى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٨ : ١٧).

وهنا الله بما أنعم على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلقاء الكتاب والردّ إلى معاد ، يتطلب إليه ما تستحكم به عرى الدعوة الرسالية ، لا جزاء فإنه غير مفتاق إلى جزاء ، وإنما تنمية للدعوة المحضرة للعالمين ، فهنا نجده في خماسية الطلبات الربانية كدعائم خمس لهذه الدعوة الوامضة الناهضة الباهظة : هي سلبيات اربع بايجابية واحدة ﴿ادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ حيث الدعوة الصالحة إلى الرب تتطلب هذه السلبيات قبلها لتستحكم عراها وتحمي حماها.

﴿وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٨٨.

مواصلة واحدة ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ تتقوم بمفاصلات أربع ، وهي تتوسطها هنا ، وفاعل ﴿لَا يَصُدُّنَكَ﴾ هو كونه . وعودا بالله . ظهيرا للكافرين ، كخلفيّة أولى لذلك الظهر الظهير ، أن يصدّه عن آيات الله ، في اي حقل من حقولها ، والتأكيد في ﴿لَا يَصُدُّنَكَ﴾ يؤكد النهي عن كونه ظهيرا لهم ، أن يتهاون في تلقي الوحي وإلقاءه ، بإلغائه عن فاعلياته ، ام يتهاوى بما يكذبونه فيه أنه سحر أو جنة أم كهانة أما هيه؟.

ثم ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ امر بالمضيّ الصارم في دعوته الناصعة الناصحة ، بعيدة عن كافة النزعات والانتزاعات والرغبات إلا إعلاء كلمة الله العليا ، وإلغاء كلمة الذين كفروا السفلى ، ثم ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله على أية حال ، وإن شركا خفيا كدبيب النمل ، فانه يقصم ظهر الداعية ، ويفصمه عن صالح الدعوة.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مهما كان مصلحيا لاجتذاب المشركين كما اقترحوه عليه

: «أعبد آلهتنا سنة نعبد إلهك سنة» فنزلت سورة «الكافرون» ثورة

قاصمة على ازدواجية الدعوة ومصلحتها ، ف ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ في كل شئون الألوهية ، و :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..﴾ : إذ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٥٥ : ٢٧).

والشيء هو الكائن أيا كان ، إلها ومألوها ، إذا فالله شيء كما الخليفة كلها أشياء ، وان كان الشيء الله هو الذي شيئاً سائر الأشياء ، وبين شيء الله وسائر الشيء تباين كلي ، لا مشاركة بينهما إلا في لفظة الشيء وأصل الوجود ، دون أية مشاركة في ذلك الأصل ، فالأشياء المخلوقة كلها خلو عن شيء الله ذاتا وصفات وأفعالا ، كما الله تعالى خلو عنها في مثلث الجهات ، ف «هو خلو من خلقه وخلقته خلو منه» . «باين عن خلقه وخلقته باين منه» . «لا هو في خلقه ولا خلقه فيه» كما : لا هو من خلقه ولا خلقه منه : مباحضة ذاتية أماهيمه؟.

وترى «وجهه» هنا تعني الجارحة؟ وهي تأويلة عليلة جارحة كيان الربوبية ، انه يهلك . وعودا به . بسائر اجزائه كسائر الكون إلا وجهه! مهما أول انه وجه جارحي لا كسائر الوجوه ، حيث الجارحة لله جارحة ألوهيته على كل الوجوه ، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فلا تركب له حتى تكون له جوارح وسواها من اجزاء وحدود متركبة ف «من المحال ان يهلك منه كل شيء ويبقى الوجه» ^(١) ، ل «وجهه» هنا وجهان ثانيهما وجه كل شيء

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٥ في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه : واما قوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فالمراد كل شيء هالك الا دينه ، لأن من المحال ان يهلك منه كل شيء ويبقى الوجه ، هو اجل وأعظم من ذلك وانما يهلك من ليس منه الا ترى انه قال : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ففصل بين خلقه .

المتجه إلى الله ، رجوعا لضمير الغائب إلى الحاضر الذكر وهو «كل شيء» فالهلاك شامل كل شيء ، إلا وجهه المواجه المتجه إلى الرب ، فإنه باق بقاء الله بإذنه ورحمته ، كالرَبَّانِيَّين من السابقين والمقربين واصحاب اليمين ، والجنة بأهلها ، فلا هلاك كلياً لهم ولها ^(١).

ثم وفي الوجه الأول لا وجه لوجه الجارحة ، فان لكل شيء وجهها يناسبه ، وهو في الكل ما يواجه به ويواجهه ، والله يواجه الكائنات علما وقدرة ، ويواجه معرفيا وعبوديا ، والوجه الوجه هنا لوجهه هو ذاته بصفاته ذاتية وفعلية ، والروحانيون الذين يواجهونه حياتهم معرفيا وعبوديا.

فاختصاص «وجهه» هنا بذاته يقتضي تبديل وجهه بذاته ، فانها صريحة في ذاته ، ووجهه غير صريح ، كما اختصاصه بغير ذاته إدخال لها ضمن الهالكين ، أن ذاته يهلك وسائر وجوهه تبقى!.

إذا ف «وجهه» نعم ذاته كقمة الوجوه ، إلى متعلقاتها الربانية ذاتيا وخارجيا ، ومن الثاني دينه ^(٢) والدعاة اليه ، فإنهم وجه الله الذي يتوجه

. ووجهه ، وفيه عن التوحيد عن أبي حمزة قال قلت لأبي جعفر عليهما السلام قول الله عز وجل : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؟ قال : يهلك كل شيء ويبقى الوجه؟ إن الله أعظم من ان يوصف بالوجه ، ولكن معناه : كل شيء هالك إلا دينه والوجه الذي يؤتى منه.

(١) راجع الى تفسير آية ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ في الفرقان ٢٧ : ٣٣ أ ٣٧.

(٢) المصدر عن التوحيد باسناده الى خيثمة قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الآية قال : دينه ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام) دين الله ووجهه وعينه في عباده ولسانه الذي ينطق به ويده على خلقه ونحن وجه الله الذي يؤتى منه ولن نزل في عباده ما دامت لله فيهم روية ، قلت : وما الروية؟ قال : الحاجة ، فإذا لم يكن لله فيهم حاجة رفعنا اليه وصنع ما أحب.

بهم إليه ، وكما يروى «نحن وجه الله الذي لا يهلك» ^(١) وكما ان المتجهين الى الله بهم ، هم من وجهه ^(٢) والإضافة في «وجهه» تختلف حسب مختلف مصاديق الوجه ، ففي وجه الذات هي من إضافة الشيء الى نفسه ، وفي وجه صفات الذات هي إضافتها إلى الذات ، وفي وجه الدعوة والدعاة ، هي اضافة الفعل الى مصدره ، فإنهم صادرون عن الله فموجهون إلى الله! فالتخلفون عن الله هم هالكون في حياتهم وبعد موتهم وإلى النار حيث تهلك ومن فيها ، والمتجهون إلى الله باقون وان ماتوا فإنهم في الجنة باقون كما هي دون نهاية.

هذه وجوه وجهية من «وجهه» هنا مهما اختلفت درجاتها ، فوجه الذات لن يتغير ولن يهلك بأي هلاك ^(٣) كما صفاته الذاتية ، وصفاته

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٦ عن كتاب التوحيد باسناده الى صفوان قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) : ...

(٢) المصدر عن التوحيد باسناده الى الحارث بن المغيرة النصري قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل : كل شيء هالك إلا وجهه؟ قال : كل شيء هالك إلا من أخذ طريق الحق ، وفي محاسن البرقي مثله وفي آخره : من أخذ الطريق الذي أنتم عليه ، وعن التوحيد باسناده الى صفوان الجمال عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : من أتى الله بما امر به من طاعة محمد والأئمة من بعده صلوات الله عليهم فهو الوجه الذي لا يهلك ثم قرء : من يطع الرسول فقد أطاع الله.

(٣) المصدر في اصول الكافي عن احمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن فضيل بن عثمان عن ابن أبي يعفور قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ...﴾ وقلت : اما الأول فقد عرفناه واما الآخر فبين لنا تفسيره. فقال : إنه ليس شيء إلا يبيد أو يتغير أو يدخله الغير والزوال وينتقل من لون إلى لون ومن هيئة إلى هيئة ومن صفة الى صفة ومن زيادة إلى نقصان ومن نقصان إلى زيادة إلا رب العالمين فانه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة ، هو الأول قبل كل شيء وهو .

الفعلية وهي أفعاله لن تهلك مهما تغيرت كما يشاء بحكمته ، ودينه لا يهلك ، مهما تبدلت شرائعه ، والدعاة اليه لن يهلكوا مهما ماتوا أو قتلوا.

و «هالك» لا تعني . فقط . مستقبل الهلاك حين تهلك النار بمن فيها ، بل والحال على أية حال ، وهو عبارة اخرى عن البطلان ، فهو هلاك الكون والكيان ، ولكن «وجهه» لا هلاك له كونا ولا كيانا ، مهما طرئه موت أو تغير آخر في غير وجه الذات والصفات.

ثم «له الحكم» تكويننا وتشريعنا لا سواه ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى سواه. والمرجع للضمير الأول هو وجه الذات أصليا ، ووجه الدعاة إليه رساليا وبلاغيا ، فإنهم الحكماء من قبل الله ، واما الثاني فلا مرجع له إلا الذات ، إذ لا رجوع إلا إلى الله ، اللهم إلا للدعات المعصومين أيضا لأنهم موازين الأعمال ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ (١٧ : ٧١) ، فهناك رجوع إلى كتب الشريعة وأئمتها كموازين للأعمال والعقائد ، والمرجع الأصيل هو الله.

. الآخر على ما لم يزل ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره مثل الإنسان الذي يكون ترابا مرة ومرة لحما ومرة رفاتا ورميما ، وكالبسر الذي يكون مرة بلحا ومرة بسرا ومرة رطبا ومرة تمرا فتتبدل عليه الأسماء والصفات والله عز وجل بخلاف ذلك.

- (سورة الشعراء) «ذكر محدث» من أدلة حدوث كلام الله ١٧ - ١٥
- موسى ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾؟ حوار بين فرعون وموسى في إثبات وجود الله وتوحيده ٢٧ - ٣٨
- فرعون يهدد السحرة المؤمنين ٤١ - ٤٤
- نوح في حوار مع قومه ٧٢ - ٧٩
- هود مع عاد في حوار ٨٠ - ٨٤
- صالح مع ثمود في حوار ٨٥ - ٩٠
- لوط مع قومه في حوار ٩١ - ٩٦
- شعيب مع أصحاب الإيكة في حوار ٩٧ - ١٠٠
- ﴿وإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هل هو اللفظ أو المعنى أم هما ١٠٣ - ١٠٨
- من هم الشعراؤ المذمومون؟ ومن هم الممدوحون ١٢٢ - ١٢٩
- (سورة النمل) ﴿بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ﴾ من هو؟ ١٤١ - ١٤٢
- ﴿لَا يَخَافُ ... إِلَّا مِنْ ظَلَمٍ﴾ فكيف خاف موسى؟ ١٤٣ - ١٤٧
- ﴿وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ من براهين أن الأنبياء يورثون ١٥٥ - ١٥٨
- ﴿مَنْطِقُ الطَّيْرِ﴾؟ جنود سليمان؟ تلکم النملة؟ وحياتها ١٥٩ - ١٧٧
- رسالة الهدهد العجيبة . ملكة سبا ومملكته ودعوة سليمان إياها ١٧٧ - ١٩٧
- إحضار عرش بلقيس في وجه رباني وتوجيه علمي ٢٠١ - ٢١٣
- آية المضطرين في قول فصل ٢٣٥ - ٢٤٣
- ما هي دابة الأرض التي تكلمهم؟ ومتى وكيف؟ ٢٥٩ - ٢٦٧
- ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ مِنْ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ من براهين الرجعة ٢٦٧ - ٢٧٢
- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ مَحْسَبًا جَامِدَةً﴾؟ ٢٧٤ - ٢٧٧
- (سورة القصص) ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ تشمل كافة المجاهدية في سبيل الله ٢٩٣ - ٢٩٨
- موسى الرضيع حتى الرسالة .. كيف هذا من عمل الشيطان وهو رسول؟! تلقاه مدين ٢٩٩ .

- ﴿قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ .. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ ..﴾ ٣٣٧ - ٣٤٢
- قارون مع موسى وقومه ٣٩٥ - ٤٠٧
- ﴿لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ...﴾ عام يشمل أهل الحق ٤٠٨ - ٤١٢